ثرثرة..

زمن كورونا

محمد إبراهيم محمد

٢٠٢٠

اسم الكتاب: ثرثرة زمن كورونا

اسم الكاتب: محمد إبراهيم محمد

تصميم الغلاف: مي مجدي

تنسيق: نورهان هاني

رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٤٤٧٥م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦٣٣-٨٢٩٧-٠٦-٠

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

ثرثرة..

زمن كورونا

الإهـــــــــــداء

إلى الإنسانية التي كتب الله عليها الفناء..

لا أدري إن كنت سأعيش حتى يرى عملي هذا النور..

أم منبوذا أُوارى الثرى خفية بدون مشيعين ومعزين..

لدي أعمال أدبية..

قد يكون هذا خاتمتها..

إن عشت فهو عمل جاء في ظروف مأساوية..

لأنه ارتبط بفيروس كورونا..

البعبع الذي سيظل عائشا في الأرض بصوره وأشكاله المختلفة..

وإن مت بسببه أو لسبب آخر..

أدعوا الله أن أكون من الذين يؤمنون برسالاته وآياته..

التي يرسلها لمستبدين وطغاة عبر فيروسات دقيقة..

ولمن اغتروا بعلم، تكنولوجيا، ذكاء اصطناعي، وأسلحة مدمرة..

وما دروا أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلا..

(المؤلف)

(١)

الحارة

كانت الحياة في بداية التسعينات من القرن الماضي، تسير في الحارة سيرا مريحا ومقبولا نوعا ما، كانت متناغمة مع كافة الفصول، حينما يجيء فصل الصيف، عادةً ما يخرج الناس من بيوتهم في الصباح الباكر قاصدين أماكن أعمالهم، إما على سياراتهم الخاصة - وهم قلة - أو يمشون راجلين نحو محطة المواصلات، تشنف آذانهم أصوات قرع أجراس المدارس، وأناشيد التلاميذ التي تصدح في الأجواء، وشقشقة الطيور التي تغرد فوق أشجار النيم، القولدمور، الجهنمية، دقن الباشا، والمهوقني التي تنمو على جانبي الطرقات، الدنيا سيمفونية راقية ما فيها خوف من مرض أو هرم، أو مواصلات، الخوف فقط من الموت.

حينما يحل فصل الصيف يلهب ذاكرته، يرجعه عشرات السنين، إلى حكايات لم تندثر بعد، في ذلك اليوم البعيد بدأت الحياة تدب في الحارة، ربات البيوت يتهادين في طمأنينة وسلام وهن في طريقهن إلى مخبز الحارة، لينعمن ويتلذذن ومن معهن في البيوت، بخبز أبيض، طري، شهي، سوبر الحجم. بعد بلوغه السن المعاشية وقعوده في البيت كثيرا ما كان يذهب لإحضار الخبز، في هذه المرة وهو عائد من المخبز، تقابل وجهاً لوجه مع جارتهم (ست صالحة)، نادى عليها بنبرة مؤدبة مهذبة:

(يا ست، الله يديم علينا النعمة، ويكفينا شر الموت، العيش راقد، ما لاقي من يشيل).

ماتت من الضحك، فهي معروفة بأنها نرجسية، تعشق ذاتها، تحب نقد الآخرين وتضخيم نفسها والحديث فيما يعنيها وما لا يعنيها، وتحسن من هندامها ومظهرها، فهي دائما أنيقة ومنشرحة الصدر منفتحة على الحياة، لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة، سمراء اللون متوسطة الحجم، ردت باستعلاء قائلةً:

(سبحان الله الذي أنطق كل شيء حتى الصخر والدواب، أنت مالك ومال الموت، ده وقته، ومالك ومال العيش، خليك في حالك، نائم طول اليوم زي الخرتيت وست بيتك المسكينة تِجنقِل طول اليوم طالعة نازلة بين فرن، ودكان، وكشك الخضار، زي بندول الساعة).

رد عليها بكلمات متقطعة، متمنيا في قلبه أن يكفيه الله شرورها وتمر هذه اللحظات بينهما بسلام:

(والله لو سمعت كلامك ده تتحسبن سبعين مرة، عين الحسود بالعود، يا ست الكل جارتك صاحبتك مريضة، أنا أبدا ما قصرت معها، كلمتها قلت ليها أنا مستعد أشتغل في البيت خدام بدون أجر، تأمر بس، وشبيك لبيك، فـُريرَة تلقاني قدامها أمورها كلها مقضية، ردها كان مثبط للهمة، قالت: لأ، لأ، أنت لا تفهم في الدنيا أي حاجة، تفهم فقط في طباشير وقلم وكراس، خليك في حالك وخلينا في حالنا، من زمان كنت وين؟ استجد شنو؟ الله يطولك يا روح).

وبعد أن قطبت جبينها ورفعت حاجبيها ردت بعبارات قاسية:

(الرجال كلهم مويه تحت تبن، تتمسكنوا وبعد ما تتمكنوا تتفرعنوا، وتعملوا فيها أسياد الناس، وأسياد الحارة، وأسياد البلد، وأسياد الدنيا كمان).

ومن ثم انفلتت ذاهبةً في طريقها غير عابئةً به.

قبل الظهيرة، كالعادة يتهادين كالقطا، في طريقهن إما إلى دكان (عووض) أو دكان (حمودة) أو دكان (ود إبراهيم) أو دكان (البرقاوي) أو دكان (المهداوي)، فلكل واحدة منهن زبوناً يروق لها من هؤلاء إما لرخص أسعاره أو لحسن معاملته، ومنهن من يقصدن معلم (إسحاقو) صاحب كشك الخضار الوحيد بالحارة، تحصل كل واحدة منهن على مرادها بسعر زهيد، في زمان لم ينحدر فيه التجار إلى أسفل دركات الجشع، والغش، والخداع، كأنهم يعيشون حياة بلا موت، ولم يتفش فيهم وباء لعين اسمه الدولار، همه تدمير مناعة اقتصاد الوطن، ونفخ جيوب وحسابات قطط سمان، يتعاملون فيه بسوق أسود.

في طريقه إلى كشك الخضار صادف جارته (سيدة)، المرأة الفارعة الطول، المليحة الوجه، التي تقوم بكل مهام البيت، داخله وخارجه، تعرف أسعار أي شيء، رملة، طوب، إسمنت، طلاء، وتعرف أجور البنائين، والحدادين، والنجارين، والحائكين، وتعرف المحلات التي يمكن أن تجد فيها كل هذه الأشياء برخص التراب، ألقت عليه التحية ثم خاطبته بنبرة متعالية قائلةً:

(ماسورة صهريج بيتنا ليها كم يوم تكب، كم، وكم سباك غيروا العوامة وفكوها وربطوها بدون فائدة، كلهم طلعوا سنة أولى سباكة، ما عارف لي سباك شاطر؟).

رد قائلاً وفي نفسه انطباع جميل عنها تترجمه مشاعر طيبة تدور في داخله (في نسوان عيني عليهن باردة، مليئات بجمال، حياة، وحياء، ومليئات قوة شخصية، وشجاعة، وإقدام، تختهن في الجرح يبرى، إن انعدم الرجال يسِدَن الخانة، وفي نسوان الله أكبر عليهن):

(يا بنت الحلال، السباكين القاعدين على الرصيف ديل من الصعب معرفة الجيد منهم من الرديء، أمشي لأي واحد من زبائنك أصحاب محلات بيع مواد البناء وهو يدلك على ضالتك).

ردت بنبرة حازمة:
(طيب يا أبو المفهومية السباكين الفاشلين ديل ما جبتهم عن طريق جماعتك المحترمين ديل).
هرش شعر رأسه بأصابع يده اليمنى ثم رد قائلاً:
(معنى الكلام ده يا ست الكل المشكلة ليست في السباكين ولا في العوامات، المشكلة في شدة اندفاع المويه في شبكة بيتكم).
ردت وقد نفد صبرها بلهجة لا تخلو من عدم اقتناع بما قال:
(هل نحن عندنا شبكة، والبيوت الثانية عندها شبكة ثانية؟ الشبكة واحدة، لماذا لا تكب مواسير الصهاريج في بيوت الحارة، لازم في ناس عينهم حارة أو في ناس عاملين لينا عمل).
رد بنبرة مازحةً قائلاً:
(خلاص يا ستنا أمشي لفكي (أرباب) عشان يبكم ليكي صهريجكم ثاني ما يقول بغِم ولا يشر مويه أبدا).
تركته وذهبت في طريقها وهي تعلم أنه لا مشكلة داخل بيتها يستعصي عليها حلها، وستجد الحل ولو في الثريا، أو في باطن الأرض.

حلت ساعة الظهيرة، خلت الطرقات من المارة، بدت الحارة في سكون، وكمون، وخمود عجيب، أغصان الأشجار لا تتمايل، الأطيار لا تغرد ولا تطير من فنن إلى فنن، ثم دبت الحركة ببطء بعد سماع المؤذن وهو ينادي لصلاة الظهر، خرج عجائز المصلين من دورهم تلبيةً للنداء، أما الشباب فهم لا يزالون في أماكن أعمالهم، خرج التلاميذ من مدارسهم عائدين إلى بيوتهم بعد انقضاء يوم دراسي.
مشى إسيتيذ على مهل نحو المسجد، مر في طريقه على الحاج (حسن) صاحب المغلق الوحيد داخل الحارة، وبعد أن ألقى عليه التحية، سأله عن أحوال الأهل والأولاد والجيران، ثم خاطبه قائلا:
(بالأمس جات الكهرباء فولت عالي حرق لينا كل لمبات البيت).

رد بنبرة مبتسمة:
(أحمد ربك جات في اللمبات بس، في ناس حرقت ليهم مكيفات، ثلاجات ومراوح كمان).
رد متسائلا:
(الحمد لله، تشوف بلوة أخيك تهون عليك بلوتك، آخر مرة اشتريت منك لمبة كان قبل سنة بالتمام والكمال، إن شاء الله الأسعار لسه مهاودة؟).
أجاب بنبرة هادئة رزينة قائلاً:
(سعرها قبل سنة هو هو، لا زاد ولا نقص ولا مليم أحمر واحد).
تمتم مع نفسه وهو يجرجر رجليه نحو المسجد:
(التجارة كدا ولا بلاش، ذوق، صدق، أمانة، تقدير، واحترام).

قبل أن تمس قدماه تراب صحن المسجد مر على المهندس (أميرو) أبو الإلكترونيات في الحارة، في دكانه ورشته الضيقة التي لا تتعدى مساحتها التسعة أمتار مربعة، تحيط بها من الخارج أكوام من أغطية أجهزة تلفاز قديمة، شاشات مهشمة، وأشياء مكانها المناسب المتاحف، وبعد أن تبادل معه التحية خاطبه قائلا:
(أها يا باش هندسة (أميرو) المكواه جننتنا، صلحتها لينا ثلاثين مرة بدون فائدة، إما سخنت حرقت الهدوم وإما بردت يغطوها ببطانية).
رد بلهجة لا تخلو من سخرية قائلا:
(المكواه كفاها، عمرها الافتراضي انتهى، ماتت، راحت في حق الله، قالت ليك فكني (يا شفيق يا راجل) خلاص شوف غيري، أنت يا أخي ما سمعته بحكاية القلاب الكومر التيير الشين القديم المهلهل، صاحبه وقفه ليلا أمام الباب، وبعدين إبليس اللعين لم يعجبه حال القلاب، قال للعفاريت الصغار لازم أجهجه الإنسي ده جهجهة ليها ضل، قام كتب بالخط العريض على مؤخرة صندوق القلاب (يا عبيط أديني حقي بس فالح تشيل فوقي وتودي).

رد مبتسما قائلا:
(الظاهر عليها غلبتك، كملت كل الرأي والفهم في رأسك الكبير ده).
هز رأسه رد بلهجة مستنكره قائلا:
(الفهم والرأي الفي رأسي الكبير ده كتير خالص ما تكملوا مكوتك، لكن أنا داير مصلحتك ما مصلحتي يا غشيم، صعبان علَي أنك ماشي وجاي زي بندول ساعة الجامع، يدك في جيبك في كل مرة، أفضل تشتري مكواة جديدة لنج وترمي الحديدة الخردة دي، وكده تكون وفرت على نفسك الكثير، وفرت مشاوير وقروش، ووفرت علينا معافرة تطمم البطن وتعمل وجع رأس).
شكره على كلامه الساخر الذي يرَطِب العلاقة بينهما أكثر مما يجففها، ودعه وهو يسرع الخطى نحو المسجد.
عند ساعات العصر يعج ميدانا كرة القدم باللاعبين (الدافوري) الذين يتصادمون، يتدافعون، ويتناطحون كثيران هائجة عطشى عند حياض مياه، وبالمتفرجين الذين يأتون لتسلية وملئ فراغ، وبأطفال وصبية يلعبون الكرة بطريقتهم الخاصة حول الميدانين؛ لفت انتباهه ثلاثة أولاد، يعرفهم ويعرف آباءهم جيدا، ويعرف بيوتهم كذلك، أولهم مشاغب لا يحب العيش في سلام، إن لم يجد من يتعارك معه يتعارك مع ظله، يذهب إلى المدرسة غصباً عنه، نزولاً عن رغبة أبيه، لأنه غير راغب فيها، والاثنان الآخران يلعبان الكرة بطريقة مميزة، تنبئ لهما بمستقبل باهر في اللعبة إن وجدا من يعتني بهما ويشجعهما. قابل الأول نادى عليه باسمه خاطبه قائلا:
(يا ابني (صدام) اعمل حسابك، فتح عينيك كويس، فارق دربك الماشي فيه ده، أطرى الموت، الموت لا يفرق بين صغير وكبير).
تمتم قائلا:
(أنا عملت شنو يا عم؟).

رد بنبرة حانية:
(في ناس على خطأ ويدرون أنهم على خطأ، وديل علاجهم ساهل، وفي ناس على خطأ ولا يدرون أنهم على خطأ، وديل علاجهم صعب شوية).
رد متسائلا:
(وأنا يا عمي من النوع الأول ولا الثاني؟).
أجابه بإصرار:
(الإجابة على هذا السؤال عندك، فأنت أدرى بنفسك أكثر من غيرك).
رد بنبرة حائرة:
(حيرتني يا عم).
رد بلهجة أكثر صرامة:
(احتار زي ما تحتار، أنا نصحتك، ومن نصحك يريد لك الخير ولا يريد لك الشر، ولا عذر لمن أنذر).
يبدو أن الكلام لم يعجب صداماً، جرجر رجليه مبتعدا وهو يهمهم ويغمغم بلهجة مستنكرة:
(حيرونا أهل هذه الحارة، يحشرون أنوفهم فيما يعنيهم وما لا يعنيهم).
بعد فترة قابل الثاني ويده في الجبس، نادى عليه باسمه، ثم خاطبه بنبرة حزينة:
(يا ابني (زكي) كفارة).
رد بهدوء ورزانة قائلا:
(كفر الله سيئاتك يا عم).
رد متسائلا:
(الحكاية شنو يا زيكو، دي كورة ولا مصارعة حرة؟).
أجاب بنبرة لا تخلو من توقير واحترام:
(خلاص يا عم، التوبة يا حبوبه، الكورة مضيعة للزمن، بعد ده نمسك درب القراية عديل، بدون لف ودوران).

رد بلهجة حاسمة:
(يا ابني القرارات المصيرية لا تأتي دائماً إلا بعد أحداث مجلجلة، اغتنم ساعات شبابك قبل فواتها).
يبدو أن هذه العبارة وجدت قبولا واستحسانا عنده، شكره، ودعه بحرارة، وذهب في حال سبيله.
بعد أيام قابل الثالث، نادى عليه باسمه، ثم خاطبه قائلا:
(يا ابني (مكي) صرت مشهوراً في الحارة، عندك شعبية، المشجعون يهتفون لك بحرارة: (يا (ميكو) يا حريف جَبِدُه، رقِصُه، ركِعُه)، أعمل حسابك يا ابني واحد من الضفارية الدافورية ديل يديك كوع ولا ركبة يجيب أجلك، شفت ما حصل لصاحبك زكي).
رد بنبرة لا تخلو من أدب:
(في لاعبين عتالة يا عم، بالخشونة يخوفون أي لاعب حريف، لأنهم عاجزين، ولا يتحلون بأخلاق رياضية، والعاجز دائما يلجأ لأساليب ملتوية، وهناك مشجعون مهوسون بمصارعة، ملاكمة، وكاراتيه، لا يستمتعون إلا بلعب خشن).
رد بنبرة لا تخلو من حب أبوي:
(عشان كده أعمل حسابك يا ابني، اعتبر الكورة هواية لا أكثر ولا أقل، خليك في دراستك، مستقبلك فيها وليس في الكورة).

عندما كان إسيتيذ يمر بهذه المواقف، كان يتأثر تأثيراً بليغا، يسرح مع حبل ذكرياته البعيدة وهو في حالة ما بين وعي ولا وعي، ذكريات صبا، ذكريات شباب غض باكر: (تتراقص أمام عينيه لوحاتٌ لبلدته زاهيةً جميلة، أشجار نيم ولبخ ضخمة تحف بأطراف شوارعها، أطيار تغرد وترفرف بأجنحتها بين أفنان أشجارها، غربان تعكر بغاغ غاغ غاغاتها سكونها، خفافيش تتدلى من أغصان أشجارها، سرب نحل تبني خلاياها بين تعاريشها، يعاسيب، فراشات، وأبو دنان تدندن مع نسائم هوائها، كلها تناغيه: (شوقنا وحنيننا إليك كثير)، تبدو السواقي، (وما أدراك ما سواقيها)، وابورات مياهها ترسل ترنيمات حلوة في مساءات حالمات وفي صباحات ندية، تق، تق، تق، تناجيه: (يوم رحيلك يا حبيبينا شفنا كل الكون مسافر)، بيوت مبنية من قش، طين، طوب، بلوك، وحجر تناجيه، حظائر معيز، أقفاص حمام، دجاج، بط، وديك رومي تناغيه، أشجار زينة، موالح، جوافة، ورود وزهور، تبكي وتندب: (الديار من بعدك خراب، لا بلبل غنى، لا زهر أزهر، لا ورد عطر، لا سخلان نطت، لا حمام يهدل، ولا جداد جرى وهو فرحان)، الميادين وما أدراك ما الميادين، فسيحة واسعة تتخلل بيوتها، شهدت لهوه، عبثه، وشيطنته، ولعبه للكورة الدافوري، وشهد هو تحولها في الخريف إلى بحيرات ساحرة، كانت تغريهم بالغطس في مياهها، سبر أغوارها، والعبث بكل ما في أحشائها.

رحل من قريته ليستقر في المدينة صاحب وظيفة مرموقة في زمان لم يكن فيه نازحون يمتهنون بيع ماء في الشوارع أو يتضورون جوعا من فاقة وعدم، عشق كرة القدم، تردد على دار الرياضة وعلى إستاد الهلال والمريخ، شجع المنتخب الوطني بضراوة، همس في نفسه:

(ماتت الكورة منذ زمن بعيد، ماتت مع صديق منزول، سبت دودو، ماجد، بشارة، وجكسا، الواحد فيهم كان ملاكم من وزن ثقيل، يجري جري حصان سباق، أما لاعبي اليوم سوء تغذية، فاقد تربوي، ميتون، لا تنفع تغذية، لا مدرب عالمي ولا محلي ولا يحزنون). لم يعد يعيرها اهتماما، ومع تقدمه في العمر انصرف بدلاً عنها إلى أمور كثيرة أخرى ما كان يلقي لها بالا من ذي قبل، انصرف إلى عالم روحي وودع عالماً مادي، جمال الزهرة يشي له بوجه آخر.. الذبول! ميعة الشباب تشي له بوجه الآخر.. الشيخوخة! نضرة الحياة تشي له بوجه آخر.. الموت! كل شيء مخلوق زوجان، وكل شيء ما خلا الله باطل.

مع حلول المساء، زمرٌ من كبار سن وأطفال يتحلقون حول أجهزة التلفاز، وزمرٌ من شباب يذهبون إلى نادي الحارة أو إلى مجالس أنسهم الخاصة، وزمرٌ آخرون يهجعون إلى أسرتهم لينعموا براحة بعد ساعات طويلة من عمل شاق. أما إسيتيذ ينكب على كتبه التي ملأت رفوف مكتبته، يتخير منها ما يشاء وفقاً لحالته النفسية، إن رأى أو سمع في يومه في الشارع ما يغضب الله، أو سمع في المسجد داعية يدعو إلى معروف وينهى عن منكر قرأ في المصحف أو في صحيحي البخاري ومسلم، وإن رأى مشهدا دراميا خلال اليوم قرأ في واحدة من الروايات العالمية، أو العربية، أو السودانية، وإن سمع في يومه من يتحدث باللغة الإنجليزية، التي يهواها، تصفح واحدا من كتب الإنجليزية؛ خاطب ربة بيته بلهجة حازمة قائلاً:
(أنا داخل خلوة، ساعات الاطلاع والفكر أزفت، ممنوع الإزعاج، ممنوع الضوضاء، ممنوع الكلام الفارغ... مفهوم؟).

ردت بلهجة مغتاظة قائلةً:
(مفهوم، ما مفهوم...مفهوم، طول الوقت أنت إما مشغول في الفارغة وإما مشغول في كتبك، اتقي الله يا رجل، لبيتك عليك حق، لأهلك عليك حق، ولأولادك كذلك عليك حق).
رد بنبرة هادئة قائلاً:
(يا أستاذتي الموقرة أولا العمل عبادة، وثانيا كما غذاء الجسم الطعام فإن غذاء العقل القراءة، وغذاء الروح العبادة، وغذاء الوجدان الموسيقى).
ردت في حدة وقد نفد حبل صبرها قائلة:
(يا أستاذ - فهي لا تستلطف مناداة بعلها بإسيتيذ وتكره كذلك أن يناديه أهل الحارة بهذا اللقب لأنها ترى فيه انتقاصاً لقدره وشأنه – كلامك كله صحيح مائة في المائة، وكذلك كلامي كله صحيح مائة في المائة، الحياة يا أستاذ موازنات، لا تقصير ولا تفريط، شوية من هنا وشوية من هناك، والحياة تسير بذلك سيرها الهادئ الهادف في منتهى السعادة).
رد بنبرة باسمة قائلاً:
(ذكرتني يا أستاذتي الموقرة مقولة لأحد أساتذتي الأجلاء التي ما زالت محفورة في ذاكرتي: (الحياة خلقها الله سهلة، وبسيطة، وحلوة، لكن البشر الأغبياء يقومون بقصد أو بغير قصد بتعقيدها)).
غفل عنها، هرب منها وانكب على كتبه غير آبه لتأففها، وبرمها، وتمتماتها التي تنم عن ضجر وعدم رضا.

عندما يأتي فصل الخريف، يأتي حاملاً معه بشريات ومآسي، يرجعه عشرات السنين للوراء، فيه تتحول كل ميادين الحارة إلى مستنقعات وبرك، إلى مستعمرات تحتلها جيوش لا حصر لها من بعوض، ضفادع، وحشرات بعد أن تكون قد أسنت مياهها الراكدة، اخضر لونها، تعكر صفاؤها، وتعفنت رائحتها؛ لا يغمض لقاطني البيوت المنخفضة في الحارة جفن وهم يقضون ساعات الليل الطوال يجاهدون لإخراج المياه من داخلها حينما يهطل المطر بغزارة، في النهار يواجهون مشقة ما بعدها مشقة للخروج من بيوتهم لأن الطرقات تكون مغطاة بالمياه، وأمامهم خياران لا ثالث لهما، إما أن يخوضوا المياه، والعاقبة غير مأمونة، قد يتعثرون في حفرة، أو يتزحلقون على الطين، فتتبرقع ملابسهم بالطين، وإما أن يبنوا لهم جسوراً من طوب أو حجارة ليعبروا عليها في أمن وأمان، ولكن لثقل وزنه، أو كبر سنه، فهو في عداد المغامرين المتهورين الذين لا يحسنون حساباً لعواقب؛ يقضي إسيتيذ الساعات الطوال في الليالي الممطرة يحاول أن يخرج مياهً غمرت صحن داره، أوشكت على اجتياح غرف بيته، وإغراق أهله وأولاده الذين يغطون في نوم عميق.

فتح باب شارع بيته في ذلك اليوم البعيد، وماء المطر يبلله من فوق لتحت، في ليلة ليلاء ظلماء تلمع فيها البروق، وتلعلع فيها الرعود، وتتفتح فيها أبواب السماء، وينهمر فيها المطر مدرارا، بدأ في تسليك المجرى الذي يصرف المياه ويحول بينها وبين الدخول إلى داخل بيته، انسداده لأي سبب من الأسباب معناه الطوفان، معناه كل مواعين وأثاث وملابس أهل البيت تطفو فوق الماء، في هذه اللحظة الحرجة رأى جاره المقابل له (التاج) صاحب قلاب التراب الأصفر، مشمرا عن ساعديه، حازماً طرف ثوبه حول بطنه، نادى عليه بلهجة منزعجة قائلاً:

(يا حاج التاج جانا الخريف وجاءت معه المتاعب).

رد بحسرة:
(وين أولاد الحلال، وين الفزع الذين يمدون وقت الشدائد يد العون للمنكوبين؟).
رد بمرارة:
(في الساعة دي لا في أولاد حلال ولا حرام، تشيل شيلتك بس، تأكل نارك لوحدك بس).
رد في أسى وهو يرتجف من البلل ومن درجة رطوبة الجو العالية:
(المتاعب دائما وأبداً ملازمانا، ربنا يلزمنا الصبر، ويكفينا شر أنفلونزا الطيور والبقر والخنازير، والالتهاب الرئوي، وشر المحن، ما ظهر منها، الملاريا، وما بطن منها، سارس وكوليرا وإبولا، وينجينا من موت الفجأة).
رد بنبرة لا تخلو من نصح وإرشاد قائلاً:
(كتر من أكل الفواكه والجرجير والقضيم يا رجل، فيها فيتامين سي ودي، ومص القرض، لو خضت عريان كيوم ولدتك أمك في مياه خور (مرزوق) مع القرض درجة حرارتك ما ترفع نص درجة، واحد سعودي قال: عجبت لأهل السودان كيف يمرضون وعندهم القرض).
رد بنبرة متبرمة قائلاً:
(ناس البيوت العالية في الخريف مرتاحين، ينوموا في الطراوة فائقين، لا طوريه، لا كوريك، ولا أبو رأس ولا رأسين، ولا افتح مصرف، ولا أغرف مويه، ونحن المساكين النوم جافانا قسمنا لي جيرانّا).
رد قائلاً:

(يا شيخ ما تنظر لي فوق أنظر لي تحت، ما تنظر لناس البيوت العالية أنظر لناس البيوت الواطية، إذا بيتك مبني من طوب، أنظر للبيوت المبنية من طين، كرتون، حصير، وخيش، ديل مع الخريف بهدلة ما بعدها بهدلة، يجرف كل شيء، يخليهم إبطهم والنجم، لا مأوى، ولا عفش).

وبينما هما يتحدثان والمياه تجري من تحتهما سيولاً متدفقة، خرج جارهم (بوعلي) وهو يفرك عينيه يغالب النوم، وفي يده كوريك، نادي عليهما قائلا:

(السلام عليكم يا أيها المعذبون في الأرض، يعني كلنا في الهواء سوى، نوم ما في، ربنا يعدي الليلة دي على خير، ويقدرنا على الجاثي بكرة وبعد بكرة، لما المويه الراكدة تعفن، والقعونج غوق غووق، والبعوض وِنِنِنْ، ونِنْ، ونِنِنْ).

رد التاج قائلاً:

(يا بوعلي كل خريف ونحن داخلين نفس الفِلم، لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ناس شارعنا كل واحد منهم سادي دي بطينة ودي بعجينة، ما دايرين يقعدوا في الواطه دي عشان يحلوا موضوع مياه المطر حل نهائي).

رد إسيتيذ قائلاً:

(يا أخوانا مش في أكل ما بتبلع بدون ملح وشطة وليمون، كذلك حياتنا! بدون هذي مكاره، مصائب، ومصاعب لا طعم لها).

ضحك بوعلي ضحكة باهتة، خرجت بصعوبة من بين شفتيه، خاطبهما قائلا:

(أنا ماشي أكمل باقي نومي، والصباح رباح، وأنت يا جاري العزيز بالله عليك خليك في حالك، وخلينا في حالنا، وخلي الناس في حالهم).

رد إسيتيذ وأنفاسه تطلع وتنزل مخاطباً التاج قائلا:

(يا خوي هوي كفانا، حيلنا مات، ربنا لم يأمر بالهلاك، زي ما قال بوعلي الصباح رباح).
لاهثان يجرجر كل منهما رجليه المتعبتين بصعوبة، عادا منهكين إلى بابي داريهما.

وعندما يطل فصل الشتاء ينعش ذاكرته، يرجعه إلى حكايات لم تزل حية باقية، يحلو للناس النوم متدثرين بأغطية سميكة، يذهبون إلى أماكن أعمالهم متأخرين حبتين، شهياهم مفتوحة لالتهام كميات أكبر من خبز، فول، طعمية، جبن، بيض، خضار، سمك، دجاج، ولحم ضأن على مدار وجبات ثلاث فطور وغداء وعشاء، لا تنقص أبدا وإنما تزيد في أغلب الأحيان، لأن الحياة كانت سهلة، والتجار لم يزل في قلوبهم خير وبركة، والدولة قوية لها هيبة وجبروت؛ لا يغمض للإسيتيذ جفن ولا يهدأ له بال ولا ينعم بدفء بطانية أو غطاء إلا حينما يذهب في عدة رحلات شتوية إلى مطعمه المفضل المتخصص في تظبِيط السمك البلطي بسوق الموردة، الذي يذكر الناس بأيام خوالي، أيام مشرع الموردة، أيام القوارب الشراعية الكبيرة طالعة نازلة محملة بفحم، حطب، حبوب، بضائع، وخيرات كثيرة؛ ما علينا، ذلك المطعم يقع في ناصية تقابل زنك خضار، يتردد عليه الأساطين من أكيلة السمك حمام النيل؛ قبل أن يصل إليه تزكم فتحتي أنفه رائحة السوق المميزة، مزيج من روائح أحشاء السمك، والسمك التالف، والسمك المقلي والمشوي، تستقبله قطط سمان تسكن هذا المكان، لا تفارقه أبداً، ولا تسمح لأي قطط غريبة بالتجوال في الجوار؛ يجلس في مكانه المعهود في ركن هادئ بعيد، يلقى بالتحية على المعلم (سوكي) مدير وصاحب المطعم ذو التاريخ العريق المجيد ويطلب منه ما يريد، يستطيع من ذلك المكان رؤية زبائن داخلين وخارجين، كل الذين يجلسون حول الترابيز غائبون عن الدنيا، يعيشون بكل حواسهم مع حمام نيل شهي مقلي، بصل الأبيض، شرائح طماطم، جرجير،

ليمون، وفلفل أخضر حار؛ يضع جرسونٌ طبق السمك أمامه، يجول بنظراته في عباقرة السمك، الآتون من وادي عبقر، الجالسون في صمت عجيب وموسيقى القَرْقيش والمَظْميظ والمَصْميص تشنف آذان الوجود، وسوس لنفسه قائلا:

(ذلك العجوز الأسمر النحيف ذو العروق الناتئة الذي يجلس دائما على نفس الطرابيزة ملاصقاً لنفس الجدار له طريقة خاصة في التهام السمك، يقلب سمكاته الثلاث وهو يمسحها بشطة وليمون، يفصل رأس أول سمكة ويضعه على جنب طرف الصينية الصغيرة، يشطر السمكة إلى نصفين، يفصل عظام سلسلتها الفقرية برفق في صبر عجيب، يرفعها أمام عينيه متلذذاً بالنظر إليها، ثم يبدأ في مصها كما يمص الطفل حلمة ثدي أمه، لا يضعها على الطرابيزة إلا بعد أن يتأكد أنها أصبحت مجرد كالسيوم خالي من أي مادة بروتينية، ثم في حالة شعورية من اشتهاء دافق لامحدود يمسك بالنصف الأول، يأخذ قطعة من لحمه الأبيض، يضعها بين حفنة من بصل جرجير وطماطم ويمضغها في مزاج رائق كملك من ملوك الأرض، ثم يستل عظمة طويلة من السمكة ويمصها ولا يتركها إلا بعد أن تفقد رائحتها وطعمها وتصبح مجرد عظمة من عظام بالية، ثم يضعها من فوق العظام التي براها كما يبرى قلم رصاص، ويكرر هذه الطقوس في منتهى السعادة وهو يلتهم سمكاته الواحدة تلو الأخرى، وتتبقى في النهاية رؤوس ثلاث، وهنا بيت القصيد، يمسك بأحد الرؤوس كما يمسك قط بفأر بدين، لا يترك هذا العجوز لحما أبيضا ولا أسودا مندسا بين التجاويف إلا والتقطه كما يلتقط الجواهري حبات الذهب الساقطة على الأرض، ثم ينهض وهو يمسح على كفيه بنصف ليمونة، ويغسل يديه في غسالة، ويتجشأ أكثر من مرة، ويضع سيجارته (البرنجي) بين شفتيه، ويمشي على مهل نحو أقرب ست شاي).

انتبه إلى طبق السمك الذي وضعه الجرسون أمامه وفيه كل المشهيات؛ وقبل أن يمد يده أقبل عليه قط أبيض كبير الحجم، التصق بقدمه اليسرى وتمسح بها، وجه إليه نظرات غريبة، فيها رجاء وفيها تحدي، فهم معناها، شعر بالقشعريرة ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرمى إليه بذيل إحدى سمكاته، ثم وسوس في نفسه:

(شكرا لذلك العجوز، تعلمت منه أسس بروتوكولات أكل السمك، ومن المحتمل هو بدوره تعلمها من هذا القط أو من القط الأب أو القط الجد، أو من أحد أبناء جنسه، ما يحيرني ويدهشني وجود هذه العلاقة القوية جدا جدا بين قطط وسمك، ما قلينا سمكاً في البيت، وما حرصنا على وضع بقاياه من شوك وعظام ورؤوس في كيس وإحكام ربطه، وحشره وسط الزبالة خارج البيت إلا ومنعتنا قطط الحارة النوم، بحواس شمها القوية تكتشف أن ما بخارج بيتنا شيء ألذ من كل فئران وطيور الدنيا، ولن يحول حائل بينها وبين استحواذها عليه، وفي الصباح يتكشف لنا أن قطط الحارة قد عاثت في كيس الزبالة الفساد، أتت على كل ما يمت للسمك بصلة وتركت الشوك والعظام تلمع كسطح مرآة أملس تحت وهج أشعة الشمس، يعني بصراحة وبدون مواربة أكيلة السمك من جهة والقطط من جهة ثانية يكمل كل منهما الآخر، كالعتالة الذين يكنسون صناديق الشاحنات، يجمعون البلح الجيد المتساقط من ثقوب الجوالات، ويرمون بالكناسة على الأرض، تأتي النسوة، يغربلن الكناسة، يستخلصن بلحا أقل جودة، مسرحية يلعب فيها عتالة دور أكيلة سمك، ونسوة دور قطط).

ظل يسكن الحارة منذ ذلك الوقت، أهلها ينعتونه ب (إسيتيذ)، ربما لأن الكثيرين منهم لا يعرفون اسمه الحقيقي، أو لأنهم لم يروه أبدا وهو يدخل باب مدرسة، أو يحمل طبشورا أبيضاً أو أحمرًا في يده، ولكنهم سمعوا بأنه من الذين فارقوا هذه المهنة منذ عدة سنوات، وصاروا من أرباب المعاشات الذين لم يتبق لهم سوى اجترار ذكريات وادعاء بطولات زائفات؛ أو لأنه نحيف طويل الجسم، وقسماته عاديه لا تنم على أنه شغل منصبا مرموقا في يوم من الأيام، أو لأنه لا يختلف سوى بأنف مستقيم، وعينين واسعتين قليلا، عن أولئك السواد الأعظم من الناس الذين يقضون عمرهم يكدحون، يدفعون درداقة، يقودون ركشا، أو يفترشون الأرض بخيش جوالات، مرصوصة فوقه أكوام فواكه، بصل، وخضار؛ أو لأنهم يرونه في أغلب الأحيان يرتدي جلبابا، وطاقية، وشبشبا بدلاً من بنطلون، قميص، حزام جلدي، وحذاء أسود لامع؛ أو لأنه لا تبدو عليه في نظرهم سيماء صرامة وعبوس، وأنه لا يتحدث ويثرثر كثيراً كحال غالبية عظمى من الأفندية؛ كان يتحدث قليلا ويُعْمِل فكره كثيرا، كان بنظارته يُقلب نظره في تراب الأرض وهو يمشي في طرقات الحارة مطأطئ الرأس، وقلبه مفعم باليقين بأنه من تراب وسوف يعود قريبا إلى هذا التراب، ولما يبصرونه ماشيا على هذا النحو يتهامسون: (إسيتيذ، رجل فالح، يبحث عن كنوز الأرض المدفونة، يبحث عن خاتم النبي سليمان)، وأحيانا يمشي برأس مرفوعة للسماء، يسأل الله عفواً، رحمة، وسترا، في الدنيا والآخرة، وكذلك لا يرحمونه، يتهامسون: (إسيتيذ، درويش، سره غريق، بصره معلق بالسماء، بالليل يحسب النجوم، وبالنهار يحسب السحاب)؛ يتحاشى أن يجلس أو أن يدردش مع كل الناس، له زمرة خاصة، لأنه يؤمن بأن اتقاء شرور الناس- خصوصا في هذا الزمان الذي تفشت فيه الفتن ما ظهر منها وما بطن- يكون بالابتعاد عنهم على قدر الإمكان.

أحيانا وهو في طريقه من بيته إلى محطة المواصلات جنب محطة الوقود- التي يتزاحم فيها الخلق كأنهم يتدربون على الوقوف للحساب يوم الحشر- يمر على (خلودي) صاحب المكتبة الورقية الوحيدة بالحارة، طويل القامة، أسمر سمرة أرضها، بشوش بشاشة أغصان أشجارها العطرية والزهرية، التي تهف أوراقها احتفاءً بكل زائر قادم، إنه عين الحارة، رادارها، وكاميرتها المنصوبة، بعدستها تسجل صور القادمين والخارجين، كثيرا ما كان يجلس هناك على الكرسي الصغير الموضوع في مكان ضيق بين الباب وحاجز الخشبي، يتجاذبان الحديث، في كل شيء، وفي كل لا شيء، قد يطول الزمن وقد يقصر، المهم أن الحديث يتم في تآلف حميم، لأن المسألة تزجية وقت، وملئ فراغ، لا أكثر ولا أقل.

كانت مكتبة الكونجرس خالية من الزبائن، رآه خلودي ماشياً في الطريق، نادى عليه بنبرة لا تخلو من إلحاح:

(تعال يا صديقي العزيز، تغالطت بالأمس، واحتدم الجدال بيني وبين الفيلسوف أفلاطون (كبشور)، تعلم أنه لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، قال نحن عاملين لحارتنا دي رأس وقعر في الفاضي، وأنها حارة مثل كل الحارات الأخرى، نفس الملامح والشبه، كلها حارات زفت، رماد، وطين، لا تصلح لسكن الآدميين، لأنها مستعمرات فئران، عناكب، بعوض، أرضة، وقمامة، ما بينها حارةً واحدة تشبه أفقر حارات لندن، أو باريس، أو مدريد قبل مائة سنة).

حرك بؤبؤي عينيه شمالا ويمينا من تحت عدستي نظارته، ثم رد بنبرة ضاحكةً:

(وكيف رديت يا (جُحا) يا (نمرود) على فيلسوف الحارة؟).

أجاب بنبرة لا تخلو من استنكار وهو يقهقه بصوت عالي:

(قلت له: يا كبشور يا راجل استحي على دمك، خلينا من لندن وباريس ومدريد، نحن في شنو وأنت في شنو، حارتنا سمحة شينة عاجبانا، موقعها استراتيجي، تحدها شوارع إسفلتية ضيقة من أطرافها الأربعة، ما عدا شارع عريض رئيس واحد يصلها بسوق المدينة الكبير من جهة الجنوب، ويصلها بأطراف المدينة القاصية من جهة الشمال، حيث عشوائيات وأكواخ طين وزنك، بيوتها المطلة على هذه الشوارع اكتسبت ميزات استثمارية، تحولت مع الزمن إلى بنايات من طابقين أو ثلاثة، بدكاكين صغيرة تسيجها من الخارج، الحارة خدماتها ممتازة، في سرتها مسجد كبير بمئذنة تطاول عنان السماء، وميدانين فسيحين لكرة القدم، ومخبز، ونادي ومدارس؛ صحيح بيوتها ما زال معظمها على حاله، بيوتا شعبية عادية، ربما ذلك جعل العلائق الاجتماعية التي تربط بين أهلها قوية ومتينة، وشيوخها وشبابها لا يزالون حريصين على صلاة الجماعة بالمسجد، وفي الملمات يتقدمون صفوف الجنائز، إلى المقابر، زرافات ووحدانا).

رد وابتسامة ندية ترف على وجهه:

(أظنك نسيت أن تقول له يا فيلسوف الفلاسفة أن ما يميز الحارة ويعطيها نكهةً فريدة، وجود هذه التوليفة العجيبة من عشوائية، عبثية، تخلف، حداثة، وطبيعة أصيلة التي لم تكدرها يد بشر، شمالا تتمدد على جانبي طريق الإسفلت أربعة صفوف من دكاكين متراصة كعربات قطار بضاعة، مكونة ما يعرف مجازا بسوق (شنقيط)، الذي يفصل بين البيوت ومجرى خور (مرزوق) ذو الحوض العريض، الذي يرفد من خور أبو ضلوع، وينحدر من سلسلة جبال (المرخيات) الرابضة إلى الشمال البعيد، في موسم الأمطار تصطخب مياهه

الجارية نحو مصبها في النيل، تطفو على سطحها جثث بهائم ميتة، أشجار ساقطة، وحطام بيوت منهارة، وفي موسم الجفاف، يبدو قاع حوضه الجاف الأجرد في وجه قميء، بغيض، قبيح، متسخ بأكوام زبالة، أوساخ، قاذورات، وأكياس بلاستيك).

ودعه بابتسامة غامضة، وعاود سيره نحو محطة المواصلات، دلف مع المحنى الذي يقود مباشرة إليها، منظر أمواج بشر متلاطمة رده على أعقابه، آثر السلامة، فليرجئ ما ينوي فعله للغد، قال في سره: (إن غداً لناظره قريب).

(٢)

شرود إلى ماضي

حينما تنقطع الخدمة الكهربائية، وتصير أسلاك الكهرباء الهوائية والأرضية مجرد أسلاك ميتة بلا روح، لأن التيار الكهربائي لا يسري فيها، وتصير الأجهزة الكهربائية في البيوت، ثلاجات، مكيفات، مراوح، خلاطات، مبردات، وتلفزيونات مجرد أجهزة للزينة، وللتفاخر الاجتماعي، لا تضر ولا تنفع، يجد الناس أنفسهم مضطرين لمغادرة بيوتهم، مضطرين للهرب منها واللجوء إلى أي مكان آخر، ظل نيمة، برندة دكان، ست شاي، أشجار مقابر، جن أحمر، المهم يقولون وداعا للبيوت التي صارت أفرانا، وزنازينا، وقبورا، ويخرجون في الهواء الطلق؛ انسل إسيتيذ مكرها من جحر داره، مشى على غير هدى، باحثا عن نسيم يشمه، ونيروز يحتفل به، وربيع يتمتع بورده وزهره، في حارة لا تعرف هذا ولا ذاك، كل الذي تعرفه أكياس زبالة مرمية باستهتار طرف أسوار بيوتها، ينبش فيها نكاشه، فتيان صغار، دفعهم فقرهم المدقع لأن يبحثوا عن أي شيء ذو قيمة يمكن أن يجدوه فيها، ينافسون ويزاحمون في ذلك كلاباً، قططاً، وفئرانا؛ وتَعْرِف مياهً قذرة راكدة تملأ حفر أزقتها، وزنقاتها، وشوارعها الضيقة، تفوح منها روائح منفرة منتنة، ويطن فيها ذباب وبعوض، وتمرح فيها صراصير وعناكب؛ وتعرف حفراً محفورة أمام بيوتها، نظام صرف صحي بلدي، فلتره ومصاصته حجر جيري مدفون في جوفها، وحجارة كبيرة موضوعة فوق أغطيتها شواهد قبور، لا تنقصها سوى كتابة (أحذر.. منطقة خطرة، هنا مدفونة مواد مسرطنة، مواد صرف صحي، مدفونة بدون تصريح من سلطات البلدية)؛ وتعرف أكواماً مكومة من مخلفات بناء تبدو من هنا وهناك ككثبان عالية، تتكدس حولها وتتطاير أكياس بلاستيك وأوساخ؛ بدون

مقدمات وجد نفسه يعبر شريط شارع الإسفلت الضيق، تزكم فتحتي أنفه روائح شطة، شمار، وبهارات مختلطة بروائح أخرى لا يعلم لها كنهاً ولا منشأ، تصم أذنيه جلبة وصخب بائعين جائلين، ومشترين، وأصوات أبواق ركشات وسيارات، و(عرعرات) عربات كارو التي تجرها حمر بلدية (دبلاوية) أنهكها جوع وسوء معاملة وحمولة فوق حمولتها المحددة بربع طن، نبهه كل ذلك إلى أنه في داخل حرم سوق (شنقيط)؛ هنا، خطرت بباله خاطرة، حانت له فرصة جديرة بالاغتنام، مضى زمن طويل منذ أن قابل لآخر مرة صديقه العزيز (عبد الستار) الذي اشتهر بينهم باسم (معلمو نيريري)، واختصاراً ينادونه (معلمو)، إنه معلم بسيط ترك زوجه وأولاده مع أقاربه في قرية نائية من قرى كردفان الغرة أم خيراً جوة وبره، دأب على زيارتهم من وقت لآخر حسب ما تسمح له ظروف عمله بذلك، استأجر دكاناً في هذا السوق، كتب على يافطته (عبد الستار للدعاية والإعلان والديكور) ، كل ما بداخله جهاز حاسوب، وطابعة، وأوراق مبعثرة هنا وهناك، وأواني لإعداد وتقديم الطعام، أحيانا يبيت هنا، وأحيانا مع بعض أقاربه، وأحيانا أخرى مع أصدقاء له (عُزَاب) يرون في الزواج طامةُ كبرى أو أملاً بعيد المنال، لحسن حظه وجد باب دكان صديقه مفتوحا على مصراعيه، ولمباته الكهربائية الداخلية مضاءة، وهو جالس خلف طاولة كبيرة قبالة جهاز حاسوبه بقامة سمراء فارعة الطول، وبجسم مكتنز لحماً وشحماً؛ تنبه لهمهمته وغمغمته المألوفة لديه، رفع رأسه، التفت نحوه بوجهه مدور طفولي القسمات، هب واقفا، تعانقا طويلا، خرجت كلماته بنبرة باسمة:

(وعليكم السلام، مرحب، حباب عشرة، أين كنت يا أستاذ، غيابك طال، دائماً في ذكراك مع الأستاذ عبد الله، غصت يا رجل في أعماق الأرض أم تبخرت في السماء، ولا هبرته ليك هبرة أنستك صحاب وأحباب؟).

رد قائلاً:
(وعليكم السلام يا معلمو، مشاغل الدنيا ونكدها شغلتنا عنكم، ولكنكم دائما في الخاطر، وكيف عامل الأستاذ عبد الله، الرجل الطيب؟).
رد بمرارة قائلاً:
(عامل كبقية المعذبين في الأرض، الماهية ما جائبه حقها، المسكين يكدح ليل نهار، شوية دروس خصوصية، شوية سمسرة، شوية حركة في الدلالة يوم الجمعة، والساتر الله).
أردف قائلاً:
(وأنت كيف عامل، وأخبار أولادك شنو؟).
رد بنبرة مطمئنة:
(الحمد لله مستورة، والأولاد أخبارهم مرات زين ومرات مش زين، أصغر ما فيهم ضربته حمى، الأطباء هناك ما عرفوا يشخصوها حصبة ولا ملاريا ولا تيفويد، قربت تجيب أجله، ولكن ربنا ستر، غمة وزالت).
رد قائلاً:
(يا معلمو من ولدونا في البلد دي والملاريا ولدوها معانا، تهرس فينا يمين شمال، والأعمار بيد الله، المرض ما بقتل، بقتل الأجل).

دخلت عليهما بدون مقدمات طفلة صغيرة، ملابسها رثة، وجهها شاحب، حذاؤها ممزق من كثرة المشي في الشوارع، تمسك بطرف عصا قصيرة ومن خلفها أمها التي بدا عليها إنهاك وتعب، عمياء تمسك بطرف العصا الآخر، مدت الصغيرة يدها بوجه بريء مبتسم طالبةً المساعدة:
(أرحمونا يا مؤمنين).

نظر كل منهما في وجه الآخر نظرةً ذات مغزى، أدخل كل منهما يده في جيبه، ووضع ألفيه النصيب في الكف الصغيرة الممدودة، انسحبت البنت وأمها في صمت، خاطب معلمو صديقه بنبرة متحيرة:
(في العادة لا أقضي في الدكان أكثر من ثلاث ساعات متواصلة، وبدون مبالغة خلال هذه الفترة يمر علَي ما بين عشرين إلى ثلاثين متسولا ومتسولة).
رد بنبرة ساخرة:
(يعني لو أعطيت كل واحد منهم أقل ما عندك، في نهاية اليوم تقفل باب دكانك، وتلبس أقدم وأوسخ هدومك، وتتجول حراً طليقا في شوارع المدينة وأنت تنادي في مسكنة تستدر الرحمة والعطف (حسنة يا مؤمنين، أغيثوا عزيز قوم ذل، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)).
ضحك بمليء فيه ثم رد بلهجة قاسية:
(يا خوي في متسولين (رباطّه) عيونهم قوية، كأنهم شركاء معك في حقك، منهم من يشترط عليك مبلغا محددا، خمسة جنيهات يعني خمسة جنيهات، ومنهم من يرد لك نقودك التي يراها أقل من المقام، والسافل منهم يرمي لك بنقودك في وجهك ويسمعك شتيمة أو شتيمتين).

وبينما يتجاذبان أطراف الحديث إذ بقذيفة حجر طائر تضرب بقوة على باب الدكان من الخارج، خرجا على عجل ليستجليا الأمر، و يا لهول ما رأيا، فلماً من أفلام المافيا السودانية يجري تصوير أحداثه أمامهما، مجموعتان من شماسة، ملوك شم السلس يون، ملوك الشارع، يتعاركون في همجية ما بعدها همجية، يتسلحان بكل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، سيخ، حجارة، مطاوي، عصي، طماطم، بطاطس، بصل، مواعين بلاستيكية وحديدية، يستخدمون كل أساليب القتال، بنية، كاراتيه، كون فو، شلوت، عض؛ والنتيجة الماثلة أمامهما، دماء سائلة، أذن مقطعة، أسنان مهشمة، ملابس ممزقة، كل

ذلك يتم في ظل خطط قتالية محكمة يديرها جنرالات متمرسون، يكرون ويفرون بخطط، يتحركون في ساحات السوق التي يحفظونها من الألف للياء في ذكاء منقطع النظير، لاحظ إسيتيذ أن الدكاكين في هذه الجهة من السوق قد أغلقت تماما، وتوقفت فيها حركة الناس، الكلاب، والقطط، التفت نحو صديقه ودقات قلبه تعلو وتهبط في سرعة عجيبة، خاطبه قائلاً:

(قل لي يا عزيزي هل أنت تعمل في سوق (شنقيط) أم في سوق (تكساس) أيام القانون في يد الكاوبوي، القانون في فوهات المسدسات والبنادق؟).

أجاب بنبرة حزينة قائلاً:

(هذا هو حال الأسواق الطرفية، والأحياء السكنية المتاخمة لها، فوضى وضعف أمن، والحافظ الله).

أردف متسائلا:

(وما الذي يجبرك على البقاء وسط هذا العفن؟).

أجاب بمرارة:

(يجبرني على البقاء في هذا العفن ما هو أعفن منه).

رد بنبرة متأففة لا تخلو من شعور بالضيق:

(يا خوي أغلق دكانك ودعنا نذهب إلى أي مكان بعيدا من هنا، نحتسي لنا فناجين قهوة نريح بها أعصابنا التي هيجها هؤلاء الغوغاء الدهماء).

وبالفعل أغلق دكانه وانسحبا في حرص شديد، نهاية هذه المعركة ما زالت غامضة لم تنجلي بعد، ولا أحد يستطيع أن يتكهن بما يمكن أن يحدث في أية لحظة؛ قبل وصولهما إلى شارع الإسفلت وهما يمران بصعوبة بين صفوف سيارات (هايس) مهلهلة قديمة الا تصلح للعمل إلا هنا، ومحرم عليها العمل في الخطوط داخل المدينة، إما لأنها كثيرة الأعطال لا تقدر على قطع المسافات الطويلة، أو لأن

رخصها ورخص من يقودونها محل تساؤل؛ بدون مقدمات رأيا منظرا عجبا، كلبة نائمة فوق أرض لينة رطبة طرف إحدى هذه السيارات، واحد من قبيلة الشماسة، يحمل ساطوراً طويلا في يده، مشى مشية كاوبوي نحوها، وبدون رحمة نزل بساطوره على بطنها، سالت دماؤها، اندلقت أحشاؤها، ظهر ما في بطنها من أجنة لم يكتمل نموها، ثم مسح بساطوره الذي يقطر دما على جثتها الهامدة، جال بنظره في جبروت، وخيلاء، واستعلاء في وجوه الناس من حوله، زرع الخوف في قلوبهم، أرسل لهم رسالةً واضحة لا لبس فيها: (من يتحدانا ويقف في وجهنا لن يكون مصيره أفضل من هذا المصير)، مشى مشية مستفزة، غير آبه بمخاليق الله، اختفي كشبح هلامي في متاهات منعرجات خور (مرزوق).

نظر إسيتيذ في وجه رفيقه وخاطبه بلهجة متوترة قائلاً:

(ربنا يعدي يومنا ده على خير).

رد بلهجة يائسة قائلاً:

(آمين يا رب العالمين، ولكن تأكد يا عزيزي، الأيام القادمة حبلى بما هو أسوأ، المخدرات صارت على المكشوف، معروضة في وضح النهار، أهل الكيف الغائبون عن الوعي مطمئنون، ينفثون دخانها في أي مكان، زجاجات العرق متوفرة كما تتوفر زجاجات المياه الغازية، السكارى يترنحون ويتمايلون في الشوارع كريش في مهب الريح).

رد بنبرة حزينة قائلاً:

(نشكو لمن؟ الشكاية لغير الله مذلة).

رد متسائلا بنبرة متعجبة قائلاً:

(ألم تسمع بتلك الحكاية المأساوية؟).

أجاب باندهاش:

(أيتها حكاية يا رجل، الحكايات المأساوية هذه الأيام كثيرة لا تحصى ولا تعد).

رد قائلاً:
(حكاية مجزرة المثلث).
رد قائلاً:
(سمعت بها ولكني لم أُلِم بتفاصيلها، ولكن قل لي ما الذي دفعك لأن تتذكرها في هذه اللحظة بالذات؟).
بعد أن هزّ رأسه، وأشار بيده، أجاب بنبرة حزينة:
(أنظر هناك جهة الغرب، في نهاية شارع الإسفلت عند الدوار، ذلك المكان شهد هذه المأساة التي تفوق سوءً كل ما رأيناه في هذا اليوم من فظائع، أخَوَان في مقتبل العمر، الأكبر في سن التاسعة عشر والأصغر في حدود السابعة عشر، يعملان خبازان في أحد الأفران، بعد نهاية ساعات يوم عمل مرهقة طويلة ذهبا ليتناولا وجبة العشاء في أحد المطاعم القريبة من مكان عملهما، وبعد أن طعما واسترخيا، واستأنسا بطيب الحديث قفلا راجعين إلى مخبزهما وهما لا يدريان ما يخبئ لهما القدر، اعترضت طريقهما عصابة من مروجي ومتعاطي المخدرات مدمني السلِس يون والعرق، حاولوا نهب ما عندهما من مال وهواتف جوالة، متعودون على ذلك، ينهبون الناس بالإكراه، والناس لا حول لهم ولا قوة، ربما يضيع مالهم، وربما تضيع أرواحهم، وفي النهاية تقيد القضية ضد مجهول، الضحيتان شابان قرويان أعزلان إلا من نخوة فتوة وشجاعة، ودم شباب فائر وحار، سُنة الحياة ماضية، لا قدرة لأيد مجردة على دحر سكاكينا وسواطير، سقطا على الأرض جثتين هامدتين، أكبرهما سنا بطعنات في رقبته، والأصغر بطعنات في بطنه، واختفي الجناة في متاهات أزقة مظلمة).
سأل بنبرة متلهفة:

(وهل تم القبض على هؤلاء الجناة الذين لا تساوي حياة الناس عندهم ثمن سيجارة بنقو؟).

أجاب بنبرة حزينة:

(أهلنا يقولون: (يا قاتل الروح وين تروح)، ساعات قليلة وكانوا في قبضة الشرطة، هل تصدق أن الجناة أولاد صغار دون عمر العشرينات سلكوا طريق الشر، لم يجدوا من يربيهم، ويرشدهم، ويهديهم إلى طريق قويم).

رد بنبرة فاترة:

(يله أرح، سيبنا من حاجة اسمها شماسة وحاجة اسمها قتل وموت، خلينا نشوف لينا ست شاي ظريفة، ولطيفة، ونظيفة قاعدة تحت ظل نيمة ظليلة).

رد بمرارة وهما يقطعان شارع الإسفلت:

(الشماسة وستات الشاي أصبحا جزءً لا يتجزأ من ثقافتنا الراهنة شئنا أم أبينا).

رد قائلاً:

(يا خوي إذا تفشى ظلم، غابت عدالة اجتماعية، وعم فساد، وضعف دين، ومات ضمير، وغاب شعور وطني، ماذا تتوقع؟ لا شيء سوى انهيار، دمار، وخراب).

صمتا لفترة طويلة، دارت في خلد كل منهما أمور كثيرة، توقفا، ثم اقتربا من واحدة من ستات الشاي، حملا مقعدين صغيرين قصيرين مصنوعين من حديد منسوجين بحبال بلاستيك، ومنضدة صغيرة، جلسا على مبعدة من الزبائن الذين يعج بهم المكان، ثم طلبا قهوة كبيرة مخصوصة مضبوطة.

خاطب معلمو صديقه بنبرة متحيرة:

(مالي أراك ساهياً ساهما، يا رجل أفرد وجهك، استعذ بالله من الشيطان الرجيم).

لم يكترث بكلامه، كان متحوصلاً في حوصلة ماضيه، ينقب، يشرد، يسرح إلى ما شاء الله له أن يسرح، يرجع حركة ساعته إلى الوراء، يرجع مئات السنين، يسترجع حكايات جده وجدته، يجتر ما قرأ في كتب التاريخ عن أحوال بلده مذ أن كان بلدا نسيا منسيا:

(بلده كان معروفا باسم (بلد السُود) أو (بلد السُمر)، ما يفرق أسود أو أسمر كله عند العرب طين، شرقاً حيث مشرق الشمس، حيث البحر الأحمر.. سفن شراعية لقدماء المصريين تغشاه في طريقها إلى بلاد الصومال وبلاد العرب، والعرب يأتون إليه إما مهاجرين أو تجارا؛ غرباً حيث مغرب الشمس.. مورداً يمد مصر بصمغ، حيوانات، وجلود؛ جنوباً حيث غابات استوائية.. متصلاً تجاريا بالشمال، ومورداً لسن جلود وأخشاب؛ وادي النيل وما جاوره من أراضي.. خصبا في ديمومة من اخضرار، مسرحا جميلا، شهد مدنيات قديمة، لأنه كان الأصلح من غيره من بلاد السودان للحياة تحت ظروف حياة قديمة قاسية، متصلا بمدنيات في الشمال، متأثرا بمدنية وحضارة على مر العصور، آثاره العظيمة تقف شاهدة على ما مر فيه من أحداث وما بلغه من رقي؛ الوادي مصريا في حياته، معتقداته، وعاداته، غزته صناعات مصرية واتسعت التجارة بينهما، أناسه استفاقوا وزاد وعيهم وتنبهوا إلى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها لما رأوا المصريين يفدون إليها؛ مملكة نبتة.. امتدت حتى الأقصر في مصر، (بعانخي).. ملك نبتة يُخضِع مصر كلها ويستعمرها ويصبح ملكا لحوض النيل، (ترهاقا).. يحارب الأشوريين، والإغريق وهم يتحدثون عنه كبطل عظيم؛ مملكة مروي.. بلغت درجة عظيمة من الثراء والعمران، ابتكرت كتابة نوبية عرفت بالخط المروي التي لم تفك طلاسمها بعد، آثارها تدخل الروعة والجلال على النفوس،

معابدها مزينة بكثير من نقوش ونحت جميل، قصورها ملكية عظيمة، حمام سباحة ملوكي جميل تنقل مياه حوضه ساقية تجرها جمال وأبقار، صناعة حديدها مزدهرة، ملوكها أقوياء وثرواتهم عظيمة؛ انهارت وانقسمت إلى ممالك صغيرة، دخلت المسيحية من مصر إلى السودان؛ دولتا (المغرة) و(علوة).. (دنقلا العجوز)،عاصمة المغرة، مدينة كبيرة تقع على النيل وفيها كثير من الكنائس، بيوتها كبيرة، شوارعها واسعة؛ (سوبا)، عاصمة علوة شرق الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق، مبانيها جميلة، أديرتها كبيرة مليئة بالذهب، تزينها حدائق غناء؛ حاكم علوة أثرى من حاكم المغرة لأن بلاده أوسع، وأكثر خصبا، وأعظم ريعا، وجياد كريمة وكتب إغريقية كثيرة فيها؛ المسيحية بقيت في الطبقة الحاكمة وسكان الحضر ولم تتغلغل في باقي سكان البلاد؛ سقطت مصر أولا في أيدي المسلمين وبعدها (دنقلا العجوز)، اعتنق ملوكها الدين الإسلامي ليكتبوا بذلك نهاية الدين المسيحي في البلاد؛ العرب ينهمرون عليها، ويطبقون من كل الجهات، وبعد سقوط دولة علوة تفشى الجهل وأصبح الناس لا هم مسيحيين ولا مسلمين؛ دولتا الفونج (السلطنة الزرقاء) وعاصمتها (سنار)، والفور وعاصمتها (كبكبيه ثم الفاشر)؛ مطالب ملوك سنار بسيطة ولذلك لم يرهقوا كاهل الناس بالجبايات، وكانوا غالبا ما يصرفون على دولتهم من مالهم الخاص من مواردهم التي تأتيهم من رسوم جمركية على الحدود مع دول متاخمة، سنار مدينة تجارية هامة بها سوق كبيرة لوقوعها في الطريق بين مصر والحبشة ووسط أفريقيا وبلاد الشرق، اشتهرت بثروة وغنى، تأتيها بهارات صندل وروائح، ويخرج منها تمر، بقر، حديد، رقيق، عسل، ذهب، جلود، ريش نعام، سمسم، سن الفيل، خرتيت، وأبنوس؛ جاء علماء المسلمين من مصر، الحجاز، شمال أفريقيا، ومن إسبانيا المسلمة يعلمون الدين وينشؤون مساجداً وخلاوي لتدريس القرآن وعلوم الدين، وجدوا احتراماً وتقديراً

من حكام وكبار رجالات الدولة؛ اتصلت دولة الفونج بالأزهر الشريف وهاجر طلاب العلم إلى هناك طلبا للمعرفة، اهتمت بنشر الدين الإسلامي، بنت لها علاقة بنابليون في مصر؛ بجانب مملكة الفونج قامت دولة الفور في أقصى الغرب، الاستقرار فيها أكثر منه في دولة الفونج، حالة الشعب عامةً كانت أفضل منها هناك، تجارتها كبيرة مع كردفان، بحر الغزال، مملكة وداي، ومصر، انتشر الإسلام فيها وشيدت جوامعاً ومساجد علم وقرآن، اتصلت بالأزهر الشريف ليصبح لها رواقاً يعرف برواق دارفور، اهتمت بالأراضي المقدسة، دفعت من تلقاء نفسها جزية عرفت بصرة الحرمين الشريفين).

كما سرح إسيتيذ سرح كذلك معلمو.. ما في حد أحسن من حد.. سرح في صور طفولته البائسة، وقريته التي لم تكن أحسن منه حالا:

(قرية حلوة بسيطة، حياتها تسير بدون أيتها تعقيدات، أهلها يربون معيزاً وأغناماً وجمالا، حظائر معيزها محفوفةً بأغصان أشجار سيال وهشاب شوكية، الحظائر جزء لا يتجزأ من البيوت، يحلبون لبنها في الصباح الباكر لإعداد الشاي للأطفال وللكبار، المعزات الولودات تلد توائما في الخريف، الأطفال والسخلان ينطون معا فوق عشب أخضر فرحين جذلين؛ الرعاة في الخريف يجوبون بالأغنام والجمال أماكن عشب وكلأ قريبة من البيوت، في الصيف حين يقل المرعى، يغيبون عن القرية، يذهبون بحلالهم إلى أماكن بعيده؛ يحرصون على حياة هذه الأغنام والجمال أكثر من حرصهم على حياة أولادهم، لأنها مصدر رزقهم الذي ينفقون منه على احتياجاتهم من سلع ضرورية، سكر، شاي، بن، بصل، ملابس، وعلى زفات أولاد طهور وأعراس صبايا وصبيان؛ في الخريف يشمرون عن سواعدهم، رجالا ونساء، شيوخا وشبابا، يدفنون البذور في الأرض وينتظرون السماء أن تجود عليهم بالغيث، وحين تزف ساعة الحصاد يجمعون المحصول في غبطة ما بعدها غبطة شاكرين حامدين لله صاحب

الفضل والمنة؛ تكتمل دورة حياتهم بالذهاب على ظهور حميرهم وجمالهم إلى سوق أسبوعي بقرية كبيرة مجاورة، يبيعون ويشترون، ويأكلون كبدة ولحم إبل، أهل المزاج العكر منهم لا يكتمل أكل اللحم عندهم إلا باحتساء (دلاليق) من مريسة، عسلية، وبقنية، أهل الرؤوس الخفيفة منهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، جهل وخمر يلعبان بالرؤوس، يختمون يوم سوقهم بمعركة حامية الوطيس غير معروف فيها مَنْ مع منْ، ومنْ ضد منْ، يستخدمون فيها عكاكيزاً مضببه بجلد بقر ناشف، وسياط عنج، وسكاكين، رجال شرطة أقوياء أشداء يأتون على ظهور جمالهم، يفصلون بينهم بلا رحمة ولا رأفة، يقيدون أيديهم وأرجلهم بالحبال، يأخذون الناجين إلى سجن القرية، ويذهبون بالمصابين إصابات خطيرة إلى مستشفى المدينة، والمصابين إصابات خفيفة محلهم نقطة غيار القرية، يمدون رقابهم كأصنام حجرية لا يتكلمون ولا يتألمون دلالة على نخوة ورجولة، ومساعد الحكيم يحلق رؤوسهم كلها بشفرة موس واحدة، ويخيط جروحهم بدون تخدير ببنج، لأنهم أصلا مخدرون).

وافتهما ست الشاي بآنية قهوة، بماء مثلج، وبغنج ودلال، أخرجته حركتها، صوتها، وضوضاؤها من سرحانه، استفاق مما كان فيه، دعك عينيه فهو لا يدري إن كان في حلم، أم يقظة، أم منام، لكز بيده كتف صديقه، وخاطبه بنبرة خافتة قائلاً:

(شردنا وسرحنا يا عزيزي غصبا عنا، ست الشاي أيقظتني من سرحاني، الطفل الصغير عندما يكدره مكدر يلجأ إلى حضن أمه، وأنا مثله لجأت إلى حضن قريتي في زمن طفولتي).

استفاق إسيتيذ من حالة سرحانه التي دخلها طائعا مختارا، ورد بنبرة أكثر خفوتا:

(يا صديقي بمنتهى الصراحة كنت غائبا عنك وعن قريتك وعن الدنيا وما فيها، كنت شاردا بذهني مع (أرض السمر)، في ماضيها الموغل في القدم، وحتى قيام وازدهار دولتي (الفونج) و(الفور)، حضارات قامت، ازدهرت، ثم بادت، ماتتت كما يموت الناس، وتموت البهائم، وتموت الأشجار، الله ﷻ حكم على الأرض وساكنيها بالفناء).

سأل بلهجة لا تخلو من تعجب قائلاً:

(وكيف كانت حياة أجدادنا القدماء في ذلك الأوان، وسبل كسب عيشهم؟).

رد بلهجة واثقة قائلاً:

(رغماً عن أن أحوالهم المعيشية كانت قاسية، في ظروف صعبة، إلا أنهم كانوا يعيشون في استقرار هادئ جميل، في كنف ملوك رحماء، بدلاً عن حياتهم السابقة التي كانوا يغيرون فيها على بعضهم البعض، يقتلون، وينهبون، ويأسرون).

التفت معلمو ناحية المنضدة، وضع سكر في فنجانين، صب القهوة من (الجَبَنَة) الإبريق الفخاري الصغير ذو البطن المدورة، والرقبة الطويلة، والعروة الأنيقة، حركه بملعقة صغيرة، مد له الفنجان، رشف رشفةً طويلة لها دوي كدوي نحل، ثم شرد سرح مرةً أخرى، غاص في التاريخ الذي لا يريد أن ينفك عنه، ربما بسبب أن ما شاهده اليوم من أحداث مؤثرة هيج أسئلةً كثيرة في رأسه حول أفكار وجودية تتصل بماهية المواطن، والوطن، والمواطنة:

(دولة الفونج تترنح، محمد علي حاكم مصر من قبل الأتراك العثمانيين خطط لفتح بلاد السمر ليحصل على المال والرجال ولينمي تجارته الخارجية، أسند قيادة جيش حملة سنار، خمسمائة ألف جندي بأسلحة نارية، إلى ولده صغير السن إسماعيل، وقيادة حملة كردفان، أربعة آلاف مقاتل، إلى صهره الدفتردار؛ انتصر السلاح الناري على أسلحة بدائية ليبدأ عهد جديد اسمه التركية السابقة، فرض اسماعيل

ضرائباً باهظة على السكان؛ بدأت نكبات عظام التي تقع على الرؤوس، الباشا إسماعيل بعد أن قضى ما يقرب من عامين وهو في طريقه للعودة إلى مصر بعد جهود مضنية بذلها لتحقيق رغبات أبيه وصل شندي، استدعى المك نمر ومساعده مساعد، طلب منهما مبلغا كبيرا من المال، وعددا كبيرا من الجمال والماشية ليعود بهما إلى والده، حاول المك يثنيه عن طلبه، وبمنتهى الصلف رماه بغليون كان ممسكا به في يده، فات عليه أن من رماه هو كبير الجعليين، تظاهر المك بالإذعان وطلب منه أن يستضيفه وجنده ريثما يدبر له المال، إسماعيل وجنده يطعمون ويشربون ويسكرون والمك نمر وقومه يجمعون الحطب والحشائش ويحيطون بهم من كل جانب وهم في سكرتهم يعمهون، أشعلوا فيهم النيران التي التهمتهم بقائدهم ولم ينجو إلا القليل، مات إسماعيل ميتةً شنيعة؛ بلغ الخبر الدفتردار الذي نهض من توه لينتقم لإسماعيل، لا من الجعليين فحسب بل من أهل بلاد السمر قاطبة؛ بدأت حملته الأولى من ديار الحسانية، سارت شمالا تقتل وتخرب حتى وصلت المتمة، قمة الانتقام والأخذ بالثأر تمت هناك، مجزرة بشرية كبيرة، أكثر من ألفي جثة مرمية في العراء، ثلاثة آلاف من الأسرى يقتلون عن بكرة أبيهم، اتجهت الحملة شمالا صوب بربر، ثم اتجهت جنوبا تقتل وتدمر وتخرب حتى جزيرة توتي، وصلت إلى ود مدني؛ قفل وجنده عائدا إلى حيث كان، عاد مرةً أخرى في حملة انتقامية ثانية، نزل بالموت على بلاد الجعليين، طارد نمر في أرض البطانة، التقى الجيشان في أبي دليق، انهزم نمر وهرب إلى الحبشة ومات هناك؛ سار على مساعد بين الدندر والرهد، لحق به وهزمه وطارده حتى حدود الحبشة، رجع من حملته الثانية يسوق أمامه عددا كبيرا من الأسرى ليرسل بهم لمصر ليباعوا في سوق النخاسة، حال دون حدوث ذلك تدخل قناصل الدول الأوروبية؛ عمد محمد علي بعد الاضطرابات التي أعقبت مقتل ابنه إسماعيل إلى سياسة إدارية وعمرانية طيبة أعاد بها الطمأنينة إلى النفوس ليستطيع

الاستفادة القصوى من أرض السمر، عمد إلى زيادة الإنتاج الزراعي والحيواني ببعثه بفلاحين مصريين ليعلموا الأهالي طرق الزراعة الحديثة، استجلب العمال الذين يجيدون صناعة السواقي، حاول إغراء سكان الجزيرة ليسكنوا قريبا من النيل ويعتمدوا على زراعة مروية بدلا من مطرية، جلب من مصر أشجار الفاكهة وقصب السكر، جلب الكباش الممتازة لتحسين نسل الضأن، اهتم بالثروة المعدنية ببذل الجهود الكبيرة في استخراج الذهب من مناجم بني شنقول، بعث بالمهندسين والمدنيين إلى هناك؛ الغالبية العظمى من الحكام والموظفين وجامعي الضرائب نهجوا نهجا مختلفا عن نيات الخديوي الطيبة، دخلت على الإدارة كل مساوئ الحكم التركي من رشوة واختلاس، وفداحة وقسوة في جمع الضرائب لتتسم الإدارة بطابع العسف والظلم في كثير من الفترات، أدت كل هذه العوامل إلى قيام ثورة؛ قامت الثورة المهدية، اقتحم الدراويش قصر الحاكم في الخرطوم وقطعوا رأس (غردون) باشا آخر حاكم عام وأرسلوا به لقائدهم محمد أحمد المهدي، عاصمة المهدية أم درمان نمت في عهد خليفة المهدي، مبانيها كبيرة مبنية بالطوب الأحمر، مباني عامة الناس من الجص، جامع كبير شيده الخليفة من الطوب الأحمر وعلى مقربة منه قبة مشيدة على قبر المهدي المؤسس، توسعت تجاوز طولها أربعة أميال وعرضها ميلين، ازدحمت بسكانها الذين قدر عددهم بحوالي أربعمائة ألف نسمة؛ بعد انتصارات عظيمة حققتها جيوش المهدية على الحدود الحبشية وشرق السودان في سنوات حكم الخليفة الأولى أخذت المهدية تنحدر نحو نهايتها نتيجة ما فقدته من رجال وعتاد، زاد في تدهورها صلابة الخليفة وعنفه غير العادي في معالجة المشاكل الداخلية مما أثار عليه الحفائظ وأيقظ العصبيات التي أشعلتها الثورة الدينية، سنوات القحط (مجاعة سنة ستة) فعلت فعلها بهز كيان الدولة الاقتصادي والحربي؛ وأخيرا أدت هزيمة جيش ود النجومي في

توشكي إلى تقوية أمل مصر والمشرفين عليها على غزو بلاد السمر، انقلبوا إلى مهاجمين بعد أن كانوا مدافعين).

وكما سرح إسيتيذ كذلك سرح معلمو.. إذا سرح تلميذ واحد في الفصل أثناء الحصة يسرح باقي التلاميذ، عاد معلمو ليكمل حلقة السرحان في حاله وحال قريته:

(معلمو تلميذ في المدرسة الأولية، عراقي وسروال يستران بدنه وحقيبة من قماش الدمور تتدلى بسير طويل من على عظمة كتفه، لباس الفقراء في ذلك الزمان، قريته ما بها مدرسة، المدرسة الوحيدة بالقرية المجاورة، يقطع إليها وفي معيته أترابه من أولاد وبنات مسافة ثلاثة كيلومترات جيئةً وذهابا يوميا، يقاسون في الصباحات الشتوية الباكرة الباردة شدة البرد القارس الجاف لأن القليل منهم يتدثرون بملابس شتوية ثقيلة، يلتفتون يوميا التفاتة أخيرة نحو قريتهم، يودعون قطاطيها، عشش رواكيبها، أشجارها، دوابها، قططها، وكلابها، يودعونها لأنهم ألفوها، ولا تطيب لهم الحياة في مكان غيرها، يتمنون أن لو كانت في قريتهم مدرسة تغنيهم عن العذاب والمشقة التي يعانونها، ورغما عن كل ذلك يفرحون بوصولهم إلى هناك، لأن معلميهم يعاملونهم معاملة طيبة، يسألونهم عن حالهم وحال أهلهم، يستفسرون عن مأكلهم ومشربهم، ويقدمون لهم وجبة فطور مدرسية مجانية، يقدمون لهم معونات الخواجات من سمك، سردين، وجبن معلب، ومن وقت لآخر يأتي أطباء للكشف عليهم، يقولون لهم أنهم يعانون من سوء تغذية وفقر دم؛ سنواته تمضي بسرعة، وهو يتدرج في السلم التعليمي، ينتقل إلى مدرسة المدينة، يذهب ويعود إلى القرية مع بداية كل عطلة مدرسية، لا جديد في القرية، أهلها يتعايشون في أمن وسلام مع بعضهم البعض، راضون بالأمر الواقع، هكذا حياتهم، وهكذا هم، مؤمنون بقدرهم المكتوب، ينتظرون الفرج من السماء، والسماء عودتهم ألا تخيب ظنهم، دائما تمطر عليهم خيراً وغيثا).

أتتهما ست الشاي لتأخذ آنية القهوة إذا فرغا من شربها أو لتجدد لهما الماء المثلج، أخرجته حركتها، وصوتها، وضوضاؤها، من سرحانه، استفاق مما كان فيه، مسح بيده على صفحة وجهه التي آذاها تراب وغبار تتطاير بفعل إطارات سيارات وعربات كارو، لكز بيده كتف صديقه، وخاطبه بنبرة متكاسلة قائلاً:

(سرحنا ثانية يا عزيزي، ست الشاي أيقظتني من سرحاني، أخرجتني من عالم افتراضي جميل، من حضن قريتي أيام مدرستي الأولية).

استفاق إسيتيذ من حالة سرحانه، ورد بنبرة أكثر تكاسلا قائلاً:

(يا صديقي كنت سارحاً هذه المرة مع (أرض السمر)، منذ سقوط مملكتي الفونج والفور وحتى ضعف وتآكل دولة المهدية وزوالها، ممالك، ازدهرت، ثم بادت، ماتتت كما يموت الناس، وتموت البهائم، وتموت الأشجار، الله ﷻ حكم بالفناء على الأرض وساكنيها).

كرر نفس السؤال الذي سأله من قبل قائلاً:

(وكيف كانت حياة أهلنا الطيبين في ذلك الزمان، وسبل كسب عيشهم؟).

أجاب بلهجة لا تخلو من أسف قائلاً:

(يا صديقي أقول لك بملء فمي وبدون مجاملة، وأمري لله، حياتهم أسوأ من حياة من سبقوهم، كل عام يرذلون).

مد له فنجان القهوة وخاطبه بنبرة منشرحة قائلاً:

(الدنيا كثيرها وقليلها رائح، يله نشرب نخب شرودنا وسروحنا الجميل).

أمسك بالفنجان، رشف رشفةً طويلة لها رنة، وسرح مرةً أخرى في ماضيه، شدة شروده وسرحانه هذه المرة أقوى مما كانت عليه في المرتين السابقتين.

(فتح إنجليزي مصري لأرض السمر تم على مرحلتين، في مرحلته الأولى استولى الجيش الفاتح على مديرية دنقلا حتى مروي،

وفي الثانية فتح بقية أجزاء البلاد الأخرى؛ خرجت البلاد منهوكة ضعيفة بعد حروب المهدية وحروب الفتح؛ الحكومة الثنائية عملت على تنمية الموارد الاقتصادية لتتمكن من الإنفاق على الإدارة، والخدمات الاجتماعية الأخرى، بحثت شتى الطرق لتنمية الدخل القومي بينما تكفلت الحكومة المصرية بسد عجز الميزانية، وتحملت نفقات جيش الاحتلال أيضا؛ أحداث اقتصادية عظيمة في هذه الحقبة، افتتاح خزان سنار، ثم مشروع الجزيرة أكبر مشروع زراعي مروي في المنطقة، حدث توسع في زراعة القطن في أجزاء البلاد الأخرى القاش وطوكر، المديرية الشمالية، جبال النوبة، وأعالي النيل؛ تطور النقل تطورا ملحوظا ببناء خطوط سكك حديدية، وإصلاح طرق برية، وبناء كبري النيل الأبيض بين أم درمان والخرطوم، دخل النقل الجوي المدني البلاد؛ توسع التعليم بفتح مزيد من مدارس حكومية وأهلية، ظهرت بدايات التعليم العالي بإنشاء مدارس حقوق، طب بيطري، زراعة، وعلوم هندسية، لتتوحد هذه المدارس في كلية (غردون) لتكون نواة لجامعة الخرطوم فيما بعد؛ نمت الخدمات الطبية، فتحت مدرسة كتشنر الطبية؛ بعد نهاية الحرب العظمى أثرت الحركات الوطنية في مصر على السودان، بمطالبتها بإلغاء الحماية الإنجليزية على مصر، وإعادة السيادة المصرية على السودان، وإلغاء معاهدة الحكم الثنائي، ظهرت في البلاد بوادر يقظة وطنية لأول مرة، هدفت إلى تحرير البلاد من المستعمرين؛ مارس الاستعمار البريطاني في السودان العديد من السياسات التي استنزفت البلاد ماديا وبشريا، ونتيجة لهذه السياسات الجائرة ولدت الحركة الوطنية المناهضة للوجود الأجنبي، ظهرت الجمعيات السياسية مثل جمعية الاتحاد السوداني، وجمعية اللواء الأبيض التي كافحت الاستعمار بكل الوسائل، ظهرت الجمعيات الأدبية التي لعبت دورا كبيرا في دعم الحركة الوطنية عبر أندية الخريجين بعد أن ضيق الاستعمار الخناق

على الجمعيات السياسية؛ تكون مؤتمر الخريجين العام من خريجي كلية غوردون والذي قاد الحركة الوطنية، برزت الأحزاب على مسرح الحياة السياسية، قادت الحركة الوطنية العمل السياسي إلى أن نالت البلاد استقلالها؛ وقعت اتفاقية الحكم الذاتي للسودان المكونة من خمسة عشر مادة، دخل قانون الحكم الذاتي طور التنفيذ، استبشر السودانيون بالدستور خيرا؛ قامت الانتخابات في موعدها في السودان ،عدد الأحزاب التي خاضتها قليل نسبياً، شارك الحزب الوطني الاتحادي، وحزب الأمة، والحزب الجمهوري الاشتراكي بالإضافة إلي حزب واحد من الجنوب وهو حزب الأحرار الجنوبي؛ فاز الحزب الوطني الاتحادي بالأغلبية وأصبح الزعيم إسماعيل الأزهري رئيساً للوزراء ومحمد أحمد محجوب زعيما للمعارضة، استمر البرلمان المنتخب في العمل بعد الاستقلال لمدة ثمانية عشر شهراً، شهدت هذه الفترة حكم حزب سياسي واحد هو الحزب الوطني الاتحادي مما وفر للبلاد قسطاً من الاستقرار مكنها من إنجاز أعمال كثيرة على رأسها سودنة الوظائف الحكومية، جلاء القوات الأجنبية، تقرير المصير، وإعلان الاستقلال من داخل البرلمان؛ قام البرلمان السوداني الأول بمهامه الوطنية بكل إخلاص وتفان، وأعلن الاستقلال من داخل البرلمان، بدأت الديمقراطية الأولى بتأليف إسماعيل الأزهري لوزارته الائتلافية بعد وزارته الأولى، بدأت الخلافات تظهر بين الأحزاب السياسية بعد سقوط حكومة الأزهري، أصبح الخلاف واضحا بين الأحزاب السياسية حول السياسات الخارجية، مشكلتي مياه النيل وحلايب، واتفاقية التعاون الاقتصادي للإنشاء والتعمير المعروفة بالمعونة الأمريكية؛ جرت انتخابات ولم يحرز أي حزب من الأحزاب الأغلبية المطلقة التي تمكنه من تشكيل حكومة منفرداً، تشكلت حكومة ائتلافية بزعامة عبد الله خليل يقودها حزب الأمة، أثارت قضية المعونة الأمريكية الصراع بين الأحزاب المؤتلفة، ازداد الصراع

والخلاف وساءت الأوضاع بسبب المناورات الحزبية، ظهرت مشكلة الدستور الذي تعثر الاتفاق عليه، تجدد الحديث عن حكومة قومية، تخوف عبد الله خليل على رئاسته إذا ما تكونت الحكومة القومية؛ استلم عبد الله خليل خطاباً من سفير السودان بالقاهرة حول اجتماع بين حزب الأزهري وحزب الشعب وبحضور جمال عبد الناصر، تم الاتفاق فيه على إسقاط الحكومة في الخرطوم؛ اتصل عبد الله خليل بالسيد عبد الرحمن المهدي وكبار قادة الحزب واخبرهم بالمعلومات التي وصلته، اجتمع بعد يومين كبار آل المهدي بقائد الجيش ومعه ثلاثة من كبار الضباط ، اتفقوا على أن يتسلم الجيش السلطة بقيادة عبود ويحل البرلمان والأحزاب السياسية، ثم يعود بعد استقرار الوضع إلى سكناته ويسلم الحكم لهم مرةً أخرى).

وكما شرد إسيتيذ شرودا ذهنيا كذلك فعل معلمو، ولسان حاله يقول: (القلوب على بعضيها والطيور على أشكالها تقع)، ثم سرح ثانية مع حاله وحال قريته:

(قريته انتعشت قليلا، توسعت، عاد إليها بعض من أهلها الذين هجروها، عادوا إليها بحريمهم وأولادهم وحلالِهم، بنوا لهم بيوتا من قش طرف القرية، الحاج أحمد افتتح دكانا، وبعد فترة وجيزة الحاج يسن افتتح دكانا آخر، الحكومة شرعت في بناء مدرسة بأربعة فصول، وفي مكان قريب منها بعد فترة قصيرة شرعت في بناء نقطة غيار؛ العميدة جاد الرب يطيل شنباته أكثر من اللازم، يبرمها لسبب ولغير سبب، جيوبه انتفخت بالمال، بطنه انتفخ بأطايب الطعام، سمعه يقول: (إذا ما ظهرت العافية في قرية، تظهر كذلك في عمدتها)، وأهل القرية على دين ملوكهم، يفخمونه ينادونه بالعمدة بدلا عن العميدة، دخل معلمو الجامعة كلية التربية، كثير من زملائه الناجحين نجاحا باهرا فضلوا العمل كمعلمين وأحجموا عن دخولها بسبب الفقر، تحققت أحلامه بفضل المنحة (البيرسوري)، زمن الحكومة هي الطاعم

الكاسي، يوم تخرجه لم تفرح به القرية الفرح اللائق، سبقه ثلاثة من أبنائها، الأول درس الطب وبعد أن عمل طبيبا نسي أنه ينتمي إليها، الثاني درس القانون، وبعد أن عمل محاميا اشتغل بالسياسة وتنكر لها، والثالث درس الهندسة المدنية وهاجر إلى دول الخليج وما عاد ينفر إلا ممن يذكره أنه قروي ينتمي إليها، الثلاثة تزوجوا من بنات بندر متحضرات وتركوا بنات قرية متخلفات، الثلاثة لم تعتب أرجلهم أرض القرية بتاتا منذ أن تركوها وهم أنصاف عراة وحفاة، آباؤهم وأمهاتهم ماتوا ولم تحدثهم أنفسهم بالعودة لقراءة الفاتحة على قبورهم، أصهارهم هم أهلهم الجدد، ومن لا خير فيه لوالديه، ولا أهله، ولا قريته، لا خير فيه لوطنه، حكماء القرية كانوا يتهامسون سراً: (إقبال النعمة على القرية فجأة ابتلاء من الابتلاءات، إنها حالة من حالات الصحوة التي تسبق الموت)).

أنتهما ست الشاي لترى إن كانت لهما طلبات جديدة، أخرجته حركتها، وصوتها، وضوضاؤها، من سرحانه، استفاق مما كان فيه، طرد بطرف يده ذبابة حطت بدون استئذان على أرنبة أنفه، لكز بيده كتف صديقه، وخاطبه بنبرة فاترة قائلاً:

(سرحنا للمرة الثالثة يا عزيزي، ست الشاي أيقظتني من سرحاني، أخرجتني من عالم افتراضي جميل، حضن قريتي الدافئ في زمن صحوتها وانتعاشها).

استفاق إسيتيذ من حالة سرحانه، ورد بنبرة أكثر فتورا قائلاً:

(يا صديقي كنت سارحاً هذه المرة مع (أرض السمر)، منذ زوال دولة المهدية إلى حكم الجنرال عبود، دول وحكومات قامت، ازدهرت، ثم بادت، ماتتت كما يموت الناس، وتموت البهائم، وتموت الأشجار، الله ﷻ حكم بالفناء على الأرض وساكنيها).

كرر نفس السؤال قائلاً:

(وكيف كانت حياة أجدادنا الطيبين في ذلك الأوان، وسبل كسب عيشهم؟).

كرر نفس الإجابة قائلاً:

(يا صديقي أقول لك بدون مجاملة، وبملء فيهي وأمري لله، حياتهم أسوأ من حياة من سبقوهم، كل عام يرذلون).

مد له فنجان قهوة وخاطبه بنبرة لا تخلو من بعض راحة قائلاً:

(الدنيا كثيرها وقليلها رائح، يله نشرب نخب شرودنا وسروحنا الجميل).

أمسك بالفنجان، رشف رشفةً طويلة لها موسيقى، وسرح مرةً أخرى في الماضي، شدة شروده وسرحانه هذه المرة أقوى مما كانت عليه من قبل.

(نفذ الجنرال عبود الجزء الأول من الخطة في اليوم الذي كان مقرراً فيه اجتماع البرلمان، بدأت الحقبة العسكرية الأولى لتضع نهاية لأول نظام ديمقراطي؛ أدار الناس مفاتيح أجهزة المذياع، سمعوا موسيقى عسكرية، خرجوا للشوارع في العاصمة ليجدوها مليئة بأرتال أسلحة ودبابات وجنود؛ أطل عليهم الفريق عبود ببزته العسكرية ليعلن الانقلاب، غمرت أغلب الناس فرحة كبيرة بالانقلاب الذي يجدد لهم حياتهم على الأقل بعد أن سئموا رتابة مساجلات سياسة عقيمة؛ ألغوا الدستور، عطلوا البرلمان، فرضوا ديكتاتورية غاشمة صادرت الحريات وأرهقت الشعب في شمال وجنوبه، استخدموا حلاً عسكرياً في الجنوب مما أدى إلى فرار أعداد كبيرة من الجنوبيين إلى الدول المجاورة، كونوا تنظيمات وأحزاب سياسية، منها انفصالية؛ تفجرت المظاهرات المعادية للحكم العسكري، في أكتوبر أربعة وستين من القرن الماضي بسبب مشكلة الجنوب، وبسبب الندوات التي فتحت لكل القوى السياسية للنقاش والوصول إلى حلول لهذه القضية، دخل الجيش إلى حرم جامعة الخرطوم ليفرق مظاهرات بالقوة، استشهد الطالب

أحمد القرشي، نتيجة لذلك تفجرت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد وتحولت إلى عمل سياسي متكامل وصل قمته باستعمال سلاح الإضراب السياسي، والعصيان المدني، نتيجة لذلك أعلن الفريق عبود حل المجلس العسكري الأعلى، وحل مجلس الوزراء والمجلس المركزي، وسلم السلطة للشعب؛ تكونت حكومة انتقالية برئاسة سر الختم الخليفة، عملت حكومته على حفظ الأمن ووحدة البلاد، وألغت القوانين المقيدة للحريات، ورفعت حالة الطوارئ التي كانت مفروضة، تميزت هذه الفترة بصراعات حزبية ومناورات لم تترك مجالاً لتنمية البلاد، أهم إنجاز لها هو مؤتمر المائدة المستديرة لحل قضية الجنوب والذي باء بفشل ذريع، تفاقمت الأحوال، انشغلت القوى التقليدية بصراعات، ومصالح حزبية ضيقة، مما أدي إلى تأزم الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، مع عجز في معالجة قضية الجنوب).

وكما شرد إسيتيذ شرودا ذهنيا كذلك فعل معلمو، ولسان حاله يقول: (القلوب الطيبة كرأس القاطرة، يجر وراءه عربات محملة بقلوب طيبة، مشبعة بود، حب، وسلام)، ثم سرح مرة أخرى في حاله وحال قريته.

(القرية في نزعها الأخير، جفاف، محل، وجدب، ضربتها في مقتل، زرعها لا ينمو، معيزها وأغنامها لا تثغو، إبلها لا تخرج جرة، ماتت الدواب واقفة من الجوع، شم رائحة جيفها التي تزكم الأنوف، مرمية في كل مكان على الطرقات وقرب البيوت، المعيز والأغنام والجمال من الهزال لا تجد من يدفع فيها مليما أحمرا واحدا، تساقط الناس من المرض كورق شجر ناشف، حام الموت على بيوت خاوية من زاد ودواء، خياراتهم كانت محدودة، إما أن يموتوا جوعا أو يسيحوا في أرض الله الواسعة، وبالفعل نزح كثيرون إلى المدينة، أخذوا معهم القليل مما بقي لهم من خشاش وحطام الدنيا، والمدينة لا

ترحم، بعض الرجال هربوا ولم يعرف لهم أثر، البعض الآخر عملوا في مهن تافهة أقل من هامشية لأنهم لا يتقنون شيئا سوى صر، حلب، رعي، وزرع، العائد من المهن التافهة لا يقيم لهم أودا، نساء قرويات جميلات بريئات دخلن السوق، عملن ستات شاي لمحترمين وصعاليك، وطباخات شواء لذوي عيون زائغة وغير زائغة، وخادمات في بيوت محترمة وغير محترمة، والمدينة لا ترحم، أولاد الحرام الذين يملكون المال كثر، واختلط الحابل بالنابل، وأصبحت عفة القرية مكان تساؤل، رفضت النساء عصمة الرجال، رفضن العودة إلى البيوت وترك السوق، هجرن الأولاد وطمحن الأزواج، وكثرت حالات الطلاق، معظم بيوت القرية التي هجرها ساكنوها تهدمت وتفرقت قشوشها وعشوشها في العراء، والذين تمسكوا بالأرض رفعوا أكفهم بالدعاء، وانتظروا الهبات من أهل خير، ومن عيال تفرقوا أيدي سبأ).

أتتهما ست الشاي التي نفذ صبرها، أخرجته حركتها، وصوتها، وضوضاؤها، من سرحانه، استفاق مما كان فيه، طرد بيده بعوضة متسكعة طنت بطيش ونزق حول أذنه اليمنى، خاطبها بنبرة لا تخلو من أدب وذوق قائلاً:

(خذي يا بنت الناس الأواني وأحضري لنا قهوةً جديدة).

شرب كوبا من الماء ثم ملأه ومده لصديقه.

لكز بيده كتفه، مد له الكوب وخاطبه بنبرة متثاقلة قائلاً:

(سرحنا للمرة الرابعة يا عزيزي، ست الشاي أيقظتني من سرحاني، أخرجتني من عالم افتراضي جميل، حضن قريتي لقيته سخن نار في زمن التيه، زمن النزوح).

استفاق إسيتيذ من حالة سرحانه، ورد بنبرة أكثر تثاقلا قائلاً:

(يا صديقي كنت سرحانا هذه المرة مع أرض السمر، بعد انقلاب عبود وحتى نهاية ديمقراطية أولى، انقلابات وديمقراطيات قامت ثم ذوت

وبادت، ماتتت كما يموت ناس، وتموت بهائم، وتموت أشجار، الله جل جلاله حكم بالفناء على الأرض وساكنيها).

كرر سؤاله المعهود قائلاً:

(وكيف كانت حياة أهلنا الطيبين في ذلك الزمان، وسبل كسب عيشهم؟).

أجاب إجابته المعهودة قائلاً:

(يا صديقي بدون مجاملة أكرر لك نفس الإجابة، وأمري لله، كانت حياتهم أسوأ من حياة من سبقوهم، كل عام يرذلون).

مد له فنجان القهوة وخاطبه بنبرة لا تخلو من عدم رضا قائلاً:

(الدنيا كثيرها وقليلها رائح، يله نشرب نخب شرودنا وسروحنا الجميل، ونخب طراوة هواء حرية ومدنية).

أمسك بالفنجان، رشف رشفةً طويلة لها دندنة، وسرح مرةً أخرى في الماضي، شدة شروده وسرحانه هذه المرة أقوى مما كانت عليه من قبل.

(أطاحت مجموعة من الضباط بقيادة العقيد نميري بحكومة المحجوب، اعتبر حركته امتدادا لثورة أكتوبر، وأن انقلابه جاء من أجل تقدم اقتصادي واجتماعي، وأنه يقف ضد الاستعمار والإمبريالية ويسعى نحو حل سلمي لمشكلة الجنوب؛ أعلن في بيانه أن سياسة حكومته في الجنوب تقوم على أساس حكم ذاتي إقليمي في نطاق سودان موحد، وعلى الجنوبيين إدارة شئونهم المحلية دون تدخل من الخرطوم إلا عند الضرورة القصوى، حصيلة ذلك اتفاقية أديس أبابا التي استمرت نحو عشر سنوات وانهارت بعدها بتمرد جون قرنق، قامت مظاهرات شعبية ضد تدهور أوضاع اقتصادية، ومشاكل سياسية معقدة، وفقدان أمن، نادت الجماهير بالإطاحة بالنميري، قررت قيادة الجيش الانحياز إلى جانب الجماهير والاستيلاء على السلطة، انتهى بذلك نظامه، تم تكوين مجلس عسكري انتقالي برئاسة

الفريق سوار الذهب، أعلن فترة انتقالية لمدة عام تكون في نهايتها انتخابات عامة تسلم بعدها السلطة إلى جمعية تأسيسية منتخبة؛ تكونت حكومة مدنية انتقالية برئاسة الدكتور الجزولي دفع الله، مارس المجلس العسكري السلطة كرأس للدولة في مجال السيادة وتقاسم السلطة التشريعية مع مجلس الوزراء، نجحت الحكومة الانتقالية نجاحاً باهراً في نقل السلطة إلى الشعب ممثلاً في أحزابه عبر انتخابات عامة، ثم بدأت حقبة جديدة، واجهت الحكومة المنتخبة عدة مهام أولها التخلص من آثار فترة نميري، وإصلاح الأوضاع الاقتصادية، وإعادة السلام إلى الجنوب، حدثت تطورات سياسية هامة وأزمة حادة عكست تدهور الأوضاع الداخلية والخارجية لحكومة الديمقراطية الثانية، وانقسام الجبهة الداخلية في الوقت الذي كانت تعاني البلاد حصارا اقتصاديا وعسكريا؛ أهم ما ميز هذه الفترة وكان سببا في الإطاحة بها تدهور الأوضاع العسكرية في الجنوب، استغلت الحركة الشعبية بالجنوب ضعف الأحزاب السياسية في السيطرة على الأوضاع وانشغالها بالصراعات فيما بينها واحتلت أجزاء كبيرة من الجنوب؛ في هذه الأثناء تبنى الحزب الاتحادي الديمقراطي التفاوض مع الجنوبيين وتمخض عن ذلك اتفاقية الميرغني قرنق التي تم التنازل فيها عن الشريعة الإسلامية، والتي كان من المقرر لها الإجازة داخل الجمعية التشريعية، ولكن قبل ذلك التاريخ، قام الإسلاميون بانقلاب عسكري بقيادة البشير، وهو الثالث في تاريخ البلاد).

وكما شرد إسيتيذ شرودا ذهنيا كذلك فعل معلمو، ولسان حاله يقول: (القلوب غصبا عنها تجاري القلوب التي تأنسها)، ثم سرح في حاله وحال قريته.

(القرية شتاءً وصيفا بائسة، يستوطنها عجائز، مرضى بأمراض خبيثة ومزمنة، ومقعدون من ذوي عاهات، وحاجات خاصة، من رجال، ونساء، وأطفال، شبابها رحلوا إلى المدن، أو ذهبوا معدنين إلى

حيث أماكن تعدين الذهب، ينزلون إلى أعماق الأرض ليستخرجوه من هناك، أو هاجروا إلى أوروبا، والقاسم المشترك بينهم جميعا وبين المتعلمين من أولاد القرية أنهم ذهبوا ولن يعودوا إليها مرةً أخرى، من ذهب إلى المدينة تاه في خضم أسواقها وشوارعها وأزقتها، يحمل باقة بلاستيك ماء مبرد ليبيعه للمارة، أو يقود عربة كارو تجرها الحمير، أو يدفع درداقة عليها أحمال ثقيلة، من ذهبوا إلى الذهب، وهم كثر، قلة قليلة منهم أصابوا حظا من ثراء، وغالبيتهم ُطمَروا تحت التراب داخل الآبار، حفروا قبورهم بأيديهم، أو ماتوا من جراء استخدامهم لمواد كيماوية سامة، ومن قصدوا أوروبا منهم من مات في الصحراء الكبرى، أو وقع تحت رحمة عصابات الإتجار بالبشر، أو صار طعاما لأسماك البحر الأبيض المتوسط، قلة قليلة منهم دخلوا في ذلة وانكسار معسكرات اللاجئين في مالطا وفرنسا وإيطاليا، أياديهم تغطي وجوههم خوفا من أن تفضحهم كاميرات التصوير).

أتتهما ست الشاي بأواني قهوة جديدة، ببسمة عريضة، وهي تتثنى وتتمايل بغنج جذاب، رمقتهما بنظرات مشحونة بدهشة واستغراب، كان يدور في داخلها حديث هامس: (الجماعة الاثنين ديل وراهم سر، الله يكفيني شرهم، عاملين عملة، يخططوا لي عملة، بتوع أمن، بتوع مصائب، الله عالم، وثاني الله يكفيني شرهم)، أخرجته حركتها، صوتها، وضوضاؤها، من سرحانه، استفاق مما كان فيه، حك وهرس بيده نملة (شحموطة) لئيمة ظلت تقرص قدمه اليمنى بلا هوادة، خاطبها بنبرة مهذبة قائلاً:

(شكرا على خدماتك الممتازة، خمسة نجوم).

شرب كوبا من الماء ثم ملأه لصديقه.

لكز بيده كتفه، مد له الكوب وخاطبه بنبرة ناعسة قائلاً:

(سرحنا للمرة الخامسة يا عزيزي، ست الشاي أيقظتني من سرحاني، أخرجتني من عالم افتراضي جميل، أخذتني من حضن قريتي الدافئ).

استفاق إسيتيذ من حالة سرحانه، ورد بنبرة أكثر نعاسا قائلاً:
(يا صديقي كنت سرحانا هذه المرة مع (أرض السمر)، بين نميري وبشير، انقلابات وديمقراطيات قامت، ازدهرت، ثم بادت، ماتتت كما يموت ناس، وتموت بهائم، وتموت أشجار، الله ﷻ حكم بالفناء على الأرض وساكنيها).
سأل سؤاله المعهود قائلاً:
(وكيف كانت حياة أهلنا الطيبين في ذلك الأوان، وسبل كسب عيشهم؟).
أجاب إجابته المعهودة قائلاً:
(يا صديقي بدون مجاملة أكرر لك نفس الإجابة، وأمري لله، حياتهم أسوأ من حياة من سبقوهم، كل عام يرذلون).
مد له فنجان القهوة وخاطبه بنبرة باردة قائلاً:
(الدنيا كثيرها وقليلها رائح، يله نشرب نخب شرودنا وسرحانا الجميل).

أمسك بالفنجان، رشف رشفةً طويلة لها ذبذبة تطرب الآذان، ولكن هذه المرةً، رغبته في وعي بحاضر أقوى من شرود وسرحان في ماضي.
رد بنبرة لا تخلو من إحساس بمرارة قائلاً:
(يا صديقي قبل أن نرشف ثمالة آخر الفناجين، وقبل أن نودع بعضنا بعضا، أود أن أقول لك إن الثورات في البلاد المتخلفة مثلنا يصنعها الشباب، ويركب موجها سياسيون وانتهازيون، وما ثورات الربيع العربي عنّا ببعيد).

نهضا، مدّ كل منهما يده نحو الآخر، توادعا في حرارة، افترقا على أمل أن يلتقيا قريبا، مشى معلمو شمالا، وخواطر قريته تدور كرحى طاحونة في داخله:

(قريتي المسكينة، تمنيت لها في أحلامي أن تنمو لتصبح بلدة، حلوة ظريفة جميلة، فيها من الضروريات كل ما يحتاجه الإنسان، أعلم أن مياهها الجوفية تكفي وتزيد لقيام مشروعات زراعية بستانية وحيوانية، لكن ينقصها رواد ومؤسسات لا تتوانى عن دخول في مجالات استثمار جديدة، ينقصها رأس مال يولي جوانب الاجتماع اهتماما، تنقصها سياسات حكومية قويمة تحول أهلها إلى منتجين ذوي كفاءة عالية، قريتي المسكينة لو ضخ فيها أولئك القلة القليلة من أبنائها نذرا يسيرا من ثرواتهم الطائلة التي جمعوها بخرط القتاد لتحولت إلى مكان عصري يضرب به المثل في الجمال، مكان يوفر حياة كريمة لأناس لم ولن يذق آباؤهم وأجدادهم طعم سعادة وسرور في رحلتهم من مهد إلى لحد، ولكن لا حياة لمن تنادي، الأثرياء والمتعلمون من أبنائها لا يعيرونها التفاتا، تمثل لهم جزءً من مخلفات ماضي بغيض، لك الله يا قريتي الحبيبة، أحمل همك أنا من دون سائر الناس، ستظلين وردةً برتقالية تتوهجين داخل فؤادي، كلما زاد توهجك زاد نبض قلبي، إلى أن تجف الأقلام وترفع الصحف).

مشى إسيتيذ جنوبا في الاتجاه المعاكس له تماما، وفيوض من الأفكار ما زالت تتدفق على وجدانه:

(شعب طيب مسكين، منذ الحكم التركي وحتى الآن، يصنع الثورات، مهدية، أكتوبر، أبريل، ديسمبر، وربما فيما هو آت من الزمان، تأتي ثورات أخرى بأسماء ما تبقى من أشهر السنة، يقدم

تضحيات، تلو تضحيات، يمضي الشهداء لملاقاة ربهم، يتذكرهم الناس لفترة تطول أو تقصر، ثم ينسونهم كما ينسون غيرهم من الموتى، يفقد بعض الثوار أطرافهم وأعينهم وأذنهم، يحترمهم الناس لفترة، ثم ينظرون إليهم كما ينظرون لغيرهم من المعوقين، يختفي بعض الثوار في ظروف غامضة، يجري البحث عنهم لفترة، ثم يذهبون طي النسيان ويقيدون ضد مجهول، متى تنتهي هذه الحلقة الخبيثة، متى ينال الشعب حرية ومدنية حقيقية؟ متى يفهم عسكره أن همهم الأوحد هو بناء جيش قوي يحمي البلاد من الطامعين؟ لماذا في كل يوم بتصرفاتنا الحمقاء نقدم للخواجات أدلة وبراهين بأنا جينيا أقل مرتبة منهم، وبأن الديمقراطية التي تصلح لهم ليست بالضرورة تصلح لنا).

□

(٣)

سنوات عجاف

إسيتيذ وكثيرون غيره في بلدٍ أهلهُ يعيشون في ظل مفارقة كبيرة، يؤمنون أيما إيمان بأنهم سلة غذاء العالم، وفي نفس الوقت متهمون بأنهم كسالى، وتتفشى بينهم أمراض عدم مبالاة، وعدم أمانة لأن الرشوة أصبحت عندهم أسهل من شرابهم للماء، يحس بأنه غريب محبسين، لا ينتمي لأي من هذين المحبسين لا فكريا، ولا نفسيا، ولا شعوريا، محبسه الأول وطنه الذي أدمن التخلف لا بسبب تخلف أهله وإنما بسبب تخلف حكوماته، محبسه الثاني هو بيته فأولاده بعيدون عنه كل البعد، إن أراد أن يراجع معهم دروسهم، يقولون: (بابا نحن نجد صعوبة في الحكي معك، والفَهْم منك، ونفضل مدرسين خصوصيين) والسبب غلظته عليهم، فهو يريدهم أن يكونوا على الأقل نصف عباقرة، وحينما يقول لهم حي على صلاة الجماعة في المسجد يتململون ويرافقونه على مضض، أما أمهم، فهناك جدار إسمنتي فكري عريض يفصل بينهما، فهي لا يهمها أبدا الخوض في أيتها شئون خارج نطاق شئون البيت، وهو عكسها تماما يحب الخوض في أي شيء، سياسة، اقتصاد، اجتماع، ثقافة، عدا شئون البيت، همها كله ينصب في تعليم فلذات أكبادها، وفي انضباطها في وظيفتها كمعلمة تفرح حتى الثمالة لنجاح تلميذاتها، تبذل كل ما في طاقتها من جهود لتنال رضا رؤسائها لتحظى بترقية مجزية، وتبتدع شتى الضغوط والأساليب الخشنة، والكلام المسيخ للضغط عليه ليوفر احتياجات بيت مبالغ فيها، تفوق قدراته المالية المحدودة، ولذلك كان يهرب من البيت عند المساء، يذهب إلى مكان قريب من بيته اتخذه هو وبعض المقربين إليه من جيرانه نادياً يلتجؤون إليه، سموه (نادي الأماسي الحالمة)، يفضفضون فيه، يدفنون أحزانهم، يطلقون لأحلامهم العنان، يجترون

في سعادة ما سمعوه من أخبار التلفاز وما سمعوه من الناس، يلتقطون بأجهزة استقبالهم ما فاتهم من كلام مسَاطيل، مجانين، وإشاعات، يجلسون أمام بقالة مغمورة محشورة وسط البيوت لا تكاد تبين، فوق حجارة، وبلوكات إسمنتية، وصناديق بيبسي كولا فارغة، يضعون مقاعدهم الوثيرة هذه فوق دكة من تراب، ومخلفات بناء تمتد لصق وعلى طول سور بيت مقابل للبقالة، سموه (حائط المبكى) لأنهم يندبون فيه حظوظهم العاثرة.

وبينما عشاءه المكون من كوب شاي بلبن ورغيف خبز ناشف - يموت في القرقوش - موضوع على منضدة صغيرة أمامه، جاءه صوت أم عياله وهي تقطب حاجبيها وترغي وتزبد وتصيح بلهجة صارمة قائلةً:

(كلمتك مليون مرة، حاجات آخر الشهر لازم تشتريها، لازم الآن قبل أن يقوم تجار الإجمالي الذين لا يخافون الله برفع أسعارها أضعافا مضاعفة، وأنت عامل فيها (طناش) سادي دي بطينة ودي بعجينة).

رد بنبرة هادئة:

(أنا ما عامل طناش، بس الحكاية محتاجة شوية ترويق، وشوية تدبير).

ردت بلهجة مستنكرة:

(سبحان الله، إجابتك ثابتة لا تتغير أبدا، لا في أول الشهر، ولا آخره، الله يطولك يا روح، ويا روح ما بعدك روح).

أدرك في قرارة نفسه أن الجو قد بدأ في التكهرب، وأن العاصفة في بداياتها، وخير له أن ينجو بنفسه في الوقت المناسب قبل أن تستفحل الأمور وتخرج عن دائرة السيطرة، على عجل شفط ما تبقي في كوبه من شاي، والتقم ما تبقى من رغيف، ثم نهض وخاطبها بنبرة ودودة قائلاً:

(الصبر مفتاح الفرج يا أستاذة، الصباح رباح).

مطت شفتيها، ردت بلهجة غاضبة قائلةً:
(للصبر حدود، إلى متى تهرب إلى الأمام، تمرق وتترك الجمل بما حمل).

خرج من باب بيته في هدوء بدون أن يحدث أيتها ضجة أو ينطق ببنت شفة، مشى على مهل نحو ناديه الحبيب، رأى (بوعلي)، أسمر فارع الطول، صارم القسمات، سماه أهل الحارة بهذا الاسم لأنه قضى شطراً طويلا من حياته يعمل في ديار الغربة، في ليبيا، وعلي، داكن السمرة، قصير القامة، ينتقي كلماته بعناية، يأتي بالأخبار من سقط لقط، سماه أهل الحارة (غوغل)، جالسان، الأول على بلوكه والثاني على حجر، بعد أن تبادل معهما التحية أفسحا له المجال ليجلس على أحد صناديق البيبسي الفارغة.

سأل غوغل بنبرة لا تخلو من مزاح قائلاً:
(مدة طويلة وأنت غائب عن نادينا يا مفهومية، أين كنت؟ هل ذهبت مع الذين ذهبوا مع الريح؟ أم لبست جلداً جديدا من جلود ثعالب، وحيات، وتماسيح؟ أنا عارفك تفهمها وهي طائرة).

رد وابتسامة نضرة ترف على وجهه لأنه من الذين يؤمنون بأن الدنيا لقمة، وضحكة، وعمل طيب، وآخرها كوم تراب قائلاً:
(أترك الغمز واللمز، يا غماز يا لماز، الجو اليوم هادئ جميل، أرفع رأسك فوق، شوف صفحة السماء صافية كيف، لحن جميل يخرج من أوتار عود، شوف النجوم تتلألأ كيف، لحن جميل يخرج من أوتار كمان، شوف نسمات الليل تهب علينا كيف، إيقاع جميل يخرج من جوف طبل، ممنوع التشويش، ممنوع إثارة الغبار، خلينا نعيش في جو هذه السيمفونية السماوية، أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا).

خرج صوت بوعلي مبحوحا بلهجة لا تخلو من ضيق متسائلا:

(خلونا من حركاتكم البايخة دي، لا توجعوا رؤوسنا، خلونا نواصل ما انقطع من حديث، الإنقاذ دي قعدت فوق صدورنا، كتمت علينا الهواء كم سنة؟ منعتنا شم النسيم كم سنة؟).

رد غوغل قائلاً:

(قعدت تلاتين سنة، لكنها تساوي ألف سنة، ألم تسمع بآية القرآن الكريم التي تقول «ألف سنة مما تعدون»).

شرف المكان عضوان بارزان، قطعا حبل حديث وجدال، ابتدرا بالسلام ثم جلسا، كل واحد منهما فوق حجر من حجارة مبعثرة، الأفندي (عظمة) متوسط طول، أسمر بشرة، هادئ تقاطيع وجه، موظف في واحدة من دواوين الحكومة، يسمع كثيرا ويتحدث قليلا، وإذا تحدث فحديثه لا يخلو من عبارة (كلام فارغ)، حتى أصبحت متلازمة معه كاسمه، وبصحبته (السناري) فارع طول، بسن متروم، وبوجه قسماته صارمة، وبطاقيه بيضاء لا تفارق رأسه أبدا.

استطرد بوعلي متسائلا بلهجة حادة قائلاً:

(ثلاثون سنة عجاف، عملوا لينا فيها شنو؟ غيروا لينا فيها شنو؟ جددوا لينا فيها شنو؟ الحكاية كلها أكاذيب ولعب على الدقون، المحير بعد ما طلعوا زيتنا في ناس لسه عميان، الأسود عندهم أبيض).

دخل السناري على طول في الكلام، التفت نحو عظمة، وخاطبه بلهجة مستنكرة قائلاً:

(أسمع الكلام ده، أنا عارفك واحد بتاع غلات، من قبيل أقول ليك كده تقول لي لا مش كده، أقول ليك أسود تقول أبيض، فعلا إنت واحد من أكبر المغشوشين).

رد عظمة بلهجة ساخرة قائلاً:

(أصبر شوية يا عم، صبر بيل الآبري ما عندك، وصلت متين عشان تحشر أنفك في الكلام، لازم تلخبط الدنيا بكلام فارغ).

مات الجالسون من الضحك عند سماعهم لعبارة (كلام فارغ) التي يحشرها أفندينا (عظمة) في حديثه في سياق مناسب وغير مناسب، مثلما كان يدبج عمنا (النتيح) قبل وداعه للدنيا بعبارته الخالدة (بدون مؤاخذة) كلامه عند مخاطبته للآخرين، يلاق من يلاقي في الطريق فيخاطبه قائلا: (بدون مؤاخذة السلام عليكم، بدون مؤاخذة هل رأيت دكان مهدي بدون مؤاخذة مفتوحا؟ بدون مؤاخذة مع السلامة).

رد غوغل بلهجة لا تخلو من مرارة قائلاً:

(خلاص جيت يا عظمة تملانا كلام فارغ، نرجع لقصتنا يا جماعة، قصة طويلة، محتاجة لملايين الصفحات، ولآلاف الأقلام، قصة مرة بمعنى الكلمة، مرة أكثر من الحنظل، ومن المرض، ومن الموت، قصة عذاب طويلة؛ يا رجل يا طيب، منذ مجيئهم لخبطوا البلد، بدئوا بحاجة قطعوها من رؤوسهم الخربة سموها فصل لصالح عام، خبرات وكفاءات مدنية رموها في الزبالة، وحل محلها أنصاف جهلاء من أهل ولاء، قيادات عسكرية وطنية أبقوها في المنازل وتولى زمام الأمور قيادات (كله تمام يا فندم)، بالله عليك كيف ينصلح حال بلد ومثل هؤلاء هم الذين يديرون لها شؤونها ؟).

رد بوعلي بلهجة قاسية بعد أن حك فروة رأسه قائلاً:

(لا تنس تلك الواقعة الفريدة التي لم يكرروها أبدا طوال عهدهم البائد، أدين واحد فقط، من نافذين فرضوهم على الناس فرضا، أدين بتهمة فساد، بنهب مال عام، صودرت أمواله وأودع غياهب السجن، كانت تلك واحدة من غلطاتهم التي لم يسمحوا بتكرارها مرةً ثانية، بعدها تغيرت الأمور تغيرا جذريا، من أراد منهم أن يفسد فليفسد، ومن أراد أن ينهب فلينهب، ومن أراد أن يصبح معروفاً بعد نكرة فليصبح، لأنه ما من نظام يأكل أبناءه، بل يفتح لهم الأبواب لكي يتحكموا في مفاصل الاقتصاد، لأنه من يتحكم في الاقتصاد يتحكم بسهولة في مصائر العباد، أي نظام إخطبوطي لا يدع فرصة لأعدائه لكي ينالوا منه من خلال عيوبه، لذلك يتستر عليها بتكميم أفواه، وبشراء ذمم، وبتحكم في وسائل الإعلام).

هنا تدخل إسيتيذ، أصلح نظارته على أرنبة أنفه، وخاطبهم بنبرة ضاحكة قائلاً:

)يا سلام، يا سلام، الحديث اليوم سياسة، في سياسة، ولم لا ؟ الناس كلهم في بلدنا الحبيبة، ولا أقول المتخلفة، لأنه لسه بدري علينا، لم نصل مرحلة التخلف بعد، يعشقون معبودتهم (سياسة)، الواقفون في صفوف الخبز يسدون رمقهم بخبز اسمه سياسة، الواقفون في صفوف الغاز يعبئون أسطواناتهم بغاز اسمه سياسة، والواقفون في صفوف الجاز والبنزين يعبئون خزانات سياراتهم بوقود اسمه سياسة، المشيعون في المقابر بدلا من الدعاء للميت ينكدون عليه قبره بالحديث في سياسة).

رد عظمة بلهجة متأففة قائلاً:

(صدقت، تخلفنا بالسالب، سياسيو بلدنا، كلام فارغ، فاشلون، مخططو بلدنا يضعون لنا سياسات وخطط، كلام فارغ، غير أكفاء وغير واقعيين، تنفيذيو بلدنا ينفذون مشروعات، كلام فارغ، بيروقراطيون يضعون مصالحهم فوق مصالح الوطن، ومواطنو بلدنا، أكبر كلام فارغ، سلبيون ينتظرون السماء أن تمطر عليهم رغيفا، ووقودا، وغازا، لن تمطر لهم إلا كلام فارغ).

رد السناري بعد أن نفذ صبره، فهو يتلهف لأن يشارك في الحديث بأية طريقة، لأنه يشعر بأن الأفكار تتزاحم في رأسه كهواء في بطنه، ولن يستريح منها إذا لم يخرجها في وقتها:

(ثلاثون سنة عجاف مرت على البلد، ضاعت عائدات بترول، انفصل جنوب حبيب، أهلنا في دارفور نازحين في معسكرات نزوح لا تطاق إن ربطوا فيها الحمار يشرد، طبول حرب تدق في جبال النوبة، وفي النيل الأزرق، حزب واحد، فئة واحدة ظلوا يتحكمون في مقدرات البلد، يديرونها حسب مزاجهم وهواهم، البلد حصريا لهم دون غيرهم، خصصها الله لهم من دون سائر أهلها، يعتبرون أنفسهم مُخَلِصين

للناس من العذاب، البسطاء، خشاش الأرض، ما هم إلا عبيد يشقون يتعبون، يدفعون لهم ضرائب مباشرة، وغير مباشرة، قيمة مضافة، جمارك، جبايات ومكوس ما أنزل الله بها من سلطان، وهم أصحاب جلالة ملوك يكدسون أموالاً، يبنون عمارات، وينشئون مزارع حدادي مدادي، وما على المغفلين إلا أن يقولوا سمعا وطاعة، يصفقوا، يهللوا، يكبروا، يقبلوا الأيدي، الرؤوس، بل الأحذية).

قاطعه إسيتيذ بنبرة مريرة قائلاً:

(عندما جاءوا كانوا معدمين أكثر منا، وعدونا برخاء، بكنس كل مخلفات ماضي بغيض، من انتكاسات، إخفاقات، ومرارات، ما نجحوا في شيء غير تحقيق رخاء ورفاه لأنفسهم فقط، أما نحن ما شممنا معهم ريحة رخاء، ولا ذقنا معهم طعم هناء، وما سمعنا إلا وعودا هُراء، دخلونا جوامع، دخلونا مقابر، ودخلوا السوق).

هتف غوغل بلهجة لا تخلو من ألم قائلاً:

(أتعرفون لماذا كانوا يعذبونا؟ لأنهم يظنون أنهم هم أهل البلد الأصليين ونحن وافدين، هم الوحيدين الذين يذودون عن حياض الدين، القيم، والأخلاق، هم الأكثر ثقافةً، وتعليماً، وتمدناً، وتحضراً، وتنظيماً، وقدرة على أدارة شئون بلاد أعراقها، أديانها، وثقافاتها متعددة، وأنهم خالدون فيها إلى أن ينزل عيسى عليه السلام).

رد إسيتيذ بلهجة باكية يائسة بعد أن عدل نظارته قائلاً:

(عندما جاءونا أعدموا من أعدموا بسبب متاجرة في دولار، كان الدولار وقتها بستة جنيهات وعندما تركونا بلغ خمسة وستين جنيها، تركونا وبلادنا تعاني من نقص حاد في دقيق، وقود، غاز، وسيولة، تركونا ومشاهد صفوف كالنمل متراصة في كل مكان لا تخطئها اعين تبصر، تركونا وتجار لا يشبعون يعيثون فساداً، يحتكرون سلعاً، يرفعون أسعاراً بحجة ارتفاع سعر الدولار، ويعملوا نائمين عندما ينخفض سعره، بحجة أنه انخفاض وهمي، غير حقيقي، ولا يعول

عليه، تركونا والبلاد فيها شَعْبان، شعب يتمتع بكل الخيرات، أهل الحكم، ومن والاهم وشايعهم، وشعب طيب يقتات فتاتاً، يصارع فقراً، مرضاً، جوعاً، جهلاً، وموتا).

رد بوعلي بحنق قائلاً:

(يا جماعة الخير هوي، في حاجة عاملة لي جن كلكي وزانّة في رأسي الكبير ده، اسمها (سوق حر)، في الدنيا كلها ما في حاجة اسمها (حرية مطلقة)، أي حرية عندها حدود، علمونا في المدرسة تنتهي حريتك عندما تبدا حرية الآخرين، حتى في أمريكا السوق مش مفكوك للنهاية بدون حدود، مش فوضى بدون رقيب، ما في حاجة اسمها احتكار، الاحتكار جريمة يعاقب عليها القانون، أما في بلدنا ال ما عندها وجيع دي، أي حرامي أو مجموعة حرامية، يحتكروا سوق أي سلعة، والأسعار على كيفهم، بمزاجهم، والدولة تتفرج عليهم، لأنهم أصلاً جزء لا يتجزأ منها، يهمها الريع الذي يأتي منهم، ضرائب، جمارك، ورسوم، وحاجات ثانية تحت الطرابيزة لا يعلمها إلا الله، الغلابة التعابة طظ فيهم، وفي من خلفوهم، وحريقة تحرقهم).

رد إسيتيذ بلهجة سخنة قائلاً:

(من منكم قرأ الكتاب الأسود، كتاب ممنوع من الصرف، كتاب اقتناؤه جريمة ما بعدها جريمة، خيانة عظمى، تجسس لصالح دولة أجنبية، عرقي، أفيون، هيروين، لذلك اختفي من الوجود، قرأه قلة من الناس، إذا صح ما ورد فيه، فإنه شاهد ودليل على صحة إشاعات كثيرة، جهة واحدة محتكرة قيادة الجيش العليا، التنظيمات السياسية، الخدمة المدنية، المرافق الاستراتيجية والحيوية، السلك الدبلوماسي، يعني بصريح العبارة وبدون مؤاخذة، المسألة ما مصادفة وإنما عمل استراتيجي مقصود مبرمج، استعمار ناعم، الفاهم فاهم، وال ما فاهم إن شاء الله عمره ما يفهم).

مر بالقرب منهم (الفيلسوف) بشعر رأسه الكثيف الذي لم يشذبه ويهذبه مقص حلاق منذ وقت طويل، وبشعر ذقنه الأبيض الكثيف الذي يذكرهم بأفلاطون فيلسوف الإغريق، مر وهو يحمل كيسا من رغيف، وقف للحظة، أدار رادار عينيه الصغيرتين ماسحا المكان، ابتسم ابتسامة ماكرة، رفع لهم يده بالتحية ثم خاطبهم بنبرة ضاحكة قائلاً:

(الهواء ضرباني، سمح الهواء، الحرية ما مثلها شيء، الجماعة فاتوا).

رد غوغل قائلاً:

(يا حاج أنت الظاهر عليك ما جائب خبر للدنيا، فاتوا وين؟ ديل ما بفوتوا؟ يفوتوا وين يعني؟ ديل ورانا يعني ورانا، يا يحكمونا بالحديد والنار يا يسودوا ويطينوا علينا عيشتنا).

لم يعجب الفيلسوف كلامه، وحين لا يعجبه الكلام ينتفخ وجهه، يتغير لونه، وتبدأ معاركه الجدالية التي تقود دائما إلى ما لا يحمد عقباه، رد بلهجة متنرفزة قائلاً:

(أنا ما جائب خبر للدنيا، غوغل ولا شيطان، إنت وليد متين؟ ولدوك متين؟ عرفته السياسة متين؟ تعرف كرومر؟ تعرف شرشل؟ تعرف لينين؟ تعرف ستالين؟ تعرف أدولف هتلر؟ تعرف موسوليني؟ تعرف ماو تسي تونج، تعرف الثورة الثقافية؟ تعرف هوشي منه؟ تعرف الجنرال دياب، تعرف حرب العصابات؟ تعرف غاندي؟ تعرف لماذا قتل؟ تعرف أنديرا؟ تعرف لماذا قتلت؟ تعرف بادي أبو شلوخ؟ تعرف كنيدي؟ تعرف لماذا قتل؟ تعرف القس مارتن لوثر كنج؟ تعرف لماذا قتل؟ تعرف (الأبارتايد)؟ تعرف فيدل كاسترو؟ تعرف جيفارا؟ تعرف لماذا قتل؟ تعرف خليج الخنازير؟ تعرف نلسون مانديلا؟ تعرف بوث ديو؟ تعرف أبيل أليرا؟ تعرف المائدة المستديرة؟ تعرف من هو الأب الشرعي لاستقلال السودان؟ تعرف أب عاج؟ تعرف جون قرنق؟ تعرف لماذا قتل؟ تعرف من هم الذين فصلوا الجنوب؟ والله أنت أمي

وأغلف كمان في السياسة، لا تعرف فيها أي حاجة، لكن أنا الليلة دي أخليك تعرف حاجة، أنا كلامي من مصادر موثوقة مش كلام فارغ ملقط من هنا وهناك، خلاص الجماعة ديل شوكتهم انكسرت، الهرب هرب، الدخل في جحر دخل، والسلّم سلّم، والعاملين فيها فرفرة مذبوح ديل يومهم قرب).

هز غوغل رأسه ثم رد بهدوء ورزانة قائلاً:

(ما تفهمني غلط يا حاج، أنا ما قاصد حاجة، عبارة وقلتها بحسن نية، معقول العين تعلى على الحاجب، أنتم جيل ونحن جيل آخر، أنتم جيل فيكم البركة، ونحن جيل طائش، ضالي طريق، ماشي بدون بوصلة).

قطب حاجبيه ثم رد بلهجة صارمة قائلاً:

(أعمل حسابك يا ولد، مرة ثانية ما ترمي الكلام على عواهنه، تعرف معنى على عواهنه ولا أشرحها ليك، العواهن معناها كلام فارغ غير مفيد مثل جريد نخلة يابسة، أما كلامنا نحن ثمر تمر حلو).

انطلق في طريقه لا يلوي على شيء، كلمة واحدة لا تعجبه تعكر مزاجه لأسابيع، تجعله يلعن أبو الحارة واليوم الذي لماه فيها.

خاطب بوعلي غوغل بنبرة ناصحة قائلاً:

(اعمل حسابك يا أبو عرام، لازم تتعامل مع خلق الله بحسب ما يحبون لا بحسب ما تحب أنت، رسولنا الكريم يوجهنا لأن ندعوهم بأحب الأسماء إليهم، يعني لازم تتفهم نفسياتهم، تعرف موجاتهم ماشه على وين، تجاملهم، تفعل ما يسرهم، وتتجنب ما يغضبهم).

تمتم غوغل بنبرة لا تخلو من عدم راحة قائلاً:

(فعلاً صدق من قال إذا كان الكلام من فضة السكوت من ذهب، في ناس إذا رأيتهم أحسن تعمل حالك أعمى، وإذا سمعتهم أحسن تعمل حالك أطرش، وإذا صادفتهم في الطريق تفاداهم أسلك أي طريق آخر).

قاطعه إسيتيذ قائلاً:

(سيبونا من الفيلسوف، خلونا في الذين عصرونا عصر، طلعوا زيتنا، ضقنا معهم المر، لا تنسوا يا ناس أن فسادهم عم بر وبحر، وقبل أن أستودعكم الله، أقول لكم أن هؤلاء الفئة ضيعوا علينا ثلاثين سنة، في عمر الشعوب ليست بهينة أو قصيرة، وبعدين لا تنسوا اليوم الذي يمضي لا يعود أبدا فما بالكم بسنوات، وعَدُونا بسلام، رخاء، نلبس مما نصنع، ونأكل مما نزرع، وفي النهاية لا لبسنا، ولا أكلنا، شبعنا موت وبس).

نهض متثائباً، سلطان النوم غلاب، الطريق شبه مظلم، حفر وأخاديد، بالوعات، روائحها نتنة تزكم الأنوف، مشى وهو يتحسس طريقه بقدميه وبأنفه معا، أي خطوة متهورة منه غير محسوبة ربما تجعل غده أغبرا وإحدى يديه أو رجليه ملفوفةً في جبس، إذا وجد جبس؟ بقدرة قادر وصل إلى باب داره، كلص حريف ظريف أدار المفتاح في باب داره، يحرص على مفتاحه أكثر من حرصه على حياته، لأنه في الحالات النادرة التي فاته أن يأخذه معه في جيبه واضطر إلى قرع الباب دفع ثمن غلطته غاليا، تسلل كشبح حتى وصل إلى فراشه الذي يتوسط الباحة الداخلية للبيت، توسد مخدة خفيفة تريحه من ألم غضروف الرقبة، غطى وجهه بملاءة، وقبل أن تصدر منه أول شُخيرة جاءه صوتها، كانت في انتظاره، كانت تترصد عودته، زجرته بلهجة متحفزة قائلة:

(وين كنت؟ الليل له آذان، والجيران لهم آذان، والحيطان لها آذان، الله يصبح الواطه على خير، ويا دار ما دخلك شر).

رد بنبرة مستكينة قائلاً:

(الله يصبحنا على خير).

أحكم لف ملاءته حول جسمه النحيف، أغمض عينين ناعستين، تحايل على جذب فراشات النوم الملائكية التي طردتها أم عياله من عينيه، سرح كيفما يحلو له السرحان، هرب إلى حيث واحة عالمه الافتراضي التي كثيرا ما يجد فيها سلوى أمن وملاذ: (زعماء الشعوب الذين أحصاهم وعدهم (الفيلسوف)، كانت لكل واحد منهم رسالة، رؤية، غايات، وأهداف؛ حملوا أرواحهم في أكفهم ليمنحوا شعوبهم الحياة، إنهم ليسوا رسلا يوحى إليهم من السماء، وإنما بشر سخرهم الله لقيادة شعوبهم في الأرض، ولذلك يصيبون ويخطئون، بلاده غير محظوظة البتة، ينقصها مثل هكذا زعماء، لم يأت بعد زعيم مخلص، لا يعرف عم، خال، حارة، جهة، قبيلة، حزب، جماعة، و لا يحزنون، يعرف حاجة واحدة بس الله ثم الوطن).

ومع حروف (ا، ل، و، ط، ن) التي بدت أمام عينيه كعصافير ملونة مغردة، تطير بين أغصان أشجار مزهرة، بدأ الوسن يدب في عينيه شيئا فشيئا، ومن ثم تدثر بلباس الليل، واحتواه سلطان النوم.

(٤)

طوفان

وسوس إسيتيذ في نفسه:

(مسكين أنا، أنا مسكين والله، أبعد هذا العمر الطويل، وتبوئي لأرفع المناصب في الدولة، أقف هكذا وقفة مشينة، تحت شمس ظهيرة حارقة، أمام بوابة دكان مغلق بطِبل تنذر بأن البلد لا تعدم لصوصاً يقفون للدكاكين بالمرصاد، مكتوب على يافطته بالبنط العريض (بقالة الغلابة والمساكين، والأرزاق بيد رب العالمين)، أقف وسط جمهرة رجال، وبقربنا جمهرة نساء، هن يتزاحمن كمعزات عطشى، ونحن نتزاحم كتيوس جوعى، يا ليتنا نتزاحم على فعل خيرات، إننا للأسف نتزاحم للحصول على عدس، زيت، بصل، دقيق، لبن جاف، وصابون حمام وغسيل، نتزاحم أمام هذا الدكان لأنه يبيع لنا بأسعار مخفضة قل أن نجدها في دكان آخر، ولأن غالبية الناس بلغ بهم سوء الحال مبلغا عظيماً، صيرهم أنصاف عباقرة، يحاولون بقدر الإمكان حل لغز حير أساطين علم الاقتصاد منذ أيام العم آدم سميث، شقيق العم سام، الحصول على أكبر قدر من السلع بأقل قدر من المال، يعني تعظيم منفعة المنفعة لجنيهات قليلة دونها خرط القتاد).

لكزه أحد المتزاحمين بيده، لكزة أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها قلة أدب، وقلة حياء، وقلة ذوق، سأله بلهجة قاسية قائلاً:

(يا حاج محلك وين في الصف؟).

عدل نظارته، بوجه متجهم رد عليه بلهجة تحمل كثيراً من المعاني قائلاً:

(وهل أنتم واقفون في صف يا أيها المحترم، أين الصف؟).

رد بنبرة متحذلقة قائلاً:

(الصف هنا يا حاج لا يشبه باقي الصفوف في أي مكان آخر، الصف هنا له خصوصية، لما يكون الدكان مغلق قف كما تشاء، ولكن نسق مع آخر شخص وصل إلى هنا قبلك، ومن يصل بعدك ينسق معك، وهكذا الحكاية حبات سبحة في خيط، وبمجرد فتح أبواب الدكان ينتظم الصف، كل واحد في مكانه حسب الأسبقية، نظام يعني نظام).

انتابت إسيتيذ الوساوس، همس في داخله:

(سبحانك يا الله، يا من علمت ناس بلدي كيف يصنعون من البطيخ فسيخ، يبتدعون للصفوف تعريفا جديدا، نظاما جديدا، نسقا جديدا، وأدبيات جديدة).

ثم استطرد بنبرة ودودة قائلاً:

(معذرة يا إخواني، أعذروني هذه أول مرة آتي إلى هنا، لا ذنب عليكم الذنب عليها، بدلاً من أن تأتي بجلالة قدرها لتقف مع هاته المعزات الأليفات، أجبرتني لآتي لأتزاحم مع قطيع تيوس وحشية).

طفق يتفرس في وجوههم واحداً تلو الآخر ليرى ردود أفعالهم على كلماته القاسية، ويا للصدفة العجيبة رأى غوغل، بتاع (نادي الأماسي الحالمة) مندساً بقامته القصيرة وسط أكوام اللحم والعظام البشرية، نادى عليه بنبرة ضاحكة قائلاً:

(يا غوغل، يا ولد يا خطير، من الذي دلك على هذا المكان؟ من الذي دلك على جزيرة الكنز هذه، يا قرصان البحار، يا جون سلفر؟).

رد عليه بنبرة أكثر وداً وهو غير مصدق لما يرى قائلاً:

(مش ممكن، عملتها كيف؟ ما إنت أبو المفهومية، دايما تفهمها وهي طائرة، الظاهر عليك اشتغلت في المباحث الجنائية، يا عزيزي الفئران الضعيفة المهانة لا تموت من الجوع، تحفر لها شبكات أنفاق معقدة لتصل إلى الطعام، فما بالك بجون سلفر قاهر القراصنة، صاحب العقل، والفطنة).

عدل نظارته ورد بنبرة باسمة قائلاً:

(تعال يا جون سلفر، تعال يا غوغل، تعال لتقف بجانبي، أولاً قل لي كيف حال نادينا؟ ثانيا قل لي إلى متى هذا العذاب؟ كرهنا حياتنا، كرهنا حاجة اسمها صفوف، متى يأتي الفرج؟ متى يأتي الخلاص؟ يا أخي نحن فعلا محتاجون لثورة، ثورة تكنس كل وسخ وعفن وتبني البلد من أول وجديد، حالنا اليوم أسوأ من أحوال البلدان التي شهدت قيام ثورات الربيع العربي، كما ترى وِشنا يلعن قفانا، كل شيء عندنا الآن مركب غلط، طبقة فوق، وطبقة تحت، لا توجد طبقة في النص، أغنياء وفقراء، متعلمون وأميون، يمينيون ويساريون، علمانيون ومتشددون، يقولون نحن نعيش عصر الاتصالات والتقانة الحديثة، وسائط تواصل اجتماعي، تويتر، فيسبوك، ووات ساب، قل لي هل استفدنا منها زيادة في الإنتاج؟ أم مجرد وسيلة فجة لتثرثة، كلام فارغ، وإشاعات، المستبدون يقولون على الثورات: (صنيعة أيادي خارجية تلعب وتعبث بأمن الوطن)، وينسون الأسباب الداخلية، بأنهم استباحوا كل مقدرات الوطن، والآن يتباكون على لبن مسكوب).

رد بنبرة متحمسة قائلاً:

(ردي على سؤالك الأول أن النادي في غيابك سماء بلا بدر، وعلى سؤالك الثاني، الفرج قريب، قريب جداً، يعني عامل لا شائف ولا سامع بشباب بطل، يسير مواكباً والمظاهرات في كل شبر في البلد؟).

عدل نظارته للمرة الألف ورد بنبرة أكثر حماسة قائلاً:

(أنا لا أعمى، ولا أعمش، ولا أطرش، لو كان عمك المتنبي حيا لقال عنهم: (هم الذين نظر الأعمى إلى ملاحمهم وأسمعت هتافاتهم من به صمم)، قلوبنا معهم يا أخي، دعواتنا لهم بالنصر المؤزر، وما باليد حيلة، ما عندنا قوة، شيخوخة، سوء تغذية، وجن وغباء، تمنعنا من أن نكون فاعلين في وسطهم، يا حسرتاه على شباب ولى، يا ليته يعود لكي نلقن هؤلاء المستبدين درساً لن ينسوه أبدا، يسطره المؤرخون في كتبهم، ويدرسه المدرسون في مدارسهم).

هتف أحد المصطفين بلهجة متحدية قائلاً:

(يا أيتها السيدات - ناظرا ناحية النساء - يا أيها السادة - ناظرا ناحية الرجال- أنا من الذين أدمنوا التظاهر، أنا واحد من الشفّاتَّة، أترون ذلك المكان - أشار بيده نحو إشارة المرور التي لا تبعد لأكثر من مئتي مترا - تعالوا عند الساعة الواحدة بعد الظهر لتروا عجباً عجاب، شباب يحرقون إطارات سيارات، يحملون لافتات، يحملون أعلاماً، يهتفون في بسالة ما بعدها بسالة، وفي حرارة ما بعدها حرارة، ملئ حناجر جافة، ملئ فضاء واسع (سلمية، سلمية، ضد الحرامية)، (حرية سلام، وعدالة، والثورة خيار الشعب)، (حكومة الذل تسقط بس)، (حكومة الموت تسقط بس)، (حكومة القهر تسقط بس)، (حكومة العسكر تسقط بس)، (حكومة الجوع تسقط بس)، (حكومة الجبهة تسقط بس)، و (حكومة الكوز تسقط بس)).

رد آخر بلهجة لا تقل عنه حماسة قائلاً:

(إنها مظاهرات سلمية، لا حجر، لا طوب، لا حرق، لا تكسير، ولا نهب، ولكن رد الظالمين عليها دائما باطشا وعنيفا، المسألة لهم مسألة حياة أو موت، يا قاتل يا مقتول، سيارات دفار زرقاء، سيارات كروزر وهايلكس بلوحات وبدون لوحات، تحمل وحوشاً جلدها كاكي ووحوشاً جلدها مدني، تهرس المتظاهرين بلا رحمة، شعارهم (أجلد، أكسر، أقتل، أرفع، ما تجيبوا حي)).

انفتحت شهية غوغل للكلام، سره الحديث، ذكره نادي الأماسي، رد بنبرة هادئة قائلاً:

(يا أخوانا والله في دول حلوة حلا، تتمنى تعمل فيها مظاهرة، أعمل زي ما إنت عائز، بس ما تخرب، يصوروك، ويعملوا معاك مقابلات تلفزيونية وصحفية، ويأكلوك ويشربوك، وإن كثرتها وزعلوا منك يرشوك بالزهور وبالماء البارد، وفي دول زي حالتنا، العياذ بالله، يطروك عذاب منكر ونكير).

رد آخر بأنفاس حرى قائلاً:

(ماذا تتوقعون من نظام مستبد، فرد واحد، فرعون، كل الفراعنة أوردوا شعوبهم موارد الهلاك، يسوقوها كالحمير، يركبوا على ظهورها، يكسروها بثقل أحمالهم، ينعتوها بالغباء والبلادة، يلهبوها بالسياط، تتحمل في صمت، بلا مقاومة، بلا شكوى، وبلا صراخ، وحتى بلا إحساس بألم، خلاص ثلاثون سنة كفاية مهانة علينا).

وبنَفَس مولعة نار رد شاب آخر بدا من مظهره أنه من الذين يجمعون الحطب، ويصبون الزيت، ويشعلون النار في المظاهرات، قائلاً:

(يا ناس هوي هذا نظام فاسد سقطت أوراق التوت التي تستر عورته، أفحش فعل كل قبيح، قتل، اغتصاب، تحرش جنسي، اعتقال، تعذيب، سحل، ضرب بهراوات وسياط وخراطيش بلاستيك، ركل بالبووت، لكم، تهشيم عظام، وإهانة بأقبح الإساءات، ولكن الثورة صامدة، وقودها دماء الشهداء، الاعتقالات تزكي ضرامها، تردي الأحوال المعيشية يزيد سخط شعب جائع، فيلتف حولها).

طرى إسيتيذ حنجرته بجرعات من قارورة ماء صحة كان يمسك بها أحد الواقفين ثم خاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا هوي كلامكم سَخَنْ، حار جمر، أنا خوفي بعد شوية تدوروا مظاهرة من هنا، لا تنتظروا الساعة واحدة، ولا صفر، ولا يحزنون).

رد شاب وجهه مغطى بشعر لحية غير مهذبة بنبرة ساخطة قائلاً:

(يا عم المظاهرة زي العصار، تدوِر بدون إنذار في أي لحظة في أي مكان، مدارس، مساجد، سوق الله أكبر، الناس دي تظهر من وين، تتلم كيف، ما عندهم شغل، ما عندهم مشغولية، ما عندهم أهل، ما عندهم أي حاجة بس قضية واحدة، أعمى ومسكوه عكاز (تسقط بس)، يا كافي البلاء، كم شهر البلد عجلاتها معطوبة، الدنيا مقلوبة فوق تحت، والحال في حاله، أنا خائف قيامتنا تقوم، ولمن تقوم لا ينفع كويس ولا بطال).

رد شاب آخر قائلاً:

(أنا بصريح العبارة ما فاهم أيتها حاجة، أطرش في زفة، نسمع كلام ناس الحكومة نقول فعلاً الناس ديل عمروا البلد، عملوا مشاريع كثيرة، وفي فرق كبير بين الحياة زمان وهسي، يا أخوانا التلفون ده كان في تلتلة، نسمع كلام ناس المعارضة نقول فعلاً الناس ديل على حق، لأنه قصص الفساد كثيرة، وظلم الناس كثير، وصحيح حرية ما في، تتكلم تتقلم، قمع مبالغ فيه، حديد ونار، سائقين الناس بالكرباج، القانون ضائع، أهواء في أهواء، الحاكم هو القانون، بل فوق القانون).

تنحنح إسيتيذ نحنحته المميزة التي يطلقها قبل بداية حديثه، عدل نظارته ثم خاطبهم بنبرة ساخطة قائلاً:

(يا أخوانا أسمعوني جيدا، كلام ولدنا ده صحيح، ولكن في أشياء عائزة توضيح، في أنواع عديدة من القمع، اقتصادي، لعب في الأراضي، إفقار صغار فلاحي الريف بعدم توفير التمويل اللازم لهم، تشريد وتهميش مواطنين فقراء يعملون في مهن هامشية، بوضع عراقيل أمامهم تصعب عليهم كسب الرزق الحلال، وتنكد عليهم معيشتهم، رشوة مقننة، محسوبية، تعدي على المال الميري، التضخم، كل يوم الأسعار والدولار طالعين السماء، ليه؟، قالوا السوق حر، السوق حريته مباحة وحرية الكلام ممنوعة، لأنه الرأسمالية الطفيلية، مصاصي الدماء والنظام حاجة واحدة، السوق مليان بضائع، ولكن الناس تأكل بعيونه، الجنيه فالصو، الدولة عاجزة عن تقديم أبسط الخدمات للمواطن، مع الفقر تأتي المصائب، جهل، انحلال اجتماعي، ضياع، إجرام، فساد، مخدرات، يعني خلاص البلد عيها العوض، راحت مع أمات طه).

اغتنم غوغل الفرصة، لازم يقدل في الصفقة، خاطبهم بحنجرته الخشنة قائلاً:

(يا أخوانا هوي سمعتم بحاجة اسمها قمع ثقافي، معناه يريدونا بدون عقل، بدون تفكير، نرى ما يرون، نحب ما يحبون، نكره ما

يكرهون، نفكر كما يفكرون، ونشعر كما يشعرون، طيب في حاجة ثانية اسمها قمع إعلامي، يعني صحف إذاعة، تلفزيون، وكالات أنباء، يتم تشغيلها من بعيد، أبواق، طبول تطبل لحكومة استبدادية، الأجهزة الأمنية تدير كل ما يمكن أن ينشر أو يقال، وحاجة ثالثة ربنا يذكرني ليها ما أنساها، قمع سياسي، وده بيت الكلاوي، مرافق الدولة موجهة لخدمتهم، موظفو الدولة طائعين أو مكرهين ينفذون لهم ما يريدون، وإلا سيوف عزل، نقل، وتهميش مرفوعة فوق رؤوسهم، الأحزاب السياسية المعارضة، يفكوها، ويلعنوا خاش أبوها، ويصنعوا أحزاب كرتونية جديدة تحت رعايتهم وتأتمر بأمرهم، يحشدون مواطنين فقراء وسذج في مواكب تأييد هزلية، ويشترون ذمم فقراء ومحتاجين بحفنة من جنيهات وأكياس أرز، دقيق، وسكر).

إسيتيذ، في قرارة نفسه، يشعر أنه لا بد له من توضيح أبعاد ما يجري لعامة الناس، إن كان لا يستطيع المشاركة في المظاهرات فليساهم على الأقل في إيقاظ الوعي الشعبي، خاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا لكي ما تكتمل الصورة عندكم لسه هناك أنواع قمع أخرى أدخلوها علينا لم نكن نعرفها من قبل؛ قمع قضائي، محاكم متخصصة، محاكم طوارئ للأسواق، للكهرباء وخلافه، محاكم نظام عام سمعتها سيئة، يعني قضاء غير مستقل، أداة طيعة في يد النظام، يفرم الناس فرم؛ قمع تشريعي، وما أدراك ما هو، برلمانات تشريعية ما أنصفت مواطنا، ولا رفعت عنه ظلماً، أداة من أدواتهم يستخدمونها لتمرير سياساتهم وتقنين سلطاتهم، ولسه سلسلة القمع طويلة؛ قمع حريات، تكميم أفواه، انتخابات مهزلة، مسرحية تزوير لإرادة شعبية؛ قمع إداري، الجهاز الإداري في المدن والأرياف خرب، مرتشي، وفاسد، مسخر لخدمتهم، يلعب دوراً في أعمال القمع والاعتداء على المواطنين، وسلبهم حقوقهم؛ ونوع ثاني قمع كرامة المواطن، مواطن بلا كرامة يقبل بتمييز في حقوق وواجبات، بين من هو غني ومن هو

فقير، من هو منتمي وغير منتمي لحزب حاكم، وأخيرا يا محترمين في زمن قل فيه الاحترام؛ قمع نقابي، تشريع قوانين نقابية مهببة تخدم أهدافهم، وإزاحة كوادر نقابية متمرسة، تسريحها من الخدمة، واستبدالهم بموالين يبصموا وخلاص).

خاطبتهم بصوت ضعيف بنبرة حزينة امرأة مسنة واقفة في الصف قائلةً:

(وصلنا لحالة لا يعلم بها إلا رب العالمين، في سني دي يوقفوني في الصف لي شنو؟ لولا الحاجة وقصر اليد والله ما أقيف، زمنا يا حليله، المرأة زي الذهب، زمنكم كعب، المرأة أرخص من الصفيح، ومن الصفر، الله يكون في عونكم، ويغير حالكم، ويشيل الظالمين من على وجه الأرض، ويهدي تجار الحيرة الجشعين).

وصل في هذه اللحظة التاجر غير الجشع، بسيارة نصف نقل بصحبة عماله، نزلوا من عليها معززين مكرمين مرفوعي الرؤوس بوجوه مسفرة، فتح صبيانه الأبواب، دخل معلمهم أولاً ثم تبعوه، وفي لمحة من بصر انتظم صفان متوازيان، حريم من جهة اليمين، ورجال من جهة اليسار، لغطهم يدور حول ما هم فيه من كرب وضيق ونكد، وحول مظاهرات يأملون ويحلمون أن تأتيهم بخلاص مما هم فيه.

بدئوا في الزحف كسلاحف وهم صامتون كأنما على رؤوسهم تحط غربان شؤم، صف الرجال يتحرك بوتيرة أسرع من صف النساء، لأن النساء يُذْمِن الثرثرة، وكل ما في المتجر من سلع لن تملأ أعينهن، ولا يعجبهن العجب ولا الصيام في رجب.

شرد إسيتيذ لأن هذه هي فطرة الله التي فطره عليها عندما يعمل تفاعل كيميائي في داخله، استجابة لمحفزات خارجية قوية:

(شرد في ما جرى في سوريا من أحداث احتجاجية، شباب وشيوخ يحملون سلاحاً، ما جرى في تونس، ثورة اندلعت جراء إحراق محمد البوعزيزي نفسه احتجاجاً على أوضاع معيشية واقتصادية

متردية، منعته من تأمين قوت عياله، انتشار فساد، ركود اقتصادي، سوء أحوال مَعيشية، تضييق سياسيّ وأمني، وعدم نزاهة انتخابات، كل ذلك دفع التونسيين للإطاحة بمستبد غاشم؛ ما جرى في مصر، اندلعت المظاهرات تنديدا بقمع الشرطة، قانون طوارئ، بطالة، مطالبة برفع الحد الأدنى من الأجور، أزمة سكن، ارتفاع أسعار مواد غذائية، فساد، وسوء ظروف معيشية، كلها دفعت المصريين للإطاحة بمستبد ماكر؛ ما جرى في ليبيا، اندلعت الاحتجاجات لسوء أحوال سياسية واقتصادية، عنف وتكميم أفواه، وغياب دولة القانون، دفعت الليبيين للإطاحة بملك ملوك أفريقيا؛ ما جرى في اليمن السعيد، احتجاجات تندلع بسبب البطالة، ظروف اقتصادية سيئة، فساد، وتغيير الدستور، دفعتهم للإطاحة بحاكم متجبر متسلط؛ ما جرى في الجزائر، اندلعت احتجاجات بسبب، مطالبة الرئيس ونظامه بالعدول عن ترشحه لعهدة جديدة، وتحسين الوضعية المعيشية دفعت الجزائريين للإطاحة بحاكم بلغ من العمر عتيا؛ وما يجري في بلده احتجاجات اندلعت بسبب، قمع واستبداد، معاناة من فقر، جهل، سوء أوضاع معيشية، فساد سياسي وإداري، تسلط، انتهاك حقوق إنسان، وارتفاع أسعار، كلها دفعت الناس للسعي الجاد للإطاحة بحاكم طاغية، ليلحق غير مأسوف عليه بمن سبقوه من طغاة مستبدين).

هزه غوغل من كتفه هزةً خفيفة، أيقظه من شروده، خاطبه منبها قائلاً:

(أعمل حسابك يا بطل، دورك قرب، أمامك شخص واحد فقط).

خرج من شروده ورد قائلا:

(الحمد لله قربنا نرجع إلى بيوتنا سالمين غانمين، نحط رجل فوق رجل، نتناول لقمة فطور بمزاج رائق، يا علي الجوع كافر بن كافر).

بدون مقدمات أو إنذارات اشتعلت النيران في إطارات سيارات، أغلقت الشوارع بمتاريس، صدحت الحناجر بهتافات (سلمية، سلمية،

ضد الحرامية)، (الشعب يريد إسقاط النظام) خرج صاحب المتجر على عجل، ركب سيارته واختفى مع أقرب منعطف، أغلق الصبيان أبواب المتجر واختفوا هم كذلك في صمت، تبادل الواقفون في الصفين النظرات البائسة وهم يندبون حظهم العاثر، ناداه غوغل بصوت أجش وخاطبه بلهجة ساخرة قائلاً:

(أمامك ثلاثة خيارات أحلاهم مر يا بطل، إما أن تحزم الجبة حول وسطك وتهتف وسط الذين يهتفون، وإما أن تعض طرف الجبة بأسنانك وتفِكْ البِيرَقْ وتعود خائبا إلى بيتك وتسمع من أم عيالك ما يسم البدن، وإما أن تبحث لك عن متجر آخر وتشتري بأسعار خرافية وتسمع منها ما يطَلِع الروح).

رد بنبرة حماسية قائلاً:

(يلا يا بطل (إلى الأمام معتدل مارش)، العدو من أمامنا والبحر من خلفنا، «أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» صدق الله العظيم).

دخلا وسط الأمواج الهادرة، هتفا مع الهاتفين حتى بحت الأصوات، لوحا مع الملوحين حتى تعبت الأيدي، ظهرت سيارات كروزر وهايلكس، وعلى متنها أهل خوذات، وأهل وجوه ملثمة، ظهرت وظهر معها دخان بمبان، وبدأ كر وفر.

خاطبه بعد تفكير عميق بلهجة جادة قائلاً:

(أها يلا يا حاج نعمل انسحاب تكتيكي).

رد بقلب لا يعرف الخوف بنبرة ثابتة قائلاً:

(يلا يا بطل، الشجاعة هي اتخاذ القرار الصائب حينما يحمى وطيس المعركة، القائد المحنك من يختار الانسحاب المناسب، في الوقت المناسب، حفاظا على قواته وعتاده).

وبالفعل غادرا أرض المظاهرة ولسان حالهما يقول: (إن غداً لناظره قريب).

(٥)

ما بعد طوفان

الاستبداد لفترة طويلة يعمي البصر، حراك شعبي في عنفوان مستمر، استمر لمئة وثلاثة عشر يومًا، أطول احتجاجات شعبية عرفتها البلاد في تاريخها الحديث، قادها جيل شباب يمثلون ثلثي سكان البلد، وُلدوا في ظل حكم مسْتبِد، تعامل في قمع احتجاجاتهم بعنف مفرط، شباب من الجنسين متحمسون وبإصرار مستميت ينشدون التغيير، لم يفت في عضدهم تقديمهم لأكثر من خمسين شهيدًا، لم يكسرهم الزج بآلاف منهم في معتقلات، لم يوهنهم تعرضهم لشتى أنواع التعذيب والانتهاكات؛ يوم السادس من أبريل هو نقطة تحول في مسار احتجاجاتهم، قرروا أن يتخذوا من الذكرى الرابعة والثلاثين للانتفاضة الشعبية التي أسقطت نظام نميري موعدًا يحتشدون فيه أمام مقر القيادة العامة للجيش، كنوع من الضغط على جيشهم للانحياز لثورتهم، حشود ضخمة، على نحو غير مسبوق، وغير متوقع، شاركت في هذه التظاهرة، ألهم ذلك قيادة الحراك إلى التحول لاعتصام في هذا المكان حتى يتحقق هدف إسقاط النظام، وذلك لما يحمله من رمزية في ضمير الشعب، ازدادت قوة الاعتصام بعد مساندة أعداد مقدرة من ضباط الجيش، رتب وسيطة وصغرى سارعت إلى حماية المعتصمين من محاولات أجهزة أمنية فض الاعتصام بالقوة، وصلت إلى درجة استخدام القوة بين الطرفين، كان ذلك بمثابة تحذير وإنذار بتفكك تماسك القوات المسلحة، فاقم من تعقيدات الوضع إصرار النظام وحزبه على ضرورة فَكْ الاعتصام بالقوة، وفي نفس الوقت كانوا يعدون لمسيرة مضادة للثورة، حَفَلَ مشهد الساعات الأخيرة بمفارقات غريبة، ظهر رئيس الحزب الحاكم المفوَّض في برنامج تليفزيوني على الهواء، قبيل ساعات من الإطاحة

بالنظام، لينفي بثقة إمكانية حدوث تغيير على نمط ثورتي أكتوبر وأبريل اللتان أطاحتا بنظامين عسكريين سابقين، معتبرًا أن معطيات ذلك غير واردة، لأن متغيرات كثيرة حدثت تجعل سياقات ما حدث في الثورتين السابقتين مختلفة تمامًا، لم تمض سوى أقل من خمس ساعات على هذا الحديث حتى كذَّب الواقع توقعاته، حدث التغيير بالفعل وبالطريقة النمطية ذاتها، وصل قادة الأجهزة الأمنية إلى قناعة بعدم جدوى سفك مزيد من الدماء، سقط النظام، تحت ضغط الحراك الشعبي، بإعلان منظومته الأمنية انحيازها للشارع في فجر الحادي عشر من أبريل ألفين وتسعة عشر، المفاجأة الوحيدة هي أن قرار إنهاء النظام اتخذته منظومته الأمنية نفسها التي استخدمها لقمع الاحتجاجات، إصرار الريس وقيادات حزبه على ضرورة فَكْ الاعتصام بالقوة كان سببًا مباشرًا لفقدانهم السيطرة على قادة أجهزتهم الأمنية والعسكرية، تقديرات هذه القيادات التي ضمت قادة الجيش، الشرطة، الأمن، وميليشيا الدعم السريع، أن فض الاعتصام بالقوة سيكون دمويًّا وبكلفة عالية في الأرواح، استقر قرارهم على عدم الاستجابة لأوامر الريس، اتفقوا على عزله، وتنصيب مجلس عسكري بقيادة نائبه الأول ووزير دفاعه، الخميس الحادي عشر من أبريل سرت الأخبار بين الناس بأن مجموعة من الضباط دخلوا مبنى الإذاعة وطلبوا من العاملين ضم جميع الموجات العاملة، بدأت الإذاعة في بث الموسيقى العسكرية، وتكرار الإعلان عن أن القوات المسلحة سوف تذيع بيانا هاما بعد قليل، فهم الناس الرسالة، عرفوا أن النظام يلفظ أنفاسه الأخيرة.

تحول نادي الأماسي إلى نادي صباحات، تقاطر إليه أعضاء قدامى وآخرين جدد، القدامى جلسوا على البلوك والحجارة والصناديق الفارغة، والجدد وقفوا على أرجلهم وهم يسندون ظهورهم على حائط المبكى.

هتف غوغل بصراخ هيستيري قائلاً:
((بن علي هرب، بِشَة سقط)، (بن علي هرب، بِشَة سقط)، (بن علي هرب، بشة سقط)).
رد بوعلي متسائلا:
(فهمونا يا خوانا الحاصل شنو؟).
رد إسيتيذ بنبرة فرحة قائلاً:
(الحكاية لا تحتاج سؤال ولا جواب، الشعب كتب شهادة وفاة لنظام مات منذ زمن بعيد، نظام سقط، سقط، بس كان منتظر أمر الله).
رد أحد الواقفين قائلاً:
(أنا غير مصدق لما يحدث، هل نحن في يقظة أم منام، الإنقاذ بجلالة قدرها، بجبروتها، وهيمنتها، وسطوتها، وقوة عين صقورها، وأسودها، وثعالبها، تنهار في لمح البصر، كأن لم تكن، سبحان الله، سبحان مغير الأحوال، آمنت بالله «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» صدق الله العظيم).
أقبل من جهة شارع الإسفلت أحد عمال البقالة، ملوحا بيديه في نشوة جارفة، وهو يهتف بفرح غامر:
(سقطت، سقطت، سقطت، سقطت يا كيزان).
خرجت الأصوات متزامنة، تسأل في لهفة:
(ماذا وراءك؟ الشارع كيف؟ الدنيا كيف؟).
رد بلهجة لا تخلو من توبيخ وعتاب قائلاً:
(البلد كلها في الشوارع، هجيج شديد، وأنتم قاعدين زي المعيز تتفاصحون).
هتف إسيتيذ بنبرة ثائرة قائلاً:
(يلا يا أخوانا اليوم يوم وطن، اليوم يوم نصر عظيم، يلا نفرح مع الفرحين، نغني مع المغنين، نرقص مع الراقصين، والله إنه لنصر مهره غال، مهره أرواح، دماء، دموع، أنات، وآهات).

تقدم غوغل الركب الميمون، عفروا شوارع الحارة بالتراب والغبار، أنشدوا بصوت قوي جبار:
(وكان في الخطوة بنلقى شهيد
بدمه يرسم فجر العيد).
ردد الباقون في زهو، وشمم، وفخار:
(العيد... العيد...العيد).
غوغل منشدا:
(وكان القرشي شهيدنا الأول وما تراجعنا
نذرنا الروح مسكنا دربنا).
رددوا في نشوة بالغة:
(دربنا... دربنا... دربنا).
غوغل منشدا:
(وهزمنا الليل هزمنا الليل والنور في الآخر طل الدار
وهزمنا الليل هزمنا الليل والعزة اخضرت للأحرار).
رددوا في قوة وجسارة:
(للأحرار...للأحرار...للأحرار).
غوغل منشدا:
(لما يطل في فجرنا ظالم نحمي شعار الثورة نقاوم
ونصبح صفوف تمتد وتهتف لما يعود الفجر الحالم).
رددوا في زهو وبأمل باسم:
(الحالم... الحالم... الحالم).

ههنا وصلوا نهاية الشارع، طلوا على شارع الإسفلت، يا للروعة، شاهدوا جموع المواطنين تملأ الشارع، رجال وشباب وصبية يهتفون ملئ حناجرهم، يلوحون بالأعلام، النسوة يزغردن في طلاقة، السيارات تزحم الشوارع، أبواقها تملأ الفضاء ضجيجا، كرنفال ما بعده كرنفال، وطن في حالة فرح حقيقي غير مصطنع، مواكب هادرة

تقطع الإسفلت جيئةً وذهابا، يحملون طبولاً ومزاميراً، يرددون (سقطت، سقطت يا كيزان)، جموع غفيرة راجلة، وجموع تتزاحم على متن شاحنات، دفارات، حافلات، ركشات، وتوك توك، يهتفون: (إلى القيادة حتى النصر، إلى ساحة الاعتصام حتى النصر).
دخلوا في وسطهم، دفعهم سيل بشري جارف إلى أن يكونوا في جوف بحر موكب عظيم، أمواجه متلاطمة هائجة هادرة:
(سقطت، سقطت يا كيزان
سقطت، سقطت يا كيزان
سقطت، سقطت يا كيزان).

وبعد أن بذلوا جهداً جهيداً، ونال منهم تعب، عطش، وجوع نيلا عظيما، التجأوا إلى ظل شجرة نيم كبيرة تحتها سبيل ماء، سألوا الناس من حولهم:
(هل أذيع البيان؟).
أتاهم رد غاضب:
(لا بيان ولا يحزنون).

مضى وقت طويل ولم يذع البيان، شعر الناس أن هناك شيء غير عادي يجري في الخفاء، سرت إشاعات بوجود صراع عميق بين رتب متوسطة وصغار ضباط يميلون للثورة، ورتب عليا يميلون للنظام.

حانت ساعة إذاعة البيان، تزاحم إسيتيذ ورفاقه مع مجموعات أخرى من المتظاهرين أمام دكان حلاق وضع جهاز تلفازه خارج محله، تساءلوا فيما بينهم:
(من هو الذي سيذيع البيان؟).
رد أحدهم بلهجة ساخطة:
(سيذيعه وزير دفاع النظام).
صرخ عظمة بلهجة غاضبة قائلاً:

(بيان كلام فارغ، في كلام فارغ، لا يعبر عن الثورة، ما عملنا أي حاجة، هُمّ، هُمّ، ذهب بشّة وجاء بشّة ثاني).

بدأ إسيتيذ ورفاقه رحلة العودة إلى بيوتهم، بإحساس ناقص بالنصر، وهم في الطريق ترددت على أسماعهم عبارات رفض للبيان جملةً وتفصيلا، ورفض لوزير الدفاع الذي قدمه، قالوها بقوة: (ثورتنا مستمرة، النصر لم يأت بعد، عائدون، عائدون لساحات النضال عائدون).

سكتت أصوات الناس وأبواق السيارات، نكست أعلام، انهمرت دموع، انحسرت ابتسامات وجوه، تحول سرادق الفرح الجماهيري إلى سرادق عزاء، حشود هادرة غاضبة أحاطت بالقيادة العامة، طالبت برحيل قائد الانقلاب وتسليم السلطة إلى حكومة مدنية، ومحاسبة رموز النظام، رددوا شعارات جديدة (باقون في الاعتصام حتى اقتلاع النظام)، (شالوا حرامي وجابوا حرامي)، (شالوا وداد وجابوا أماني زي ما سقطت تسقط ثاني)، (البيان مرفوض مرفوض)؛ أتت أخبار بأن قادة من الجيش يحاولون فتح باب حوار مع المعتصمين في ساحة الاعتصام، فشلت محاولاتهم المتكررة، اعتصم المعتصمون في عدد كبير من المدن، كسلا، الجنينة، بورتسودان، ود مدني، القضارف أسوةً بالمعتصمين في الخرطوم، وبالرغم عن شعور عام بحالة من إحباط وبأن الثورة ناقصة والطريق أمامها ما زال شاقا وطويلا، إلا أنهم شعروا بأنه قد تحققت بعض المكاسب: وضع نهاية لحكم فاسد، اطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين والنشطاء، فتح مواقع التواصل الاجتماعي مرةً أخرى بعد حجبها، وإطلاق حرية الصحافة.

ثم توالت الأحداث بسرعة عجيبة، في الداخل الثوار رفضوا تماما البيان، لأنهم يعتبرونه محاولة لإعادة إنتاج واستنساخ نظام بائد من جديد، والإبقاء على دولته العميقة، وأن النظام هو منفذ هذا الانقلاب العسكري، ودليلهم على ذلك أن القيادات العسكرية التي تصدرت المشهد كانت قبل ساعات جزءاً منه؛ الثورة لم تصل بعد إلى مبتغاها لأن مطلبها الأساسي فترة انتقالية بقيادة قوى مدنية، ولذلك يجب مواصلة النضال؛ زعيم حزب الأمة أعلن عن نيته إمامة صلاة الجمعة في ساحة الاعتصام أمام القيادة، قيادة ميليشيا الدعم السريع أعلنت رفضها لأية حلول لا ترضي الشعب؛ في الخارج طلبت الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن لمناقشة الوضع في البلاد؛ البريطانيون مع الانتقال الكامل والسريع نحو حكم مدني، الروس مع الحل الديموقراطي للأزمة، الاتحاد الأوروبي، تركيا، قطر، المفوضية الأوروبية، ومنظمة (هيومن ووتش) كلها دعت إلى الاستجابة لمطالب الشعب؛ الأمم المتحدة طالبت بتسليم الريس لمحكمة الجنايات الدولية، الخارجية الأمريكية قالت: (ما حدث في السودان لحظة تاريخية لشعبه)، صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية كتبت: (على ترامب أن يعلم أن ما حدث في الجزائر والسودان يدل على أن الدعم الأعمى للمستبدين العرب رهان سيء).

عقد في نفس اليوم أول مؤتمر صحفي للمجلس العسكري، أكد فيه عدم وجود أي تنسيق بينهم وبين النظام البائد، وأنهم يقومون بالتغيير استجابةً لطلب الشعب للجيش للوقوف إلى جانبه، وأنه ليس لديهم أي طموحات في الحكم، دعوا المعارضة للجلوس وتشكيل حكومة مدنية تشمل جميع الحقائب، ما عدا الدفاع والداخلية؛ المعارضون على وعي تام بعبر ودروس التاريخ بأن العسكر لا أمان لهم ولذلك أصروا على الإبقاء على الاعتصام إلى أن تتفق كافة

أطراف المعارضة على الرد على ما جاء في المؤتمر الصحفي، وكنوع من إبراز العضلات أعلن الجيش أنه سيفرض حظر التجوال ليلا بالقوة، وفي المقابل أعلن المعتصمون أن اعتصامهم سيظل متواصلا في تحد سافر لهذا القرار.

سمع أعضاء نادي الأماسي الحالمة في نفس اليوم إشاعات بحدوث انقلاب جديد، توافدوا مبكرين على ناديهم، جلسوا جلستهم المعتادة فوق بلوك، حجارة، وصناديق فارغة وهم في حالة ترقب لما سيسفر من أحداث؛ قبل الدخول في أحاديث الساعة جاءهم عامل البقالة، لا شغل له في غياب زبائنه سوى النظر في شاشة جهاز تلفازه الأبيض في أسود، أخبرهم بأن بيان رئيس المجلس العسكري الانتقالي بعد قليل.

هتف إسيتيذ قائلا:

(يلا يا أيها الثوار الأحرار إلى تلفزيون البقالة، الله يستر، الله يكذب الشينه، الله يجيب العواقب سليمة).

أعلن رئيس المجلس الانتقالي في بيان مقتضب التنازل عن منصبه واستقالة نائبه وعين بدلاً عنه جنرالاً آخر.

هتف غوغل في فرح غامر:

(يلا يا أيها الشباب إلى شارع الإسفلت).

على العكس من البيان الأول برز اسم جديد لقيادة المجلس العسكري من خارج رموز النظام السابق، يتمتع بقبول من الشارع، بلغ الفرح في شارع الإسفلت مبلغا عظيما، عاد الثوار إليه بأعداد أكبر من ذي قبل، علت هتافاتهم مرةً أخرى (ثوار أحرار ح نكمل المشوار)، (يومين سقطنا اثنين)، (حرية سلام وعدالة والثورة خيار الشعب).

ثم تواترت الأخبار، الفرح يعم كافة أنحاء البلاد، جابت المواكب الليلية الشوارع، علا صوت أبواق السيارات والهتافات في العاصمة والولايات مرةً أخرى، الجماهير فرحة، غاية الفرح بنزول زخات أمطار الحرية بعد ثلاثين سنة من قحط وجدب ومحل.

أعلنت المعارضة أن ما تم خطوة إلى الأمام، ولكنها ليست كافية، وأن مطالب الجماهير لم تتحقق بعد، ومطالبهم محددة في مجلس مدني بمشاركة عسكريين، تقليل فترة المجلس من عامين، إلغاء قوانين الطوارئ وحظر التجوال وإطلاق الحريات، والجماهير تظل باقية في الشارع إلى أن تتحقق هذه المطالب؛ أصدر قائد ميليشيا الدعم السريع بيانا أكد فيه انحيازه لثورة الشعب، وحوى بيانه خارطة طريق لمستقبل العمل السياسي في السودان، وعدم مشاركتهم في مجلس عسكري إلى حين الاستجابة لمطالب الشعب والبدء في الخطوات الواردة في خارطة الطريق.

رئيس المجلس الانتقالي الجديد أعلن في بيانه الأول إلغاء قانون الطوارئ وحظر التجوال، اطلاق سراح جميع المعتقلين خلال الاحتجاجات على نظام الحكم البائد، دعا كل أطياف المجتمع السوداني من أحزاب ومجتمع مدني إلى الحوار مع التزام المجلس بفترة انتقالية مدتها كحد أقصى عامان تفضي إلى حكومة مدنية، وقف اطلاق النار في كل مناطق السودان، التعهد بملاحقة كل المسئولين عن الفساد، محاكمة كل من تورط في قتل الأبرياء، العمل على إعادة هيكلة مؤسسات الدولة المختلفة وفق القانون، وأن مهمة المجلس تتمثل في إنفاذ القانون وتهيئة المناخ السياسي بما يفضي إلى انتقال السلطة، وأثنى على شباب الحراك، ووعيهم الثوري، وتمسكهم بالسلمية، ودعا الجميع للعودة للحياة الطبيعية.

دعا التجمع المواطنين إلى مزيد من التوافد إلى ميادين الاعتصام في كافة أنحاء البلاد وذلك كضمان لحماية الثورة، ووافق مع تحالفات المعارضة على الجلوس وإجراء حوار مع المجلس حول الانتقال إلى سلطة مدنية.

عاد أهل النادي الحالم إلى ناديهم، وبعد أن طاب لهم الجلوس فوق حجارتهم وبلوكهم وصناديقهم خاطبهم إسيتيذ بنبرة فرحة قائلاً:

(نعم هدأت النفوس قليلا، ولكن الرؤية ما زالت يكتنفها كثير من غموض، ويحيط بها كثير من مخاوف، العسكر هم العسكر، تفكيرهم واحد وتربيتهم واحدة، وتاريخهم لا يبشر بخير).

رد غوغل بنبرة لا تخلو من عدم رضا قائلاً:

(يبدو أن الحل التوافقي هو الحل الوحيد المتاح في الوقت الحالي أمام كل الأطراف، مدنية مائة في المائة بعيدة المنال، وعسكرية مائة في المائة مستحيلة في الظرف الراهن، وما علينا إلا نقبل مجبورين بما يجري باعتباره تحركًا عسكريًّا انحاز لثورة شعب، وليس انقلاب قصر).

رد بوعلي بلهجة حاسمة قائلاً:

(أسمعوا كلامي جيدا، العقدة كلها تتمثل في ميدان الاعتصام، هذا الميدان الذي أصبح رمزاً للثورة، أصبح موطناً للإبداع، أصبح شعلةً للحرية، أصبح مزارا يشد إليه الثوار الرحال، أصبح بوتقةً ينصهر فيها كل أهل السودان بلا تمييز، من يسيطر على هذا الميدان يسيطر على البلاد، ولذلك فهم النظام البائد هذه العقدة وحاول حلها بفض الاعتصام بكل ما يملك من حيل، دسائس، مؤامرات، وحلول أمنية، كلها باءت بالفشل، والآن سيسعى العسكر الذين ورثوا النظام البائد بكل ما أوتوا من قوة فض الاعتصام ليسهل عليهم بعد ذلك فرض الأمر الواقع على المدنيين، وطبعاً هناك عدد هائل من المدنيين، أنصاف مثقفين، سبب كل المصائب التي عصفت بالبلاد، ضعاف نفوس، ينتظرون إشارة من إصبع العسكر، ليهرولوا إليهم ليكونوا لهم خداماً أوفياء).

هب إسيتيذ واقفا، عدل نظارته، ثم خاطبهم بحسرة قائلاً:

(والله إني لأخشى على ثورتكم من مصير ثورات الربيع العربي، يعود العسكر متحالفين مع الثورة المضادة، يعودون كأسوأ ما يكون، يقتلون من يقتلون، يذبحون من يذبحون، يسجنون من يسجنون، يصادرون الأموال، يسنون قوانين محاربة الإرهاب، وما الإرهابيين إلا كل من يقول في وجههم لا، ثم ماذا ستكون النتيجة؟ الثوار الذين يصنعون الثورة تضيق بهم السجون، وأنصار النظام البائد يعودون كأحسن ما يكون).

رد غوغل بنبرة مازحة قائلاً:

(يا فردة يا أستاذ أين التفاؤل؟ ما بك اليوم؟ ماذا أصابك؟ ما كنا تمام التمام، نحلم كما نشاء، نردد بلا تحفظ (حرية مدنية والثورة خيار الشعب)).

رد قائلاً:

(ماذا تتوقعون من شعب أدمن النسيان، ومن معارضة أدمنت حب الكراسي، ومن عسكر أدمنوا حب السلطة؟).

(٦)

فض الاعتصام

حاول إسيتيذ بعين المراقب الحصيف أن يقرأ قراءة جيدة الأوضاع السياسية التي تدور في بلده، العسكر بعد مضي بضعة أيام على سقوط النظام البائد حاولوا تقوية مركزهم وتعزيز سلطتهم كنظام بديل، خاصة بعد حصولهم على اعتراف وتأييد دولي وإقليمي واسع، وتلقيهم عروضًا عديدة بالمساعدات الاقتصادية العاجلة من بعض دول الإقليم، غير أنهم اصطدموا بعقبة الحصول على الشرعية الشعبية الشاملة التي حاولوا التمهيد لها بشكل أو بآخر، وجود اختلافات وتباينات واسعة بين القوى السياسية التي تتصدر المشهد حول دور العسكر، منهم من يرفضون ابتداء أي دور لهم في إدارة الفترة الانتقالية ويطالبون بتشكيل مجلس سيادة، وحكومة مدنية لإدارة البلاد لفترة انتقالية مدتها أربع سنوات، منهم من يدعون إلى تشكيل مجلس انتقالي مختلط من عسكر ومدنيين، ومنهم من يدعون إلى مواصلة الاعتصام لحين تسليم العسكر السلطة للمدنيين، الحالة الاقتصادية في البلد في غاية السوء، البلد يعاني من نقص حاد في العملة الصعبة، الناس يعانون من شح في الدواء وغلاء في الأسعار، البلد يحتاج إلى اتفاق يقطع الطريق على حدوث السيناريوهات السياسية والاقتصادية التي شهدتها دول الربيع العربي.

زاد تجمهر مئات الآلاف من الثوار في شوارع العاصمة، زادت كثافتهم بعد وصول قطار عطبرة وعلى متنه من جاءوا لرفع المعنويات وممارسة ضغوط أكثر على المجلس العسكري، ثم انضم عدد من القضاة للاحتجاجات لأول مرة وطالبوا بمحاكمة السلطة الحاكمة لمسؤوليتها عن مشاكل البلاد، بعد اشتداد الاحتجاجات حاول العسكر عقد اجتماعات مع قادة المحتجين، اتفق الطرفان على تشكيل

لجنة مشتركة مهمتها وضع خارطة طريق لمستقبل البلاد، اتهم تجمع المهنيين العسكر بمحاولة فض الاعتصام بعد فشل جولة ثالثة من المفاوضات، تنظيم مليونية السلطة المدنية للمطالبة بتسليم السلطة للمدنيين، تواصل الاعتصام مع تواصل اللقاءات بين الطرفين، ظهرت الحواجز المتاريس في الشوارع، أحجار كبيرة، مخلفات وأنقاض مباني قفلت الطرق ومنع عبور السيارات، وقعت اشتباكات بين المحتجين والقوات الأمنية بسبب محاولات إزالة الحواجز وفتح الطرق، أرادت قوة من الميليشيا فتح شارع النيل مما أدى لإطلاق النار على المحتجين ووقعت إصابات، تجدد اطلاق النار على المعتصمين للمرة الثانية، في الأولى قتل خمسة وجرح أكثر من مائتين، في الثانية أصيب ثمانية بإصابات خطيرة.

عقب صلاة الفجر يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان الكريم الموافق الثالث من يونيو قام أحد المصلين نبههم إلى أن قوات مسلحة استخدمت الأسلحة والغاز المسيل للدموع لفض الاعتصام بالقوة، دعاهم أن يرفعوا أكفهم بالدعاء أن يحفظ الله البلد ويحفظ الثوار المعتصمين من كيد الظالمين الذين يغدرون بهم الآن، دار لغط داخل المسجد، تعالت أصوات، من يقول: (يستحقون العقاب، هؤلاء ليسوا بثوار، هؤلاء صعاليك فاسدون، حولوا ساحة الاعتصام مكاناً لممارسة كل شيء قبيح، مكاناً للفوضى)، ومن يقول: (لا بد للدولة من أن تفرض هيبتها)، ومن يقول: (اتقوا الله في هؤلاء المعتصمين، شباب، ثاروا لأجلكم، شعارهم حرية سلام وعدالة)، ومن يقول: (شعب عجيب أدمن العبودية)، دار رأسه من هول الصدمة، اصطكت قدماه من هول المفاجأة، وقف شعر رأسه من هول الكارثة، بقلب يعتصره ألم وحزن عميق، وبشعور بأن الثورة في كف عفريت جرجر ساقيه الراجفتين وانسل من بوابة المسجد وهو بين مصدق ومكذب، شغل التلفاز، قناة الجزيرة تعرض الأحداث حية، أرض الاعتصام تغطيها

مياه المطر، متوحشو ميليشيا الدعم السريع، مسلحون، حاملو عصي وسياط يجوبون الساحة، يطئون بأحذيتهم جثثاً مرمية هنا وهناك، لا حرمة لإنسان اليوم، يحطمون كل شيء، يحرقون كل شيء، ألسنة الدخان تتصاعد في المكان، المعتصمون يهربون على غير هدى في كل الاتجاهات، حشود الثوار تأتي من أحياء العاصمة القريبة من المكان، للذود عن إخوتهم الذين يواجهون خطر الإبادة، تتصدى لهم القوات الأمنية التي أحكمت إغلاق كل المداخل بشراسة وتجبرهم على التراجع، النتيجة أكثر من ألف قتيل، اغتصابات أكثر من سبعين حالة، مفقودين لا يعلم عددهم إلا الله، إخفاء معالم الجريمة برمي أكثر من أربعين جثة في النهر، بعد ربطها بأثقال حتى لا تطفو، قطع كامل للإنترنت عن البلاد لخلق تعتيم إعلامي وطمس حقيقة المجزرة التي تمت بتدبير مسبق.

يا الله، كأنما يحمل الكرة الأرضية فوق رأسه، كأنما كل هموم الإنس والجن والدواب تصطرع في داخله، وأسئلة حائرة كالسهام ترشق ذهنه، هل ما جرى حدث في أرض السمر التي يعرفها؟، هل من نفذوه ينتمون إلى السمر الذين يعرفهم؟، هل من نفذوه مسلمون ينتمون إلى الدين الذي يعرفه؟، هل من نفذوه صائمون يصومون رمضان الذي يعرفه؟، هل من نفذوه يخشون الله الذي يعرفه؟، قال في نفسه:(من الخير لي ألا أتعب حالي في البحث عن إجابات، ربما أجد بعضها عند أحبابي في نادي الأماسي الحالمة).

سبحان الله، كأنهم سمعوا طبول الحرب تدق في غابات استوائية، وجدهم بعيون متورمة، بوجوه متعكرة، بأنفاس لاهثة، بأعصاب متوترة، يجلسون على صناديق فارغة وحجارة ورمال ألفتهم وألفوها.
بعد أن حياهم سأل قائلاً:
(كلامي في محله، ولا لأ، العاضُه الدبيب يخاف من جر الحبل، أها الفأس وقعت في الرأس).

رد غوغل بنبرة متنرفزة قائلاً:
(الحكاية دي ما مفهومة، نفس الطريقة التي تم بها فض اعتصام رابعة في مصر طبقوها هنا بحذافيرها، يا أخوانا شفنا في التلفزيون بعيوننا التي سيأكلها الدود كل شيء، شيء لا يتصور، نفس فلم الإبادة الذي حصل في دارفور كرره همج الميليشيا هنا).
رد بوعلي قائلا:
(بعدين حكاية كولومبيا دي شنو، شابكننا، فالقين رأسنا، كولومبيا، كولومبيا؟).
رد عظمة قائلاً:
(يا أخي كولومبيا دي منطقة عشوائية معروفة، متاخمة لمنطقة الاعتصام من الناحية الشمالية، أسفل كبري النيل الأزرق، كل الممنوعات عياناً جهاراً فيها، تجارة خمور بلدية، تجارة مخدرات، وتجارة جنس كمان، جاذبة للشباب الساقط بدرجة عجيبة، قانون ما في، أخلاق ما في، دين ما في، أثناء ساعات الليل صوت الرصاص يلعلع).
رد بوعلي بنبرة ساخرة قائلاً:
(العسكر قالوا أصبحت تشكل خطراً على المواطنين، ومهدداً أمنياً، ظلت منذ فترة طويلة بؤرة فساد وممارسات سلبية تتنافى وسلوكيات المجتمع، يا سلام ما دام ده كله حاصل منذ فترة طويلة، أين كنتم، عميان ولا الحكاية فيها إنّ).
رد إسيتيذ قائلاً:
(كل الناس عارفين إنه كولومبيا منفصلة عن ميدان الاعتصام، يفصل بينهما شارع النيل، ولا تربطها أي علاقة بميدان الاعتصام، موجودة قبل الاعتصام بفترة طويلة، كانت سابقاً تمارس أنشطتها المدمرة في المنطقة جنوب السلاح الطبي بأم درمان، ثم أجبرتها السلطات على مغادرة هذه المنطقة، فانتقلت إلى أكثر من منطقة قبل مجيئها إلى هذا المكان).

رد غوغل قائلاً:

(يا أخوانا العسكر دايرين ليهم سبب، دايرين ليهم حجة تخلصهم من وجع الرأس الجنن بشه وجاب أجله، يلفقوا أي كلام وخلاص، يا دار ما دخلك شر، والدار دار أبونا والقوم حاربونا، ونحن مخيرين فيها، العاجبو عاجبو والما عاجبو في ستين ألف نيلة تأخذه، وتأخذ من خلفوه، بكل بجاحه قالوا إنهم رصدوا مجموعات منظمة ترتكب جرائم يحاكم عليها القانون، تدخل أسلحة نارية وبيضاء لساحة الاعتصام، وتحرض الشباب على العنف).

رد بوعلي قائلاً:

(يا أخوانا المثل بقول شنو: (المابدورك في نص البحر يقول ليك كتحتني بالتراب)).

رد السناري قائلاً:

(يا أخوانا دي المحاولة نمرة كم، قبل كده حاولوا يفضوه مرتين وفشلوا، المرة دي قالوا علَي وعلى أعدائي، أصلها بلد خربانة نخربها للآخر، والبسويه الله يسويه).

وهم في جلستهم تلك، لم يبرحوا مكانهم بعد، مرّ بقربهم خلودي يحمل كوريقاً مكسور العود، حياهم وابتسامته المعهودة قد فارقت وجهه، خاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا البركة فيكم وفينا، وربنا يتقبل الشهداء، يشفي الجرحى، يرد المفقودين، ويصبرنا ويصبر أهلهم على هذه الابتلاءات العظيمة).

رد عليه بوعلي قائلاً:

(نعم بالله، والمكتوب في اللوح المحفوظ لازم يحصل، ومالك حائم بحديدتك الشائلة دي؟).

رد قائلاً:

(يعني ما شائف المطر، خرب الدنيا، الما عنده كوريق وطأته أصبحت، التراب يملأ خشمه، خلونا من الكوريق عارفين العسكر

سووا شنو، أعلنوا إلغاء كل الاتفاقات التي جرى التوصل إليها مع قحت، وأنهم سوف يشكلون حكومة تكنوقراط، ويجرون انتخابات عامة خلال تسعة أشهر).

رد عليه قائلاً:

(ده خبر تجيبوا، كفاية علينا المجزرة، يعني دايرين يجزروا أي حاجة، تبقى علينا حكاية البشم الدم ثاني ما بقيف من القتل، يا قذاف الدم).

رد إسيتيذ بنفس مسدودة قائلاً:

(يا أخوانا أنا ما متشائم، ومؤمن بقضاء الله وقدره، ولكن ما حصل في ساحة الاعتصام، لم يحدث له من قبل مثيل في بلدنا الطيب، لن يمر مرور الكرام، آثاره سوف تظل باقية في نفوس الناس إلى أمد بعيد، هل نسي اليابانيون قنابل هيروشيما وناجا زاكي، هل نسي الصينيون مذبحة واغتصابات نانكينج، هل نسي الفلسطينيون مذبحة خان يونس، سوف تظل في النفوس إلى أبد الآبدين، لن تزيلها أي طبطبات ومسكنات، وأقول ليكم بصريح العبارة، الثورة ضاعت، التحست، العسكر ثعالب ماكرة، قحت لا دين ولا أيمان لهم يبيعوها في أقرب ملف،(اتلم المتعوس على خائب الرجاء) استودعكم الله، وربنا يكفينا شرهم).

جرجر رجلية في تثاقل، مشى نحو داره، تمدد فوق سريره، أغمض عينيه، اكتظ رأسه بصور شتى، مبعثرة، ممزقة، تقطر ألماً ودما (قابيل يشدخ رأس أخيه هابيل بحجر أثناء نومه تحت الجبل، دم سائل بين حصى وحجارة، حسد أسود جعل إبليس يغوي أبيه آدم في الجنة، أغواه ليقتل أخيه ليفوز بأختهما الحسناء، النفس البشرية أمارة بالسوء، تزين للناس سفك الدماء عمداً مع سابق تخطيط وإصرار، الرحمة المهداة طائف بالكعبة يقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما

أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خير)، لاجئون بوسنيون في بوتوتشاري، محاصرون داخل مقر الكتيبة الهولندية، مصنع إطارات قديم، ظروف قاسية شديدة الصعوبة، قليل من ماء وطعام، حرارة شديدة، وآخرون مشردون منتشرون في حقول ومصانع قريبة من المكان، ذعر وخوف يتملكان الجميع، هرج ومرج، دهس لأناس سقطوا، صربيون همج متوحشون، يشعلون النار في المنازل وأكوام القش، إعدامات جماعية رمياً بالرصاص، جثث مكومة، اغتصابات بالجملة، ذبح بالسكاكين لأطفال، لمسنين، لنساء، لذوي احتياجات خاصة، ترحيل قسري للناس من أماكن سكنهم، مقابر جماعية؛ تضخم رأسه بسؤال حارق، هل هذا الدم الذي يجري يغطي جسدي بالكامل يخرج من شراييني وأوردتي؟؛ قوات حكومة الهوتو وميليشيات عرقية تسحق متمردي التوتسي، تحريض على القتل من خلال الإذاعة، جلب أكثر من خمسمائة طن سكاكين، خناجر، ومناجل، مطاردات للتوتسي في الحقول والقرى، ذبح بلا رحمة، انتهاكات جسيمة منظمة ضد أي توتسي، فرق الموت تتحرك علناً، مقابر جماعية، تضخم رأسه أكثر وتمدد السؤال الحارق أكثر، هل هذا الدم الذي جرى وغطى جسدي بالكامل ويغطي الآن السرير الذي أرقد عليه يخرج من شراييني وأوردتي؟؛ إسرائيل تنتحر إذا أعادت اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، بدون تطهير عرقي لا يمكن لليهود أن يقيموا دولة في فلسطين، شيطنة الفلسطينيين وتجريدهم من إنسانيتهم باعتبارهم تهديدا ديموغرافيا بسبب معدلات ولادة عالية، حصار على غزة، تجويع، سوء تغذية، تقزم أطفال، إخضاع السكان

لنظام حمية يبقيهم أقرب للموت منهم للحياة، قطع خدمات مياه وكهرباء، غارات جوية تدك أحياءً سكنية بلا هوادة، تدفنهم أحياء تحت الأنقاض، تدمر كل شيء، تحوله إلى خواء وخراب، أسلحة محرمة دوليا، فسفور أبيض يفتك بالبشر، إجلاء وتهجير، حصار، قيود على حركة أشخاص وبضائع، سلب حق حرية التنقل، قتل باستخدام قوة قاتلة مفرطة، إعدامات خارج قضاء، سجن بدون تهمة أو محاكمة، تضخم رأسه أكثر وأكثر وتمدد السؤال الحارق أكثر وأكثر، هل هذا الدم الذي جرى وغطى جسدي بالكامل، ثم غطى سريري، ويملأ الآن غرفتي يخرج من شراييني وأوردتي؟؛ فجر السؤال الحارق رأسه، ماذا بقي من آخر الزمان؟ تطايرت الإجابات، لم تبق سوى علامات الساعة الكبرى، فشت معاصي، كثر قتل هرج وفتن، لا يدري قاتلٌ فيم قَتل، ولا مقتولٌ فيم قُتِل، خمور، عازفات، مغنيات، زنا، شذوذ جنسي، اضطرابات نفسية، كوابيس، شعور بعزلة، انزعاج، شعور بذنب، أرق، عدم تركيز، حزن، خوف، انفصال عن واقع، يقظة مفرطة، تكثف معتقدات سالبة، اندلقت دماؤه، ملأت ساحات بيته، ثم فاضت غطت الكون كله).

(٧)

اتفاق

بعد مجزرة فض الاعتصام، أعلن ريس مجلس العسكر إلغاء كل الاتفاقات التي جرى التوصل إليها مع قحت، عزم على تشكيل حكومة تكنوقراط، وإجراء انتخابات عامة خلال تسعة أشهر، بدأت حملة عصيان مدني، ونتيجة لضغوط خارجية، خصوصاً من آلية ثلاثية (اتحاد أفريقي، إيقاد، وبعثة أمم متحدة(ينيتامس)، عاد العسكر إلى طاولة المفاوضات مرة أخرى، وافق قادة الاحتجاج وقحت على مقترح الوساطة التي يقودها رئيس الوزراء الأثيوبي، لإبداء حسن النية وافق العسكر على إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، صرحوا بأنهم لم تكن لديهم الرغبة في فض الاعتصام وأن مجموعة متلفتة احتمت بميدان الاعتصام وأنه ستتم محاكمة كل من تثبت إدانته من العناصر النظامية، وافقت قحت على تعليق العصيان المدني والإضراب السياسي.

في ذلك المساء شعر إسيتيذ بانقباض، توتر، وبانحباس حراري نفسي، أصابه ملل من شاشة التلفاز التي لا تفتأ تكرر نفس الصور، ونفس الأحداث على مدار الأربعة وعشرين ساعة، لأن أخبار العالم تتغير ببطء؛ ملّ أحاديث البيت التي لا جديد فيها، ملّ منظر جدران جامدة لا توحي له إلا بفراغ يفضي إلى موت إحساسه بجمال الكون من حوله، لا حديقة عامة يذهب إليها، لا نافورة يستمتع بالنظر إليها وبالاستماع إلى ألحان خرير مائها، ولا شاطئ جميل يذهب ليتمدد على رماله في بلد يقطعه النيل من جنوبه إلى شماله، وسوس في نفسه: (أمامي خياران، إما سبات شتوي كضفدع محشور داخل جحر، وإما ذهاب إلى (نادي الأماسي الحالمة) أبكي مع الباكين على ربيع دنيا مات، وشبع موت).

حزم أمره، مشى بخطى هادئة نحو ناديه الحبيب، وكالعادة وجد أحبابه جالسون، يتحدثون في أمراض بلدهم التي أعيت المداويين، مدخنون ينفثون دخان سيجار رخيص في الهواء، سافو سعوط يضعونه تحت شفاههم أو يبصقونه كما يحلو لهم غير عابئين بحرمة مكان، تبادل معهم التحية، جلس على واحد من صناديق البيبسي الفارغة.

خاطبه غوغل بنبرة مازحة قائلاً:

(حسبناك هذه الأيام آخر شغل مع لجنة مقاومة الحارة).

رد بنبرة لا تخلو من عدم رضا قائلاً:

(الله يكون في عونهم، شباب ثائرون مجتهدون لا تنقصهم حماسة ولكن تنقصهم خبرة ودراية، لا يريدون الاستعانة بغيرهم، لأنهم يظنون أنهم قادرون على فعل كل شيء بمفردهم، ولا يحتاجون لمعونة أحد).

واصلوا حديثهم الذي انقطع، تنحنح السناري ثم خاطبهم بلهجة غير مرتاحة قائلاً:

(يا أخوانا المسألة ما مفهومة أبدا، النظام وعرفناه غار في ستين ألف داهية، العسكر والمدنيون لا يزالون يلتون ويعجنون، كل واحد فيهم يريد أن يلهف أكبر قدر من الكيكة، والثوار أهل الوجعة يتفرجون).

رد بوعلي بنبرة متبرمة قائلاً:

(القال ليك منو النظام القديم غار، العسكر ديل منو؟ كبر مخك يا رجل، أي ضابط في بلدنا دي يوم ما يركب دبورة، يشوف نفسه ممكن في أي لحظة يركب دبابة ويعلن نفسه ريس للبلد).

دنت منهم خطوات الفيلسوف وهو يجرجر رجليه حاملا ماعون لبنه، صمت لبرهة ليلتقط أنفاسه، تبادل معهم التحية، ثم خاطبهم بنبرته الساخرة قائلاً:

(حكايتكم حكاية، ناشفين ويابسين، ما عندكم غير أخبار ناس زعيط ومعيط، ما فيكم كدّة أبدا، بدلاً عن الحجارة والصناديق جيبوا كراسي جلوس، جيبوا ترامِسْ شاي وقهوة، خلوا قعدتكم تكون معتبرة ومحترمة شوية).

بدا جليا أن غريزة حب الجدال الكامنة فيه دفعته إلى الوقوف على مقربة منهم ليخوض معهم فيما يثيرون من أحاديث.

رد غوغل بنبرة باسمة قائلاً:

(يلا يا جماعة الكلام استوى، الكلام دخل الحوش، القاعد يدفع عشرين جنيه، والواقف يدفع عشرة ميزانية للشاي والقهوة).

رد عظمة بنبرة محتجة قائلاً:

(سيبونا من الكلام الفارغ ده، بقيت كمساري حافلة يا غوغل، بدون شاي وبدون قهوة نحن كده تمام التمام، لكن الطلع زيتي وطلعني من هدومي، حكاية إنه كل ما الشعب يعمل ثورة، العسكر يقفوا له في زوره، شوكة حوت لا تتبلع لا تفوت).

رد إسيتيذ بعد أن رفع نظارته من أرنبة أنفه بنبرة هادئة قائلاً:

(يا أخوانا كلام عظمة ده كلام مهم، ما تفوتوه ساكت، لازم ترجعوا لتاريخنا منذ الاستقلال، لتفهموا كيف العلاقة بين عسكر ومدنيين؟ الأمر ليس مجرد ونسه، التاريخ مفيد في فهم هذه العلاقة، التاريخ يقول هناك مصلحة متبادلة بين الاثنين في ممارسة أي عمل سياسي مشترك، تعلمون أنه بعد أقل من ثلاث سنوات من حصولنا على الاستقلال حدث انقلاب عسكري أول، وكان ذلك بداية الدائرة الخبيثة، (مدنية- عسكر- ثورة- مدنية)، بداية دخول العسكر ميدان السياسة، كان في واقع الأمر عملية تسليم وتسلم بين رئيس وزراء منتخب وقائد جيش، خاف رئيس الوزراء على حكومته من السقوط فآثر استدعاء الجيش لاستلام السلطة، ليسجل بذلك أول سابقة شكلت منعطفا خطيرا في مسيرة ديمقراطيتنا، بعد ست سنوات من حكمهم

هب الناس في ثورة شعبية عارمة أطاحت بهم (ثورة أكتوبر)؛ تحققت تلك الثورة بمساعدة عسكر تنظيم (الضباط الأحرار)، ساهموا في الثورة بضغطهم على كبار الجنرالات وبإجبارهم على التنازل عن السلطة لحكومة مدنية، جاءت حكومة انتقالية لأقل من سنة، كانت غير مستقرة بفعل صراعات بين أحزاب سعت كل منها لتحقيق أهداف ضيقة، استلمت السلطة حكومة ائتلافية بعد انتخابات عامة، في ظل صراعاتهم وانقساماتهم وضعف النظام الديمقراطي، بادر تحالف قوى يسارية ضم مدنيين وعسكريين إلى تمهيد تدخلاً ثانياً للجيش، حدث انقلاب مايو المشهور بقيادة عسكرية، وكما في سيناريو انقلاب عبود، نجح نميري في إبعاد شركائه من السلطة منفردًا بها؛ وتكرر سيناريو الثورة الشعبية مرة أخرى في أبريل، ولم تستطع الانتفاضة الإطاحة بالنظام إلا بعد انحياز العسكر لها، أداروا فترة انتقالية لمدة عام ثم سلموا السلطة بعدها لحكومة منتخبة، ومرة أخرى لم يستطع الحكم المدني الصمود لأكثر من ثلاث سنوات فقط، وسط صراعات مريرة، انقسامات، وعجز عن ترسيخ حكم ديمقراطي، وما في حد أحسن من حد دخل هذه المرة الإسلاميون، نفذوا انقلاب يونيو بقيادة عسكرية، وهكذا مدنيون ينادون عسكر، والعسكر يلبون النداء، وشعب طيب يهتف ويهلل ويكبر ويدفع الثمن، في النهاية أثبت العسكر أنهم أكثر توحدا و أكثر ذكاءً من المدنيين، انطبقت عليهم جميعا بلا استثناء مقولة تشرشل: (يعيد التاريخ نفسه لأن الحمقى لم يفهموه جيدا)).

ضحك الفيلسوف ضحكة عالية ثم رد بنبرة ساخرة قائلاً:

(ولكن في النهاية كلهم طلعوا من المولد بدون حمص، ركبوا القطار الغلط، وداهم سقط لقط، كلهم راحوا في ستين ألف داهية، العسكر، مغامراتهم لا تنتهي، المدنيون، سوء فهم وتقدير، حكايتهم زي حكاية عشرة مغفلين راكبين جمال، كل جمل ماشي وراء الثاني، مروا بتحت شجرة، فرع شوك ناتئ قد عين الأول، عمل نائم لم ينبه الآخرين،

وهكذا إلى أن انقدت عيونهم جميعا، دائما بعد نجاح ثورات الشعوب، وسقوط المستبدين، صناع الثورة الحقيقيون يحرمون من جني ثمار تضحياتهم، لفشل السياسيين في إدارة مرحلة الانتقال، أنا أخشى من تكرار الماضي، فترة مدنية قصيرة، ضعيفة ومضطربة، لا ديمقراطية ولا يحزنون، واحدة من قوى مدنية متناحرة تتحالف مع العسكر لحسم صراعها مع الآخرين، نفس الفيلم، نفس الدائرة الخبيثة يتكرران مرةً أخرى).

رد غوغل بنبرة متحذلقة قائلاً:

(يا أخوانا الحكاية ليست حكاية مدنيين من هنا وعسكريين من هناك، مش حكاية مباراة كورة هلال مريخ، الحكاية متركبة في بعضيها بشكل عجيب تجعل التمييز على أساس مدني وعسكري حكاية غير مفهومة، الحكاية مذهب فكري (ايدلوجيا)، وليست حكاية بدلة وكرافته وبدلة كاكي).

رد بوعلي قائلا:

(والله يا أخوانا الحكاية ينطبق عليها مثلنا الشعبي لا بريدك ولا بحب بلاك، هؤلاء العسكر جزء من الحل وفي نفس الوقت جزء من المشكلة، التخلص من حكم عسكر تمهد له قوة مدنية، الضربة القاضية لحكم العسكر لا تتم إلا بمساعدة العسكر أنفسهم، وبعد فترة قصيره - الطبع غلاب- يعودون للانقلاب مرةً أخرى بدعوة من مدنيين).

رد عظمة بنبرة متبرمة قائلاً:

(يا أخوانا الكلام الفارغ الحاصل لينا ده، (الدورة الخبيثة) دي، أم ديره ديره دي، نظام مدني لفترة قصيرة يعقبه نظام عسكري شمولي يمتد ما بين سبع إلى ثلاثين سنة، منذ الاستقلال مضت كم سنة؟ ثلاثة وستين سنة، العسكر حكمونا فيها اثنتين وخمسين سنة، نفس الفيلم الذي كان سائدا في تركيا، ولكن الشعب التركي قال للعسكر: (لأ.. ثم لأ.. ألزموا ثكناتكم)؛ نحن نحتاج إلى ثورة تقتلع هذه الدورة الخبيثة من جذورها).

رد السناري قائلاً:

(خلونا في المهم يا أخوانا، الخبر الآن، المدنيون والعسكر بعد مفاوضات متعسرة توصلوا إلى اتفاق، ربما يفضي بهم إلى إزالة أكبر عقبة تواجه مستقبل بلدنا، أعلنوا إقامة مجلس للسيادة يكون ممثلاً بشكل متوازن بين الجانبين، يرأسه الطرفان بشكل متناوب لفترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات، يتكون المجلس من أحد عشر عضوا، خمسة لكل طرف، فيما يكون العضو الحادي عشر شخصية مدنية ذات خلفية عسكرية، ويتضمن الاتفاق كذلك تعيين حكومة كفاءات وطنية يرأسها رئيس وزراء مستقل).

رد غوغل بنبرة متحيرة قائلاً:

(يا جماعة هذا الاتفاق قسم الناس إلى قسمين، قسم يقول لا يوجد بديل أفضل لأن بديله هو الحرب الأهلية، والعسكر يبدون حسن النية بتشديدهم على ضرورة محاسبة المتورطين في تفكيك الاعتصام، بينما يقول آخرون أن الاتفاق مجرد مناورة من العسكر وسيلتفون عليه عاجلاً أم آجلاً، تاريخهم السياسي أسود).

رد بوعلي بلهجة متشائمة:

(يا أخوانا في ناس متفائلين جدا بهذا الاتفاق، يظنون أنه مؤشر إيجابي، وأن الجماعات داخل التحالف غير الموافقة عليه سوف تعيد حساباتها، ويتفاءلون أكثر من ذلك بأن العسكر سيذهبون في النهاية إلى ثكناتهم ويسلّمون الأمور لحكومة منتخبة، يا أخوانا (الديك يبيض بيضةً واحدة فقط)، نموذج سوار الذهب غير قابل للتطبيق مرةً أخرى).

رد الفيلسوف بنبرة متفائلة قائلاً:

(يا أخوانا أنا من المتفائلين جدا بهذا الاتفاق وأنه سوف يأتي بخير على البلد إذا جات شخصيات وطنية همها الأول والأخير مصلحة البلد، والأخبار المشجعة تقول بأنه تم التوافق على رئيس للوزراء، وهو شخصية راكمت الكثير من الخبرات السياسية والاقتصادية داخل السودان وخارجه، ويحظى باحترام كبير بين الكثير من التيارات في البلاد، وشخصيات أكاديمية ودبلوماسية ونقابية ستكون حاضرة في المجلس السيادي).

رد غوغل بلهجة لا تخلو من عدم الرضا قائلاً:

(يا أخوانا الاتفاق ده ناقص، عشان يكتمل ويكتب له النجاح ونقف على أرضية صلبة من التفاؤل لا بد من إشراك الآخرين في المرحلة القادمة لأن قحت لا تمثل كل الشارع السوداني، وهناك تيارات أخرى تستعد لمسيرات ضخمة رفضاً للصيغة الأولى من الاتفاق، كما أن عدداً من الحركات المسلّحة تناهضه وتصر على أن تكون حاضرة في المشاورات، والدولة العميقة واقفة لهم جميعا بالمرصاد إذا ما وصلت أمورهم إلى طريق مسدود).

رد بوعلي بنبرة صارمة قائلاً:

(يا أخوانا أيّ اتفاق لا يخاطب جذور المشكلة، أيِ تفاوض لا يضع أسساً جديدة للدولة على أساس شعارات الثورة (حرية، سلام، وعدالة)، سيكون مصيره الفشل، بدون تحقيق هذه الشعارات العسكر والمدنيون يحرثون في البحر).

رد عظمة بلهجة سخنة قائلاً:

(يا أخوانا سيبونا من كلامكم الفارغ ده، بالعكس أنا من المتشائمين جدا من هذا الاتفاق، عشنا لعقود تحت سيطرة تحالف بين عسكر وقوى سياسية متعددة آخرها إسلاميين، وطبعا اللعبة لعبة مصالح، وخروج العسكر من لعبة السياسة لن يكون سهلا، وقد يستعينوا بأطراف سياسية ومدنية داخلية أخرى، مثل إدارات أهلية لتثبيت

وجودهم عبر صفقات يتقاسمون من خلالها النفوذ، أو يستعينوا بأطراف إقليمية تتوجس من صعود تيارات ديمقراطية لأن فيها تهديد لمصالحها).

رد غوغل بلهجة متوترة قائلاً:

(يا أخوانا أعداء الثورة كثيرون في الداخل والخارج، الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وآخرون يرفضون ثورتنا تماما، منذ البداية يقفون ضد التغيير، وعندما تأكد لهم أن التغيير لا محالة قادم، وجدوا ضالتهم في العسكر، الذين ربما يحققون لهم بعض مصالحهم التي لا تتماشى مع أهداف الثورة).

رد السناري بلهجة مستنكرة قائلاً:

(يا أخوانا الحكاية عندكم بالمقلوب، هناك من يرون أن التحالف وليس العسكر هم المدعومين من الخارج، القوى العظمى استعانت بهم لأجل الوصول إلى نظام جديد يخدم مصالحها، الاتحاد الإفريقي والدول الغربية كانت لهما علاقة إيجابية مع النظام البائد لأنه كان يخدم مصالحها، وبنفس الكيفية يريدون استمرار العلاقة مع النظام الجديد).

رد عظمة بلهجة صارمة قائلاً:

(يا أخوانا هل العقرب عندها أمان؟ كله كلام فارغ في كلام فارغ، أثناء التفاوض العسكر قُتلوا المدنيين في الاعتصام بصورة بشعة، بدون طي هذه الصفحة السوداء بتقديم الجناة للمحاكمات العادلة، لن يحظى المجلس السيادي المنتظر باحترام الثوار، في ناس مسطحين يقولون: (العسكر ممكن يغيروا سلوكهم بانحيازهم للثورة)؛ وينسون أو يتناسون أن ما بعد مجزرة فض الاعتصام لن يكون أبدا مثل ما قبلها).

رد الفيلسوف بلهجة لا تخلو من تأفف وشعور بعدم الراحة قائلاً:

(يا أخوانا نعم أعلنت الوساطة الإفريقية الإثيوبية المُشتركة أن قحت والمجلس العسكري الانتقالي توصلا إلى اتفاق كامل بشأن (إعلان

سياسي) يحدد كافة مراحل فترة الحكم الانتقالية، وخارطة طريق لتنظيم الانتخابات؛ ولكن بعد كل هذا الجهد التفاوضي الطويل بوجود الوسطاء، المشكلة ليست في الاتفاق وأنه مجحف، أو غير مجحف، أو لا يلبي تطلعات الثوار، المشكلة فيمن يضمن العسكر؟).

أعاد إسيتيذ نظارته إلى أرنبة أنفه ورد بنبرة لا تخلو من خوف قائلاً:

(يا أخوانا في واحد محلل شاطر وضع لينا أربعة سيناريوهات يمكن أن نفهم من خلالها ما قد يجري في البلد: نجاح القوى السياسية في تأسيس حكم مدني ووضع لبنات تحول ديمقراطي مستدام بالاستفادة من الفرصة المتاحة خلال الفترة الانتقالية، وبالاعتبار من تجارب انتقال سابقة فاشلة أفضت إلى انقلابات؛ في حالة عدم توافق القوى السياسية على الأجندات الوطنية وتمسكها بأنجدتها الخاصة، وعدم صبرها على متطلبات التحول الديمقراطي، سيقود ذلك إلى إعادة الدائرة الخبيثة، مما يعني فعليًّا تمهيد الطريق للعودة إلى نظام شمولي خلال فترة وجيزة؛ يتحدد بشكل واضح دور العسكر في فترة الانتقال الحالية، التي تتميز بزخم شعبي غير مسبوق، وعلى نجاح الثوار في الاحتفاظ بشرعية الشارع التي نجحت في فرض إرادتها عليهم، وهو ما يتطلب بالضرورة الحفاظ على وحدة القوى السياسية والشعبية المطالبة بالتغيير حتى تحقيق شعارات الثورة على أرض الواقع؛ في حالة عدم محافظة قوى الثورة على وحدتها وإرادتها المشتركة، مع ازدياد حدة التنافس بين المكونات السياسية، قد تجد المؤسسة العسكرية الفرصة مناسبة لتتحلل من الوفاء بتعهداتها، وتستغل تراجع الزخم الثوري في إطالة بقائها في سدة الحكم، بدواعي ضرورات الحفاظ على المصالح الوطنية والأمن القومي، هناك أسئلة تطرح نفسها، المعروف تاريخيا أن ما يجري في مصر يؤثر على ما يجري في السودان؟ تزامنت ذكرى أحداث الثلاثين من يونيو، التي أدت لسيطرة الجيش على السلطة في مصر، مع تجديد السودانيين

مطلبهم بتسليم السلطة للمدنيين، هل تنتقل العدوى من العسكر هناك إلى العسكر هنا؟ وهل الشعب السوداني مستعد للتصدي لأيّ انقلاب جديد؟).

وقف على قدميه، حرك نصفه الأعلى يمنةً ويسرى، عندما تطول فترة جلوسه غير المريحة يشعر بتخشب وتيبس في عظام سلسلته الفقرية، استطرد بنبرة لا تخلو من الدعابة قائلاً:

(أها يا أخوانا دردشتكم حلوة، وأنسكم أحلى، ولسانكم ذليق، ولفظكم أنيق، لكن ما باليد حيلة، أزفت ساعة النوم، ينتابني الآن شعور بعسر هضم، مصران بطني الأعور يتحرك، (أبو شراح) يحرق صدري، كل ذلك بسبب ما كنا نخوض فيه من كلام، بسبب أن الأحوال لا تبشر بخير، المدنيون الحاليون أسوأ من المدنيين الذين سبقوهم، ثلاثون سنة جعلت منهم سنة أولى ديمقراطية، والعسكر الحاليون أسوأ من العسكر الذين سبقوهم، مجزرة فض الاعتصام كشفتهم، عرتهم ملط، شاركوا فيها، أم تواطأوا بعدم التدخل والسكوت عليها، الآن غير مهم، استغرقت ستة ساعات والعالم كله - غير مصدق - يتفرج على مجزرة بشعة، وهم كذلك يتفرجون، الله يكون في عونكم، وعون شعب طيب مسكين، وصدق من قال الأخطاء يرتكبها الآباء ويدفع ثمنها الأبناء، حاضرنا يحن إلى ماضينا، ومستقبلنا يحن إلى حاضرنا، ومستقبلنا لن يجد من يحن إليه، والغريق يتمسك بقشة).

□

(٨)

ما قبل كورونا

شعر إسيتيذ ومعه كثير من الناس بحالة من إحباط، عدم رضا، وقرف، تسيطر عليهم بعد مضي أكثر من عام على ما يسمى (رحيل النظام)، وتوقيع الاتفاق على وثيقة دستورية مهدت لمرحلة انتقالية تؤدي إلى حكم مدني في البلاد، هذه الوثيقة التي شهد حفل توقيعها رؤساء دول أفريقية، ممثلون عن الاتحاد الأفريقي، الاتحاد الأوروبي، الولايات المتحدة، ووزراء ومسؤولون من دول خليجية وعربية، لم تأت بجديد، ثم ماذا بعد؟، الأوضاع ازدادت سوءً عما كانت عليه، نتيجة لعوامل عديدة ظاهرة ومستترة، كثيرون يتساءلون عما إذا ما كان النظام السابق قد سقط فعلا؟ يقولون: تغيرت وجوه ملها الناس، وجاءت وجوه لا يعرفها الناس، شيطان تعرفه خير من شيطان لا تعرفه، لم يتغير شيء البتة، نفس بهدلة، نفس غوغائية، نفس عشوائية، نفس ضبابية، نفس انسداد رؤية، نفس صفوف وزيادة، نفس غلاء أسعار وزيادة، نفس إشكالية دولار وزيادة، حكمت محكمة سودانية على رأس النظام البائد بالإيداع عامين في مؤسسة للإصلاح الاجتماعي، مع مصادرة أمواله التي تحصل عليها في قضية (تداول نقد أجنبي بشكل غير قانوني)، وتربّح غير مشروع، ضحك الكثيرون على هذا الحدث واعتبروه مهزلة من مهازل الوجوه الجديدة، مسخرة من مساخرهم، تساءلوا عن مصير أموال شعب منهوبة في داخل وخارج، وعن عجز وتباطؤ في إرجاعها، العسكر يقضون على تمرد لعناصر موالية للنظام البائد في جهاز المخابرات، وكذلك الكثيرون يضحكون ويتساءلون عن مصير باقي العناصر الموالية التي ما زالت تجاهر بعدائها للثورة والثوار؟

يقولون إذا أردت أن تعرف أحوال الناس فأذهب إليهم في أسواقهم، إسيتيذ يعرف سوقا واحدا (سوق شنقيط)، يعرفه دكانا.. دكانا، كشكا.. كشكا، ست شاي.. ست شاي؛ راوده حنينٌ غلابٌ في أن يعاود الكرة ويذهب مرة أخرى إلى صديقه معلمو الذي طال غيابه عنه منذ أن فارقة في ذلك النهار المشهود، الذي شهدا فيه غرائباً وعجائباً لا يتقبلها خيال، ولا يستسيغها عقل؛ بدت له شوارع الحارة ميتة، لا حركة فيها، شبح يمشي هنا، وشبح يتعثر هناك، عند المنعطف الذي يقود إلى محطة المواصلات رأى ما لا يمكن أن تصدقه عينان، الناس يتزاحمون كنمل على باب طاحونة غلال، لا يرى لهم أولاً ولا آخر، يتزايدون ولا يتناقصون، يكرون ويفرون على حافلات ركاب، محظوظون أولئك الذين يجدون لهم موطئ قدم داخل كابينة واحدة من حافلات قليلة يوقفها سائقوها حسب المزاج، يُمْلونها بركاب مغلوبين على أمرهم بمنتهى صلف وتسلط، تعريفتهم ليست ثابتة، يتنافسون في رفعها بين فينة وأخرى، شق طريقه بينهم بصعوبة بالغة، تحسس أكثر من مرة هاتفه الجوال داخل جيب جبته، لأن الزحام بيئة خصبة يرتع فيها سُراق جوالات نجباء، لأنهم براداراتهم يسهل عليهم تحديد مواقعها في جيوب أو شنط يد، من السهل خطفها، صغيرة في حجمها، خفيفة في وزنها، غالية في ثمنها، لا تأخذ وقتاً طويلاً لعرضها، المتعاملون فيها كثر؛ الرد على المكالمات الهاتفية محظور هنا، الصقور المدربة على صيد فرائسها تترقب فرصة إخراج هاتف من حقيبة أو جيب، تنقض كنسور كاسرة في خفة وذكاء منقطع النظير، تخطف وتمرق في سرعة البرق وسط الزحام، يعَوِض ضحيتهم سيد العوض؛ شق صفين لواقفين أمام شباكي الفرن الآلي، واحد للرجال والآخر للنساء، يفصل بين الفرن وشارع الأسفلت خور عريض جنبتيه مشيدتين من حجر، يصرِف مياه الأمطار خريفا،

ويُمسك بمياه آسنة لونها أسود، وبأكياس بلاستيك، وبقاذورات، وبجيف قطط وفئران ميتة صيفا وشتاءً،؛ مر أمام حقة تمباك، حلة ألمونيوم كبيرة، في محل صغير لصق الفرن، شم رائحة حنوط موتى، اختلطت رائحة خبز، برائحة تمباك، برائحة عفن خور؛ عبر شارع الأسفلت الجانبي الضيق بصعوبة وسط زحمة سيارات، ركشات، عربات كارو، ومواتر؛ قطع صفا لا حد له من شاحنات، حافلات، وسيارات، أوقفها أصحابها في صف محطة الوقود إلى ما شاء الله لها أن تقف، ينتظرون قدوم صهاريج محملة ببنزين وجازولين تخلصهم مما هم فيه من ضيق وعنت ورهق، هذا الوقود الذي لا قيمة له إلا هنا، امتلأت به خزانات الدنيا، ناقلات ضخمة تجوب به أعالي البحار والمحيطات ولا تجد من يشتريه، انهار سعره واصبح يباع ويشترى برخص التراب؛ بشق النفس وصل إلى مركز صديقه معلمو، تعانقا في ود جياش، ألقى التحية على رجل وامرأة جالسان على كرسيين قبالة كرسيه الوثير الذي دائما ما يجلس عليه خلف طرابيزة كبيرة.

التفت نحوه وخاطب ضيفيه مازحاً قائلاً:

(هذا صديقي الموقر العزيز، الذي ترك الطبشور، منتظرا أن يموت في بيته، ميتة بعير فوق فراش وثير).

التفت نحوهما واستطرد قائلا:

(وهذا أستاذ أكل عليه الدهر وشرب زميل معلم في مدرسة حكومية، وهذه أستاذة زهرة نضيرة زميلته في نفس المدرسة).

مسح إسيتيذ على أرنبة أنفه، عدل نظارته، ثم رد بنبرة منشرحة قائلاً:

(حصل لنا شرف التعرف بكم والجلوس معكم، ورب صدفة خير من ألف ميعاد، مركز معلمو قبلة للمعلمين، الذين يقول فيهم شاعرنا طوقان:

شَوْقِي يَقُولُ وَمَا دَرَى بِمُصِيبَتِي
قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِّـهِ التَّبْجِيـــــــــلا
اقْعُدْ فَدَيْتُكَ هَلْ يَكُونُ مُبَجَّـــــلاً
مَنْ كَانِ لِلْنَشْءِ الصِّغَارِ خَلِيـــلا
وَيَكَادُ يَفْلِقُنِي الأَمِيرُ بِقَوْلِـــــــهِ
كَادَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَســـــُولا
لَوْ جَرَّبَ التَّعْلِيمَ شَوْقِي سَـــاعَةً
لَقَضَى الْحَيَاةَ شَقَاوَةً وَخُمـــُولا).

رد الأستاذ بنبرة حزينة قائلاً:

(رحمه الله رحمةً واسعة، لو كان حيا بيننا، ودرى بحالنا، لا أدري ماذا كان شعرا قائلا).

ردت الأستاذة بنبرة مؤثرة قائلة:

) لو كان حيا بيننا لترك النشء الصغار، وترك الطبشور، وزهد في الدنيا وما فيها، ورحل إلى مغارة بعيدة، يتعبد فيها).

رد معلمو بأسى قائلاً:

(المعلم المسكين يعاني ويشقى في ماضٍ وحاضر، وفي كل دولة فقيرة متخلفة، أما في الدول المتقدمة، يتمتع باحترام وتقدير، وبأعلى هيكل مرتبات).

ردت الأستاذة بنبرة شاكية قائلةً:

(المعلمون يشكون لطوب الأرض، مرتبات ضعيفة، سوق لا يرحم، دولار خرج عن السيطرة، أسعار تتصاعد بوتيرة جنونية، والدولة تتفرج مع المتفرجين، خائفة تكحلها تعميها).

رد الأستاذ بنبرة حادة قائلاً:

(يا أستاذة المسألة ليست مسألة مرتب وأسعار، المسألة مسألة اقتصاد، سوقنا حر، ليس له كابح ولا محددات، نفس طامة العهد البائد مستمرة، الرأسمالية الجشعة لا تشبع أبداً، يدها في يد أي نظام حاكم، في سابق وحاضر يطئون بأحذيتهم القذرة على رقابنا).

ردت الأستاذة قائلةً:

(يا أساتذة يا محترمين، نعم الثورة قامت، ولكنها لم تنتصر بعد، لأنه الحال في حاله، إن لم يكن ازداد سوءً، لأنه العصا ممسوكة من النص، ما في حاجة اسمها مدنيون وعسكر يتقاسمون السلطة، إما كده، وإما كده، ما في حاجة اسمها كده وكده، وضع شاذ غير مستقيم، حتما لن يؤدي إلى استقرار وحلحلة لأزمات الناس).

رد الأستاذ بنبرة قلقة قائلاً:

(يا أساتذة في ظل هكذا وضع محير، مهما بلغت درجات حسن النية، ومهما بلغت درجة التنسيق بين الأطراف الحاكمة، فإن التخبط واستمرار الأزمات يجعل الناس يذهبون بعيدا في تفسيراتهم، الناس يقولون كل طرف يستغل صلاحياته لعرقلة عمل الطرف الآخر من خلال افتعال أزمات، والنتيجة إغراق البلاد في فوضى، وعدم جدية في توفير وتسهيل معاش الناس).

رد معلمو بنبرة متبرمة قائلاً:

(أصوات الناس بحت وهم يدعون حكومتهم إلى أن تصارحهم بالعراقيل التي تسود عليهم عيشتهم، وإلا فإن سوء الحال سوف تستمر، الأوضاع ستزداد سوءً، يزهق الناس ويخرجون مرة أخرى إلى الشوارع، وتعمل الدائرة الخبيثة عملها، وتدق موسيقى العسكر من جديد).

رد الأستاذ بنبرة متفائلة قائلاً:

(يا محترمين هناك قضايا عديدة تنتظر الحسم لكي تعود الثورة إلى زخمها الأول، فإذا حزمت الحكومة أمرها وقادت هذا الشعب بتجرد فسوف تجده كله مصطفاً من خلفها كبنيان مرصوص، حينئذ تستطيع بنجاح منقطع النظير العبور بالبلد إلى بر الأمان بعد خمسة وستين عامًا ضاعت هباءً منثورا).

ردت الأستاذة قائلةً:

(الحكاية ما لعب شفع، ما لعب عيال، لازم الحكومة تشد حيلها، تسيطر على المال العام، وزارة المالية هي الجهة الوحيدة القيمة عليه، لا تجنيب، لا مؤسسات موازية، محاربة فساد، واسترجاع كل الأموال المنهوبة).

عدل إسيتيذ نظارته ثم رد بنبرة متشائمة قائلاً:

(يا أساتذة هل فعلاً سقط نظام بائد؟ هل تغيرت سلطات تنفيذية وتشريعية؟ هل تغيرت سلطات قضائية؟ هل تغيرت قوانين وتشريعات مجحفة؟ هل تغير أسلوب تعامل مع المواطنين واحترام حقوقهم وحرياتهم؟ مئات هل وهل تدور في رؤوس الناس، والإجابة عليها كلها بالنفي).

ردت الأستاذة بنبرة يائسة:قائلةً:

(بعد مرور عام كامل على سقوط النظام، ما زالت الدولة العميقة باقية، نفس الوجوه، ونفس الأساليب القديمة، الفشل يضرب أطنابه في كل مكان، الثورة في حالة تخدير، ما مفهوم تخدير عرضي أم دائم).

رد إسيتيذ قائلاً:

(يا أساتذة المفهوم الكامل لمعنى إسقاط أي نظام يشمل بالضرورة إسقاط كل أدواته التي كان يستخدمها لأجل التمكين، ومن هم في مركز اتخاذ القرار، وما يتبعهم من أدوات قمع وتأديب، ثورتكم يا أساتذة نصف ثورة، وهذا من أسباب فشلها، أنصاف الثورات نهاياتها كارثية، التاريخ لا يرحم، كم من مصلح وكم من ثائر نصبت لهم حبال مشانق، أو أعدموا رميا برصاص ودفنوا في أصقاع مجهولة).

رد معلمو قائلاً:
(يا أساتذة أمراض الجسم المستفحلة تحتاج إلى فترة طويلة للعلاج، فما بالك بأمراض عمرها ثلاثين سنة مستحيل علاجها في زمن وجيز، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، وعدونا بزيادة معتبرة في المرتبات).
ردت الأستاذة قائلةً:
(يا أستاذ من قبيل نحن نردح ونعيط نقول في شنو، الزيادة لن يكون لها معنى مع فوضى مستحكمة في السوق، بدون زيادة مرتبات التجار يطحنون، ويهرسون، ويدوسون على الناس بحجج واهية، فما بالك مع زيادة مرتبات، يعملون منها هُلِيلة، ما في فائدة للزيادات في وجود سوق حر يعطي ضعاف النفوس سلطات تجارية غير محدودة).

نهض إسيتيذ من على كرسيه، ملامح وجهه تنبئ بإحساس بعدم رضا، لمح فوق الطرابيزة كتاب موضوع بجانب جهاز الحاسوب عنوانه " إبولا ٧٦"، سأل معلمو قائلا:
(هل انتهيت من قراءة هذا الكتاب يا قارئ يا نهم؟).
رد بوجه باسم قائلاً:
(نعم قرأته، إنها رواية ممتعة لروائي سوداني اسمه أمير تاج السر، وأنت يا سريع النهمة، تريد أن تلهفه).
سأل بلهفة قائلاً:
(وعم تحكي؟).
رد قائلاً:

(تحكي عن أحداث تدور في عشش الكرتون أفقر حي سكني في مدينة أنزارا جنوب السودان، بطل الرواية اسمه لويس نوا، يكبر على وقع طفولة بائسة، وهو شاب يعمل في مصنع للنسيج، يقرر الزواج بأول فتاة تبتسم له، تينا بائعة الماء في الشوارع تصبح زوجه، لكنه ما يلبث أن يخونها مع خادمة الغرف في نزل للفقراء في كنشاسا، وفي ظهر يوم حار يلاحق (إبولا) الفيروس القاتل الذي يضرب الكنغو

جسد نورا ليسكن دمه، يغادر الفتى الأفريقي إلى بلاده، ليصبح من دون أن يدري جسرا يعبر عليه المرض المميت إلى أنزارا، عبر فكرة القتل المحتمل الذي يسببه فيروس إبولا، يرصد الكاتب عوالم غرائبية في مدينة عادية فيها شوارع، ومتاجر، وملاه، ومواخير، وزيجات، وحالات طلاق، وقصص حب كاملة وناقصة).

سأله بنبرة لطيفة قائلاً:

(إن لم يكن لديك مانع سأستعيره منك، لسبب واحد هو أني ما زلت اعتبر نفسي من الذين يعتقدون انفصال الجنوب عملا سياسياً غير موفق من الطرفين، شماليون وجنوبيون، ولا أنا غلطان؟).

أجابه بنبرة توافقية قائلاً:

(ولا غلطان ولا شيء، كثير من الجنوبيين أنفسهم عادوا مرةً أخرى إلى حضن الشمال، خذه، تمتع بقراءته، ثم أعده لأني استعرته من صديقنا عبد الله).

أخذ الكتاب، انشرحت نفسه قليلا، عدل نظارته، ثم ودعهم بنبرة رقيقة قائلاً:

(يا أساتذة، أقول لكم مع السلامة، أعود إلى بيتي غانماً سالماً، إن شاء الله أنتم كذلك تعودون، يجمعنا ربنا وإياكم قريبا وبلادنا كما نتمنى لها أن تكون؛ أحلامنا يا أساتذة ليست لها حدود، نحلم بوطن نستمتع فيه بالنظر إلى أشجار خضراء، أعشاب أوراقها محملة بالندى، أنعام ترعى كما تشاء، سماء صافية، شمس مشرقة، وأنهار ووديان تجري مياهها صافية، نستمتع فيه بحياة مستقرة آمنة، احتياجاتنا الأساسية، ملبس، مأكل، مشرب، صحة، تعليم، ماء، كهرباء، غاز طهي، ووقود، كلها متوفرة سهلة المنال؛ يتمتع أطفالنا بطفولة سعيدة، بتغذية جيدة، بعناية صحية فائقة، وبتنشئة متزنة؛ يتمتع كهولنا بشيخوخة هادئة، في ظل رعاية شاملة؛ وفوق كل ذلك نحلم بأن يحكمنا حكام وطنيون، يخافون فينا الله، لا يخشون لومة لائم، ولا جبروت طامع، ولا ينساقون وراء دولارات مغرور).

خرج من باب المركز والرواية تحت إبطه، استقبل شارعاً ضيقاً مزدحم بمتسوقين رائحين وغاديين، حاول أن يقرأ في سطور مكتوبة على صفحات وجوههم، وأن يغوص في دواخلهم ليتحسس ما فيها من عذابات، وآلام، ومرارات مكبوتة، وأن يتسلل إلى داخل عقولهم لعله يستجلي ما فيها من صور ذهنية، وتأملات، وأفكار، وكعادته شرد مع خواطره:

(هؤلاء الناس البسطاء، ملح الأرض، الذين يأتون إلى الدنيا ويغادرونها ولا يحس بهم أحد، ربما تبكي عليهم السماء، ولكن قطعا لن تبكي عليهم الأرض، لأن الأرض ملئت ظلما، جورا، نفاقا، وكفرا، وجوههم متجهمة متيبسة عابسة، تجري فيها مياه حياة عكرة بصعوبة، تحرقها أشعة شمس مدارية حارقة فتجعلها سمراء داكنة، حظوظهم في الدنيا سيئة، يكدحون ويكدون بلا هوادة من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، فرص العمل نادرة، وإن وجدت ففي مجالات هامشية تافهة، دخولهم ضعيفة لا تسد لهم رمقا ولا تطفئ لفقرهم نارا، معدلات خصوبتهم عالية، بيوتهم تتكدس بأفواه جائعة، حكامهم يأتون من صلب آباء تعبانين وترائب أمهات عجفاوات، ينسون أو يتناسون منابتهم وأصولهم، يرفعون رؤوسهم من فوق ربطات أعناقهم وبدلهم ونجومهم صلفا وتيها وغرورا تكبراً أمام الناس، كأنهم ولدوا في كنف قصور ملوك وأمراء وفي أفواههم ملاعق ذهب، لا وجه لمقارنة بينهم وبين رسل وأنبياء وإنما بينهم وبين بشر عاديين أمثالهم، أين هم من الخليفة الخامس، أين هم من المهاتما غاندي، أين هم من نيلسون مانديلا، إنهم يتشبهون بخواجات لن يرضوا عنهم، ولن يحترمونهم، ولن يقدموا لهم دعماً وحلولاً مجاناً لوجه الله، العالم لا يحترم إلا الأقوياء، الضعفاء لا يحترمهم أحد، من يعتمد على ذاته يعش أبداً فوق الجبال، حرا أبيا بين الأمم، ومن يعتمد على الآخرين يعش أبداً بين الحفر، ذليلا منكسرا منبوذا بين الأمم).

(٩)

كورونا

إسيتيذ يحب الزرع ويموت فيه، ولكن ما بيده حيلة، مساحة بيته ضيقة لا تسمح له بزراعة شجيرة واحدة، ناهيك من بضع شجيرات لحديقة منزلية متواضعة، يستمتع فيها برونق جمال الطبيعة، لذلك مضطرا وجه أنظاره تلقاء مساحة خارجية تمتد حذاء بيته لمسافة مترين، زرع فيها ثلاث شجرات زهرية، شجرتي (قولدمور) وشجرة (كاسيا ندوزا)؛ كل أحلامه الوردية التي كانت تراوده طوال عمر مديد لاقتناء حديقة غناء ذات أفنان، ذات فاكهة ونخل ورمان، ذهبت أدراج الرياح مع غيرها من أحلام وأمان عراض، اختزل حديقته في هذي الشجيرات الثلاث؛ شجرتا القولدمور تتحفانه بجمال موطنهما الأصلي جزيرة مدغشقر، جزيرة أفريقية ساحرة، شجيرتان خضراوان كثيفتا ظلال، من أكثر أشجار العالم تلوناً بأزهار حمراء وبرتقالية زاهية، وبأوراق ريشية كثيفة فاتحة اخضرار، كثيرا ما كان ينظر إليهما ويقول في نفسه: (يا له من منظر، جميل جذاب خلاب، ليس له في الدنيا مثيل، يخلب الألباب)؛ في موسم الشتاء تتساقط أوراقها، تصير أغصانها عيدانا جرداء، مع نهايات الصيف الجاف تبدأ أزهار كبيرة الحجم بالظهور بألوان حمراء وبرتقالية، ببتلات رباعية تنمو بشكل مستقيم ببقع بيضاء وصفراء، لها وهج جذاب، عصارة من جمال كل أزهار العالم؛ إحدى الشجرتين تنمو يسار باب الشارع الرئيس، والثانية تنمو يسار باب صغير لجزء من البيت خصصه لسكن أمه؛ حياته مقسمة بين بيتين، شطرها الأول مع أمه وشطرها الثاني مع عياله وأمهم، كل أفراد الأسرة يتناولون وجبات طعامهم مجتمعين، شاشة تلفاز كبيرة مقاس ثمانية وأربعين بوصة تنتصب في الحائط

قبالة فراش أمه، كثيرا ما يسمعها وهي تعلق تعليقات على ما يشدها من مشاهد تتحرك أمام عينيها، بعض تعليقاتها في المضمون وبعضها خارج النص، فيطمئنه ذلك إلى أن حاستي بصرها وسمعها على ما يرام، وحينما لا يشد انتباهها شيء تغفو أو تنوم؛ في ركن الباحة التي تفصل بين غرفتها والباب الخارجي تنتصب دورة مياه، ومن خلفها يمتد بناء من الزنك الأمريكي يضم ثلاجتها وفرنها ومواعينها، وفي الجهة المقابلة يمتد حائط قصير يفصل بين جزئي البيت في وسطه حوض (ميضأة) بصنبورين ومقعد؛ يُضيق المساحة بين الميضأة والسور الخارجي صندوق خشبي كبير طول كل بعد من أبعاده الثلاث متر ونصف، تحرص أمه على بل رغيف ناشف بالماء، تفتته، ثم تقدمه على لوح حديدي صغير صباحاً وعصراً طعاماً لعصافير وقماري ما عادت تعود خماصاً إلى أعشاشها، تؤنسها وتبهج حياتها برفرفة أجنحتها وبشقشقاتها اللطيفة، استأنس كل منهما بالآخر، كأنها طائر مثلها، تتقافز حولها آمنة مطمئنة مغردةً في غاية الحبور، في الصباح الباكر تأتي أولاً عصافير جارة قريبة، اتخذت من صندوق في أعلى عمود الكهرباء الواقف ديدبانا أمام البيت عشا لها، تصطف فوق الحائط كتلاميذ مدرسة في طابور الصباح، تحط بحذر فوق الصندوق الخشبي، كل نقره من نقراتها للخبز المبلول تستتبعها بالتفاتة رشيقة، ثم تنضم إليها أنواع وأشكال أخرى من عصافير ملونة، قماري وبلوم، بعضها يحط فوق أسلاك الكهرباء، وبعضها فوق الحائط، وبعضها الآخر فوق أغصان شجرة القولدمور؛ تعودت قطتان بيضاء وسوداء على المجيء بالتناوب لهذا المكان، من تأتي منهن تأتي تدب في مكر رهيب، تتلصص كلص ظريف، لعلها تظفر بصيد ثمين من بين طيور متهافتة على رغيف مبلول.

لفتت شجرة القولدمور انتباهه، لاحظ أن أغصانها الجرداء التي ما كانت تجذب الأنظار قد بدأت تكتسي من جديد بأوراق ريشية زاهية الاخضرار؛ ذهب في الصباح الباكر ليلقي بتحية الصباح على أمه، خاطبها بنبرة رقيقة ودودة قائلاً:

(يا أمي اليوم في حاجة غريبة، شجرة القولدمور بعد ما حتت أوراقها بدأت تعود للاخضرار من جديد).

ردت بنبرة خافتة وفي عينيها بقية من وسن قائلةً:

(أنا فاكراها يا ولدي حرقت، ماتت، صارت حطباً يابساً لا تنفع إلا وقودا للنار).

رد مبتسما قائلاً:

(لا يا أمي شجرة القولدمور شجرة فريدة، لها دورة حياة خاصة بها، بعد موسم الأمطار وخلال موسم الشتاء تتعرى أغصانها من أوراقها الخضراء تاركةً القليل منها، وفي فصل الجفاف تعود أوراقها مرةً أخرى بكثافة أكثر من ذي قبل، ثم تظهر براعمها كعناقيد عنب، لتخرج فيما بعد زهور برتقالية حمراء جذابة).

ردت وعيناها ناعستان تعانقان ضوء صباح متسلل عبر نافذة زجاجية:

(يا ولدي هذه الشجرة مما زرعوها أزهرت مرة واحدة، تزامن ذلك مع وفاة أختك الله يرحمها، مضى على ذلك ست سنوات، ماذا دهاها اليوم؟ الله يكذب الشينة).

رد بنبرة هادئة قائلاً:

(يا أمي لا علاقة لأشجار، ولا لنجوم، ولا لأي ظاهرة طبيعية بما يحدث لنا من أحداث محزنة أم سعيدة).

ردت بنبرة مطمئنة عجيبة قائلةً:

(أنا عارفة يا ولدي كل شيء من عند الله، وما يسوِيه ربنا كله سمح).

تركها لبرهة وعاد أدراجه لأم عياله، التي صدمته بسؤال لم يتوقعه منها أبدا:

(أما سمعت بفيروس كورونا الذي اجتاح الصين؟).

قال في نفسه: (لأول مرة تهتم أستاذتي بشأن عام، لا بد من أن هناك سر خفي وراء هذا الاهتمام، ولكني حتما سأكتشفه لاحقاً)، رد متسائلا:

(أبداً لم أسمع به، الحكاية شنو؟).

(الحكاية إنه يا أستاذ في مرض يسببه فيروس اسمه كورونا ظهر في مدينة يؤوهان وسط الصين، الأعراض الناتجة عن الإصابة به عبارة عن حمى، سعال، وأزمة تنفسية شديدة حادة، وهناك أدلة أنه مرض معدي وقد يؤدي إلى الوفاة، يستطيع هذا الفيروس أن ينتشر من البشر مباشرة، وتتراوح فترة حضانته حوالي خمسة أيام أو أكثر قليلا).

رد متسائلا:

(وأين يا أستاذة تكمن الخطورة في ذلك؟).

ردت قائلةً:

(يقولون خطورته في أنه ربما ينتشر على نطاق واسع، ويخرج خارج الصين).

رد بنبرة لا تخلو من غمز:

(يعني معنى كلامك ده إنك خائفة يصل إلينا هنا، خائفة من هادم الملذات ومفرق الجماعات).

قطبت وجهها، علا صوتها، ردت بنبرة غاضبةً:

(أيوه، يعني أنت ما خائف، في زول ما بخاف منه؟).

مضى كل منهما في تدبير شئونه الخاصة، ذكره كلامها رواية " إبولا ٦٧" التي استعارها من صديقه معلمو، هرع إليها كالمجنون، بدأ في تصفحها، لم يتركها إلا بعد أن تصفح صفحاتها السبعة وسبعين.

مرت الأيام وحياة كل منهما تسير كما كانت، هادئة رتيبة بطيئة، لا يعكرها إلا شيء واحد وافد جديد اسمه كورونا، صار الشغل الشاغل لكل الناس في كل أرجاء العالم، وما يزعج العالم يزعج أهل الحارة، وما يزعج أهل الحارة يزعج أهل بيته، وما يزعج أهل بيته يزعجه.

أثناء جلسة استثنائية أمام شاشة التلفاز، وأمه وأم عياله تتجاذبان أطراف الحديث، تبدوان في مزاج رائق، عادت أم عياله لموضوع كورونا الذي أصبح شغلها الشاغل، خاطبته بنبرة لا تخلو من خوف خفي قائلةً:

(تحولت كورونا إلى كارثة عالمية، سموها جائحة، يعني أخطر من الوباء، انتشرت في كامل مقاطعات الصين، أعلنت عدة بلدان في أوروبا، أمريكا الشمالية، آسيا، والمحيط الهادي، عن وصول إصابات إلى أراضيها، هناك وفيات مؤكدة بالفيروس، أول انتشار للفيروس خارج الصين كان في فيتنام المجاورة للصين من أب إلى ابنه، وأول حادثة في ألمانيا عندما أصيب رجل ألماني بالمرض، أخذ العدوى من رجل أعمال صيني).

رد بنبرة هادئة لا تخلو من تلطيف للجو وتخفيف لشعور بالخوف انتاب الجميع قائلاً:

(معلوماتي المتواضعة جدا يا أستاذتي الفاضلة أن سبعة أوبئة ضربت العالم قبل كورونا، (سارس).. التهاب رئوي حاد ظهر في الصين، انطلق من نفس البيئة التي انطلق منها فيروس (كورونا)، أصاب أكثر من ثمانية آلاف شخص على مدار ثمانية أشهر، أدى إلى وفاة أكثر من ألف شخص في المنطقة العربية؛ (حمى الضنك).. مرض فيروسي ينقله البعوض، انتشر بسرعة في السنوات الأخيرة، تم التعرف على الوباء في الفلبين وتايلاند، أما اليوم تنتشر في معظم بلدان آسيا وأميركا اللاتينية، تجاوز عدد الحالات مليون ومائتي ألف

حالة؛ (الملاريا).. من الأمراض الحموية الحادة، وتظهر الأعراض بعد أيام من التعرّض للدغة البعوض الحامل له، وإذا لم تُعالج في غضون أربعة وعشرين ساعة فإنها تؤدي إلى مرض وخيم قد يتسبب في الوفاة، أفريقيا هي القارة الأكثر معاناة من هذا الوباء، ورغم الجهود المبذولة لا تزال نحو تسعين دولة حول العالم تعاني من هذا المرض؛ (إنفلونزا الطيور).. مرض تسببه سلالة من فيروسات الإنفلونزا تطورت وتكيفت في جسم الطيور، خصوصاً المهاجرة منها، ويستطيع الفيروس أن يتطور داخل جسم الإنسان وينتقل من إنسان إلى آخر، سلالة الفيروس تنتقل فقط عبر الاتصال المباشر والطويل وليس عبر الطعام، ورغم ذلك أودت بحياة العديد من الأشخاص في مختلف أنحاء العالم؛ (إنفلونزا الخنازير).. انتشر الوباء الذي ظهر أولاً في المكسيك قبل أن يتفشى حول العالم؛ (إبولا).. انتشر الفيروس الفتاك بسرعة فائقة في غرب أفريقيا، وأودى بحياة نحو ستة آلاف شخص حينذاك، كما هدد اقتصاد الدول المنكوبة؛ وأخيراً (زيكا).. على الرغم من أن زيكا ليس مرضاً فتاكاً، فإن منظمة الصحة العالمية صنفته وأعراضه كمرض وبائي، بالنظر إلى علاقته بالتشوه الخلقي عند الأطفال حديثي الولادة، وهي الحالة التي صارت تعرف باسم (صغر الرأس)، ينتشر بواسطة بعوضة الحمى الصفراء؛ الأوبئة في قديم الزمان كانت تؤدي بحياة الملايين، لكن مع تقدُّم الطب في التاريخ الحديث باتت العلاجات والأمصال أكثر توفراً للأمراض الفتاكة، ومع ذلك شهد القرن الحالي تفشي كثير من أمراض معدية فتاكة أثارت الفزع حول العالم).

ردت أمه بنبرة وجلة قائلةً:

(الله يستر علينا وعلى بلدنا، نحن مساكين، ما عندنا قدرة، ولا شدة، على قدر حالنا، أي وباء يجيئنا، الله يكون في عونا، لن يترك فينا زول حي).

ردت أم عياله قائلةً:
(بعد تزايد أعداد الإصابات والوفيات لجأت السلطات الصينية إلى اتخاذ عديد من الإجراءات، أولها حظر التنقل الذي شمل أكثر من سبعة وخمسين مليون شخص، تبعه إيقاف جميع وسائل النقل العام في المناطق الموبوءة، إيقاف النقل إلى الخارج عن طريق القطار، إيقاف الطيران، إيقاف الحافلات ذات المسافات الطويلة، إيقاف الاحتفالات بالسنة الجديدة، وأخيراً قفل المناطق السياحية).
ردت أمه بنبرة حزينة قائلةً:
(الله يكون في عون الصينيين، بعيونهم الصغيرة الحلوة دي ما يستأهلوا كورونا).
ردت أم عياله قائلةً:
(كثير من الدول تظن أن المرض سيظل محصورا في الصين، وأنه ليس بالخطورة التي تجعل الناس يخافون من انتشاره).

مضت الأيام ولا حديث للناس في الحارة إلا كورونا، لا شيء آخر يستحق منهم أن يتحدثوا فيه، ملوا الحديث عن اختفاء سلع أساسية بفعل فاعل، ملوا الحديث عن غلاء وارتفاع أسعار، ملوا الحديث عن دولار وريال، ملوا الحديث عن غياب دولة، قالوا في منتدياتهم في سخرية عاجز مغلوب على أمره:
- (ما في حاجة اسمها كورونا، نحن في السودان (ملاريا) الظريفة منحتنا مناعة طبيعية ضد كورونا، من منا لا يحمل فيروسها).
- (كورونا لا تصيب المسلمين، سلطها الله على الكفار أعداء الله، ونحن الحمد لله أحسن المسلمين إسلاما هذه الأيام).
- (عشان تداري الحكومة على فشلها، طلعت كذبة كورونا، شماعة تعلق عليها فشلها الذريع).
- (كورونا إشاعة كيزانية، واحدة من مخططاتهم الإجرامية، يريدون إسقاط الثورة بأي ثمن، عشان يرجعوا ثاني، وترجع ثاني ريمة لعادتها القديمة).

أتت أخبار مفجعة من الصين، أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، المرض دخل مرحلة التفشي المجتمعي، لا كمامات، ولا حجر منزلي، ولا منع للاختلاط المجتمعي أتت بنتيجة، الشوارع فاضية، تحولت المدن إلى مدن أشباح، إصابات بالآلاف، موتى بالآلاف، أطباء وأطقم طبية يموتون، لا مصل واقي ولا علاج، التجهيزات الصحية محدودة، كبار السن هم أكثر الناس الذين يتعرضون لهذا الوباء لضعف مناعتهم، في الحالات الحرجة يعطون الأفضلية في استخدام أجهزة تنفس اصطناعي محدودة لصغار السن، الموتى لا يقترب منهم أحد، يدفنون بالجرافات في مقابر جماعية، بلا طقوس، ولا زهور، ولا نظرة وداع، خلاص يا روح ما بعدك روح.

أعلنت الحكومة رسميا عن دخول فيروس كرونا للبلاد، توفى أول مصاب رجل خمسيني عائد من الإمارات، زاد من حالة التوتر وسط الناس انتشار الأخبار على منصات التواصل الاجتماعي عن اكتشاف حالات متفرقة، وعن دخول أجانب دون وضعهم في حجر صحي، وعن رفض مواطنين قادمين من دول موبوءة من الخضوع للحجر الصحي؛ ثم تسجيل سبعة إصابات وحالتي وفاة وأن هذه الإصابات المؤكدة كانت لأشخاص قدموا جوا إلى للبلد في فترة استئناف الرحلات الجوية لمدة ثمانية وأربعين ساعة عبر مطار الخرطوم، ولم يتم التواصل إلا مع نصف القادمين بسبب أن باقي الركاب قاموا بكتابة معلومات مغلوطة وأرقام هواتف خاطئة؛ قررت الحكومة تعليق الرحلات الجوية إلى عدد من الدول الموبوءة بالفيروس، كوريا، الصين، إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، اليابان، ومصر، وحظر مواطنيها من دخول البلاد؛ أفرجت عن سجناء كإجراء احترازي لمنع انتشار الوباء، أجلت امتحانات الشهادة السودانية، خرج وزير الصحة في مؤتمر صحفي أعلن فيه دخول كورونا مرحلة التفشي المجتمعي بعد صعود رقم الحالات المؤكدة من تسعة عشر قبل

يومين إلى تسعة وعشرين، أعلن فرض حظر تجوال شامل على الخرطوم لمدة ثلاثة أسابيع، أصدر رئيس الوزراء أمر طوارئ خاص بكورونا يتضمن: عدم التعدي على الكوادر الطبية والصحية والكوادر المساعدة أثناء تأدية عملهم، منع إتلاف المنشآت أو المؤسسات الصحية أو الطبية ومراكز العزل وفرض غرامات تتراوح بين خمسة إلى عشرين ألف جنيه حسب المخالفة، منع تهريب الأشخاص عبر الحدود أو مساعدتهم على دخول البلاد، منع احتكار الغذاء أو الدواء أو زيادة أسعارها أو نشر بيانات أو معلومات غير صحيحة بما في ذلك الإشاعات عبر أي من وسائل النشر أو تضليل السلطات بخصوص جائحة كرونا، عدم مخالطة المصابين أو المشتبه بإصابتهم، التشديد على الاستشفاء الإلزامي، التحذير من الامتناع عن الحجر الصحي، ومنع تسليم المصابين أو المشتبه بإصابتهم أو إخفاء أي معلومات بشأنهم، إغلاق المؤسسات التعليمية، دور الرياضة، الأندية، المراكز التجارية، الأسواق المفتوحة، المنتزهات، الملاهي، المقاهي، صالات المناسبات، وأي أماكن أخرى تحددها الجهة المختصة وتطلب إغلاقها، منع التواجد في الأماكن العامة، مراعاة مسافات التباعد بين الأشخاص المقدرة من الجهة المختصة، منع تجاوز عدد الركاب المسموح به في المركبات، منع مخالفة التدابير الصادرة من وزارة الصحة المقررة بشأن القادمين من الخارج أو الدول الموبوءة، تجريم الامتناع عن اتخاذ الإجراءات الصحية المناسبة بخصوص تنظيم الأسواق والطرقات والأماكن العامة المستثناة من الإغلاق، الامتناع عن إزاحة أي مباني مؤقتة أو إبادة أمتعة أو ملابس أو أي أدوات أخرى يثبت تلوثها أو احتمال تلوثها نتيجة الجائحة، الامتناع عن اتخاذ الإجراءات الاحترازية الضرورية المقررة لأطقم السفن أو الطائرات أو نحوهم، الخروج أثناء ساعات الحظر المعلنة من قبل الجهات المختصة دون مقتضى أو ضرورة أو استثناء، مخالفة القوانين

واللوائح الخاصة بدفن أي شخص متوفي نتيجة الجائحة، ورفض الفحص الطبي المقرر عند الطلب من الجهات المختصة، على الشرطة تسهيل مرور الإسعافات والأطباء والكوادر الصحية والمرضى خلال ساعات حظر التجوال دون تأخير ووفقا للتعليمات الصادرة في هذا الصدد؛ وللشرطة والنيابة العامة ممارسة كافة السلطات التي يخولها لها القانون لتنفيذ الأوامر الصادرة من السلطة المختصة.

تداول الناس كلاما كثيرا:

(دولتنا المحترمة، أتت بعرق مظاهراتنا، وهي في وادي ونحن في وادي ثاني).

(الدول التي تطبق الحجر المنزلي ترسل الطعام للتعبانين في بيوتهم، تعبانين هناك شكل، وتعبانين هنا شكل ثاني، تعبانين هناك عيونهم عليهم باردة، أما تعبانين هنا العيون عليهم حارة، بيوتهم تعافها فئران وقطط).

وقف إسيتيذ المسكين في صف الرغيف بمخبز الحارة الآلي الذي دائما ما يكون مكتظا بالزبائن لجودة خبزه، سمع كلام واقفين منسيين من أهل الأرض وهم يتدافعون، يتشاتمون، ويتغالطون، كبست على دماغه أشكال مجردة، تكعيبية، سريالية، ووحشية، خرج صوت غليظ، مبحوح، من حنجرة صدئة قائلاً:

(يا جماعة اتقوا الله، أنتم أوادم ولا دواب، تنظموا شوية).

رد آخر بلهجة لا تخلو من جلافة قائلاً:

(ومن قال نحن أوادم، يا أبو البشرية، نحن لا نستحق هذه الكلمة، البشر لا يقفون مثل هذه الوقفة، فقط الحيوانات الضالة التي اعتصرها الجوع تقف هكذا).

خرج صوت أجش قائلاً:

(ما سمعتم يا بجم بحاجة اسمها كورونا؟).

رد صوت خشن بنبرة متهكمة قائلاً:

(يا شيخ بلا كورونا ولا مكررونا، ما في حاجة اسمها كورونا، دي حركة من حركات الحكومة، عشان أمورهم بائظة، وعشان ما قادرين يوفروا دقيق، وقود، وغاز، قالوا أحسن نشغل الناس بكذبة كورونا).

رد صوت مبحوح بنبرة متبرمة قائلاً:

(يعني كلام ناس الثورة المضادة، ناس الذباب الإلكتروني، الكيزان، لازم ترددوه بدون فهم، وبدون أن تتأكدوا من صحته، والله فعلا أنتم ببغاوات بليدة، تردد بغباء كل ما تسمعه).

هتف صوت من الذين طفح بهم الكيل قائلاً:

(عائد، عائد يا بشة).

تشجعت امرأة من الواقفات، هتفت قائلةً:

(قسما بالله حتى أيام بشة النسوان معززات مكرمات، ما وقفن في صف غاز، ولا صف رغيف).

وبينما هم في لغطهم، وثرثرتهم، وغيهم، فقد أحد الواقفين في الصف وعيه، سقط على الأرض مغشيا عليه، تغير المشهد مائة وثمانين درجة، من كانوا يحملون رغيفا رموا برغيفهم على الأرض وأطلقوا سيقانهم للريح، ومن كانوا يتكلمون قطعوا حبال كلامهم وقفزوا داخل الخور المحفور أمام المخبز، ومن كانوا أنصاف نيام استفاقوا وبدون وعي لحقوا بالهاربين، الجميع هربوا كالنعام، و يا روح ما بعدك روح، تصادموا، وقع من وقع، دهس من دهس، قام من قام؛ وبعد دقائق قليلة وقف الرجل على رجليه مترنحاً، نفض ما علق عليه من تراب، أطلق في الهواء ضحكات عاهرة ماجنة مجنونة قائلاً:

(يا كلاب يا أولاد ستين ألف كلب، قائلين عندي كورونا، جارين مالكم؟ فصاحتكم مشت وين؟ بلاء يأخذكم، ويأخذ حكومتكم، ويأخذ كورونا معكم).

اكتشف الهاربون أن الرجل ما هو إلا سكران عربيد عشعش العرق في رأسه، وما به من كورونا ولا يحزنون، عادوا إلى صفهم، ولكنهم هذه المرة عادوا منكسرين، عادوا على استحياء، عادوا بألسنة مقطوعة، وبجباه متطأطئة، وبعيون زائغة، لأنهم يعلمون أن النساء اللاتي كن يقفن في الصف الموازي، لَهُن أعين تضاهي كاميرات رقمية، يسجلن بها كل شاردة وواردة، وما جرى قبل قليل من مسخرة ومهزلة في الحفظ والصون.

مشى إسيتيذ في الشارع مزهواً مختالاً وهو يحمل كيس خبزه، لم لا؟ ألا يحمل شيئا نادرا دونه صفوف ومعارك وقتال، والناس ينظرون إليه ولسان حالهم يقول: (يا ليتنا أوتينا مثلما أوتي إسيتيذ)، دخل داره فرحا مسرورا، منتظرا شكرا وتقديرا وتشجيعا وكلمات طيبة من أم عياله، نظرت إلى كيس الخبز شذراً، خاطبته بلهجة مذعورة:

(أوعاك تكون وقفت في صف الرغيف؟).

رد بنبرة مستكينه قائلاً:

(يا أستاذة دليني على مكان واحد في بلدنا المنكوبة دي، من أدناها إلى أقصاها، يبيع الرغيف بدون صف؟).

ردت بلهجة لا تخلو من صلف قائلةً:

(منذ اليوم وقوف في الصف ما في، نأكل فقط مما نصنع، نأكل عصيدة، كسرة، قراصة، بليلة، نأكل صفق شجر، خلاص انتهى النقاش في الموضوع، ويا دار ما دخلك شر).

رد بنبرة لا تخلو من استكانة قائلاً:

(ما الناس كلها واقفة ولا كورونا ولا يحزنون، وبعدين أنا عندي شوية حرفنه، يعني عارف كيف ألف وأدور على كورونا، أحجز مكاني في الصف، ثم أخرج من الصف وأقِف بعيدا وعيني على سيقا، وعندما يأتي دوري أعود بشيشي للصف مرةً أخرى).

ردت بعد أن قطبت حاجبيها قائلةً:

(كل واحد حر في نفسه، يعني عامل نفسك عايش في زمن غير زمن كورونا، عامل نفسك ما داري بالحكايات الحاصلة هذه الأيام، ما سمعت بقصة الطبية المسكينة، المسكينة قاعدة في أمان الله في بيتهم، ضرب جرس البيت الخارجي، خرجت المسكينة لترى من الضارب، وجدت واحدا من جيرانهم الذين تعرفهم واقفا في خجل، طلب منها أن تأتي معه لتعطي والدهم المريض حقنة، لم تتردد، ذهبت معه لتقوم بعمل إنساني في ظروف يصعب فيها الوصول إلى مستشفيات أو مراكز صحية، وبعد ساعتين من الحقنة تعب الرجل فذهب به أهله للمستشفى، قال لهم الأطباء أن الأعراض التي عنده تجعلهم يشكون في إصابته بفيروس كورونا، وقبل ظهور نتيجة الفحص فارق المريض الحياة، وأصبح العزل لزاماً على الذين خالطوه ومن ضمنهم الطبيبة وأفراد أسرتها، القصة دي إذا ما عندها معنى عندك عندها معنى عندي، واحد من معانيها لا نريد خبزا منذ اليوم، لأن الحصول على الخبز دونه الوقوف في الصف، والوقوف في الصف فيه تزاحم وعدم تباعد، والتزاحم وعدم التباعد يعني العدوى بفيروس كورونا، النتيجة المؤكدة أنه في ظل التفشي المتزايد لمرض كورونا، وبوقوفك في الصفوف تلقط الفيروس من هناك وتدخله لينا جوه البيت، وأول ضحية من ضحاياك أمك المسنة دي).

رد بنبرة خليط من جدية وهزل قائلاً:

(يا أستاذة إجراءات كورونا الاحترازية العامة حفظناها صم، يلا حفظينا الإجراءات الاحترازية الخاصة بالبيت، والمطلوب منا إطاعتها طاعةً عمياء).

ردت بلهجة صارمة قائلةً:

(كورونا ما معها لعب، ما معها عبث، ما معها طيش، كورونا يعني كورونا، الناس تهرب من مريض كورونا حي وميت، وتهرب ممن خالطوه، وتهرب كمان من كل ما يمت له بصلة، هدومه، تلفونه، غرفته، سيارته، منذ اليوم فصاعدا إذا ضرب الجرس أو ضرب الباب ممنوع فتح الباب لأي مخلوق، ممنوع الخروج إلا في حالات الضرورة، ممنوع العطس أو الكح بدون تغطية الفم باليد، أو المنديل، أو كم الثوب).

سأل ببراءة قائلاً:

(وكان ضرب الجرس واحد من الجيران؟).

أجابت باقتضاب قائلةً:

(التلفونات معمولة لي شنو؟ ما يضربوا قبل ما يدقوا الباب).

هتفت أمه في نبرة محتارة قائلةً:

(يا بنات أمي كورونا دي حكايتها شنو؟، سمعت وشفت في التلفزيون حتى المسافر الجائي من بره ما في زول من أهله يمشي يستقبله في المطار، وكان مشى واحد من أهله، لا يسلم عليه باليد وإنما يسلم عليه من بعيد).

ردت أم عياله بنبرة حزينة قائلةً:

(يا حاجة الحكاية أكبر من كده بكثير، الراكب القادم من بره يحمل عفشه بنفسه لا يحمله عنه أحد، يجلس في السيارة في المقعد الأخير لوحده، يجلس زي الشيطان الرجيم ما في زول واحد يقرب منه ، بعد ما يصل بيتهم يعزل نفسه في غرفة بعيدة، حمامه لوحده، غرفته لا يدخلها ولا ينظفها له أحد، يأكل لوحده، يتحدث مع نفسه كالمجنون المفارق درب الناس، يقعد على هذا الحال لمدة أربعة عشر يوما، وبعدها إن ظهرت عليه أعراض كورونا يتصل أهله برقم الطوارئ بالمستشفى ليأتوا ويأخذوه بالإسعاف، إن تعافى عاد لبيته،

وإن مات يتصلوا بأهله ليشهدوا دفنه مثلما يفعلون بغيره من موتى كورونا، لا جنازة، ولا بيت بكاء، سبحان الله، مدّ في أيامنا وحضرنا زمن كورونا، خلاص الدنيا ما فضل فيها شيء، الدنيا خِرْبت، ما فضل فيها غير النفخ في الصور).

خاطب أمه بنبرة لا تخلو من مرارة قائلاً:

(يا أمي كلما نظرت في شجرة القولدمور وهي تزهر زهورها الحمراء القانية في هذه الأيام تذكرت كلامك: (يا ولدي هذه الشجرة مما زرعوها أزهرت مرة واحدة، تزامن ذلك مع وفاة أختك الله يرحمها، مضى على ذلك ست سنوات، ماذا دهاها اليوم؟ الله يكذب الشينة)، في المرة السابقة تزامن إزهارها مع موت أختي وهذه المرة يتزامن مع الموت بالجملة بسبب كورونا).

ردت بنبرة مؤمنة مطمئنة عجيبة قائلةً:

(الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق روحي البدن ما تنسوا سمبل حنوط، مسك، قرنفل، وريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة حديد خضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

(١٠)

كورونا وبشائر رمضان

انقطع إسيتيذ عن الذهاب إلى نادي الأماسي بسبب كورونا، ظنا منه أن رفاقه الآخرين ينحون نفس المنحى، ولكن خاب ظنه، اكتشف أنهم يضربون بكل تحذيرات، إرشادات، وتعليمات، خاصة ب كورونا عرض الحائط، لا يضعون كمامات، ولا يتباعدون من بعضهم البعض، ويسلمون بالأيدي بل وبالأحضان، يسخرون من كورونا، يخرجون ألسنتهم من قعور كهوفها الأطول من خط الاستواء ولسان حالهم يقول: (لا يفل الحديد إلا الحديد، كورونا حديد ونحن حديد)، ساقه الحنين إليهم، رآهم جالسين على ذات النمط الذي كانوا يجلسون عليه قبل كورونا، فوق نفس الحجارة، والبلوك، والصناديق.

حياهم بنبرة دافئة قائلاً:

(السلام عليكم يا نُساك، يا سمار الليل).

رد غوغل بنبرة أكثر دفئا قائلاً:

(أين كنت يا رجل، أين اختفيت، خوفك من كورونا سجنك في البيت ولا شنو؟).

رد مبتسما:

(أنتم شباب ونحن عجائز، كورونا جنها وجن العجائز، أي عجوز تقصده تعجنه عجن، وتفرموا فرم، وتدخله في صندوق أو كيس وترسله إلى أقرب مقبرة جماعية، خلونا من فزورة كورونا، ورونا أخبار السوق، رمضان على الأبواب).

رد بوعلي بغضب:

(قبل دخول رمضان، وفي ظل حظر تجوال كامل مفروض على العاصمة بسبب كورونا، الأسعار طارت السماء، أمسك الفواكه والخضار بس، هل تصدقوا سعر دستة البرتقال مائتي جنيه، وكيلو الجوافة مائة وخمسين جنيه، وكيلو الطماطم تسعين جنيه، الكلام ده كله حصل ويقولوا لينا الدولار نزل، الدولار ينزل عليهم بساحق وماحق إن شاء الله).

رد غوغل بحنق قائلاً:

(طبعا يا أخوانا كلنا نعلم قبل شهر رمضان السوق دائما يولع نار، بالذات النسوان عندهن نهم عجيب لشراء أي شيء نافع وغير نافع، وتجيء مصيبة المصائب كورونا، وتزيد الطين بلة، وتجار الدولار زي المنشار، طالع، يطلعوا عينا، نازل، يطلعوا زيتنا، قال رمضان، يا حليل ناس رمضان، ناس خائفين الله، والتجار، كانوا تجار، مش زي تجار فرصة، غفلة، واحتكار، لا يفرقون بين حلال وحرام، الدولار طالع ولا نازل كله عندهم سيان، الأسعار دائماً طالعة السماء، يزيدون ويزيدون إلى أن يأتي اليوم الذي لا يكفي المرتب لشراء بصلة، في حد جائب خبرهم، سائلهم ولا مراقبهم، ولا متدخل في شئونهم، ديل أسياد، أسيادنا، أسياد السوق، وأسياد البلد، وعين الحسود فيها عود، وطظ في الزعلان، وصاحب القرش ما ينضرِب على ضهره وقفاه يا غبيان).

رد عظمة بلهجة متسائلة مستنكرة قائلاً:

(تعال يا بوعلي، كلامك ده كله فارغ، الأسعار المهببة دي جبتها من وين؟ قطعتها من رأسك الكبير ده، إنت ما متابع كويس، إنت غير مواكب، الحكاية عارت خلاص، لا تتمسِك ولا تنحاش، دستة المنقه قبل أيام بمائة وخمسين جنيه الآن بخمسمائة جنيه، دستة الغريب فروت قبل أيام بمائتين وخمسين جنيه الآن بأربعمائة وثمانين جنيه،

وأمشي شوية على الدقيق والزيت، كيلو الدقيق قبل أيام ستين جنيه ولتر زيت الطعام مائة وعشرة جنيه، والآن! الآن يباع كيلو الدقيق بمائة جنيه ولتر الزيت بمائتين وخمسين جنيه، وتعالوا للسكر، تكلفة إنتاج جوال السكر زنة خمسين كيلو لا تتجاوز ألفين وستمائة جنيه من المصنع، والآن وصل سعر الجوال إلى أربعة ألف وخمسمائة جنيه، والعدس العفن ده الما كان في زول يَدِيه نظرة الكيلو بثلاثمائة جنيه، حرام، والله حرام، حراااام، يعني المساكين يأكلوا الظلط ولا يأكلوا أصابع عيالهم، ولا يأكلوا ناس الحكومة؟).

عدل إسيتيذ قعدة نظارته ثم رد بلهجة حانقة قائلاً:

(خلونا من كلامكم ده، حكايتنا بقت خارج علم الاقتصاد، الاقتصاد الذي يدرس في الجامعات كوم واقتصاد بلدنا دي كوم ثاني، الويكة العفنة دي، البامية التي تنمو بوفرة إن زرعتها في رأس البيت تقوم، ارتفع سعرها بدرجة مخيفه، سعر الجوال منها بلغ أكثر من خمسة وعشرين ألف جنيه، الكيلو أكثر من أربعمائة جنيه، يعني قرن الويكة الواحد يفوق قرن وحيد القرن ثمنا، يقول أهل الاقتصاد أن هناك أسباب وراء ارتفاع الأسعار، زيادة الطلب على هذه السلع، حركة التصدير الواسعة إلى الخارج، إلى الأسواق العربية، مصر، الإمارات، السعودية، الكويت، ودول أخرى لحوم حية، بصل، خضار، مانجو، وليمون، وإقبال الأسر على تخزين كل ما يمكن تخزينه منذ الإعلان عن حظر التجوال بسبب كورونا، وزيادة هذا المخزون استعدادا لرمضان؛ ولكنهم ينسون أو يتناسون أن أس الداء هو جشع وطمع حثالة ممن يدعون أنهم تجار، ولا يفقهون حرفا واحدا من فقه حاجة اسمها فقه معاملات تجارية).

رد عظمة بنَفَسٍ بارد قائلاً:
(سبحان الله يا أخوانا، زمان لما يقرب شهر رمضان تشم ريحة الآبري من آخر الدنيا، النسوان يتجمعن في بيت واحد، يمارسن طقوس قديمة موروثة لصناعة هذا المشروب العجيب، المخصص لشهر رمضان فقط، الحلو مر، ضدان لا يجتمعان أبدا، سكر وملح، هنا تظهر العبقرية، يصنعن من الفسيخ شربات، شربات مضاد للعطش، يطفئ ظمأ الفقير والغني في شهر رمضان، يركب الطيارات يمشي للمغتربين في أي مكان في الدنيا، كلما يجقموا منه جُقمَة يتذكروا أهلاً ووطنا؛ الآن رمضان على الأبواب، ولا ريحة لآبري ولا يحزنون، نسوان في زمن كورونا كلام فارغ).
رد غوغل بنبرة ساخرة قائلاً:
(ولكن ما يحير يا (عظمة) رغما عن كل هذه الظروف، كثير من النسوان ما زلن متمسكات بحلو مر، صحيح الحكاية قلت، لأنه ارتفاع الأسعار بالتأكيد أثر سلبا على قدرات الناس لشراء مستلزمات رمضان، أسعار المدخلات التي يُصنع منها (حلو مر) تضاعفت أكثر من مرتين منذ رمضان الفائت، بسبب أن منها ما يستورد من الخارج، قرفة وزنجبيل، وطبعا لا تنسى دولار السجم واقف بالمرصاد، قبل أسبوع سعره في السوق الأسود مائة وعشرين جنيه بينما سعره الرسمي خمسة وخمسين جنيه فقط، يا أخوانا الله يكون في عونّا وفي عون رمضان وفي عون حلو مر، دندن بحنجرة صدئة:
وين وين تلقا زي ده..
حلو مُرْ جفا وصده..
خلانا في قومة وقعدة..
راي كيف يا فردة..
نعدي هاذي وهدة).
أطلق إسيتيذ ضحكة داويه وخاطب غوغل قائلاً:

(يا سلام يا غوغل، يا شيخ الحارة، شعر حلمنتيش رائع، ولكن خلينا منه ومن رمضان والآبري، في ناس كانوا يعيشون معنا في هذه الحارة واختفوا الآن، أين هم؟ منهم سيدة تلك المرأة الطموحة، الموسوعة، التي تعرف كل أصحاب المحلات، الصنايعية، وأسعار الموجود والمعدوم).

رد بلهجة متعالية مصطنعة لا يتحدث بها إلا شيوخ الحارات قائلاً:

(سيدة فعلا امرأة أكثر من طموحة، أحلامها أكبر من الحارة، حارتنا حارة شعبية، الحياة فيها مش ولا بد!، لذلك زَنَتْ في رأس راجلها، ما خلت الزَنَة لحدي بيَعتُه البيت واشترت ليهم واحد ثاني وسط حارة كلها عمارات، الأداهم بالكوريك يدينا بالملعقة، نحن ذاتنا اليومين دي قاعدين ندور لينا على بيت هناك، حدائق، همبريب، وسوبرماركت، أولاد مؤدبين غير مشاغبين، ناس حلوين، مش زي الغجر حقينا ديل، كل زول في حاله).

رد بوعلي بنبرة لا تخلو من استنكار قائلاً:

(كلامك ده كله صحيح، وكلام حلو، ولكن يا غشيم هناك كل زول في حاله، الجار ما عنده شغلة بي جاره، وقت الحارة كل زول يشيل شيلته، ما في زول فاضي لي زول، الناس مشغولة في البِزنِسْ وما فاضية لأي كلام فارغ).

سأل إسيتيذ بإلحاح قائلاً:

(يا شيخ الحارة، يا أخي، في أولاد من الحارة دي، شفتهم زمان وهم يلعبون الكورة في الميدان الكبير، كانوا موهوبين، وعندهم شعبية وسط المشجعين، الكلام ده قبل كم سنة، ما شائفهم موجودين اليوم معنا في الحارة، مشوا وين؟).

رد متسائلا بلهفة:

(زي منوا؟).

أجاب إسيتيذ بنبرة أكثر تلهفاً قائلاً:

(إن لم تخني الذاكرة، أسماؤهم صدام، وزكي، ومكي).
رد بنبرة ضاحكة قائلاً:

(يا سلام عرفتهم، صدام المشاكس، غاوي مشاكل، ترعرع في زمن فهلوة، تفتيحه، قفز بالزانة، ما عنده تعليم عالي، ولا ورث من جده ولا أبوه، لكن الظاهر عنده مخ كبير، بين يوم وليلة امتلك مدارساً خاصة وهو أبعد الناس عن مجال التعليم، بدلاً من بيت بالإيجار امتلك البيوت، بدلا من استدانة من بقالات الحارة، امتلك البقالات، لا أحد يعلم من أين أتى بهذا الرزق، ولكن من الناس من يتهامسون: التقطه واحد من متنفذين، عمل منه بترينة من بترينات يتخفى خلفها فاسدون، ومنهم من يقولون: دخل في صفقات مريبة، ومنهم من يقولون: الدنيا حظوظ شحذ الله والله أداه؛ أما زكي، لم ينفعه ذكاؤه، لم ينفعه خلقة القويم، لم ينفعه تعليمه العالي، عمل معلما في مدارس ثانوية أهلية، وبعد أن تأكد له أن هذا السبيل لن يقود إلا إلى دمار وموت بطيء، لم يجد خيارا غير مجازفة ومغامرة بركوب تاتشر، وسيلة الهجرة غير الشرعية عبر الصحراء الكبرى إلى ليبيا، أخباره عن أهله مقطوعة، ما معروف حي ولا ميت؛ وأما مكي فحكايته أكثر إدهاشا وغرابة، نعم أكمل تعليمه كغيره من الشباب، وفضل الانخراط في العمل الحر، وفي ظروف صحية غامضة ذهبت به أسرته إلى مستشفى حكومي عام، مكث هناك ثلاثة أيام فقط وصعدت روحه إلى بارئها، المفاجئة المحزنة لأسرته أن شهادة الوفاة أشارت إلى أن المرحوم تعرض لضرب عنيف أدى إلى تهتك خطير في تجاويف الصدر، وبدأت الأسرة المكلومة بمساعدة بعض أصدقائها من المحامين بتقصي الحقائق، توصلوا إلى بعض من خيوط بأن المرحوم كان محتجزاً لدى جهة أمنية، وفي النهاية وصلوا إلى طريق مسدود، ووصلوا إلى قناعه أن بلدهم ما عادت مكانا يصلح لعيش آمن، هاجروا في أرض الله الواسعة، تركوا بلدهم التي يحبونها أكثر من غيرهم، واستقروا في بلد مجاور).

صمت لبرهة ثم استطرد سائلا: (وولدك في السعودية أخباره شنو؟).
رد بنبرة حزينة مقتضبة قائلاً:
(أمورهم مش تمام، القعدة هناك بقت ليهم حارة).
رد السناري بنبرة ساخرة قائلاً:
(خلاص يا شيخ شيوخ الحارة، خلاص انتهيت من بياناتك، ومعلوماتك، وتحرياتك المهببة؟ كلها غلط في غلط، تأخذ عشرة درجات من مائة، يعني ساقط، وفاشل، وقابلني عشان تأخذ عشرين سوط، لمعلوميتك أولا صدام المشاكس قالوا عرس ليه واحدة مرتاحة، وواصلة شوية، وهي طلعته لي فوق، ربنا فتحها عليه، أما زكي الأخبار تقول إنه مات وشبع موت، وأما مكي الناس يقولون تِحت تِحت إنه دخل في مشاجرة مع واحدين من الجماعة إياهم، العاملين أسياد البلد، كلنا عارفين إنه مش بتاع سياسة، وطبعا هو جسمه عاتي، أدبهم أدب المدائح، والجماعة قنصوا بيه وحصل ما حصل، يا جماعة الخير ما سمعتم حكاية الفيس بوك اللافه قبال يوم أو يومين؟).
رد عظمة بنبرة حادة قائلاً:
(يا أخي سيبنا من فلان وفلتكان، قول لينا الفيس بوك حكايته شنو، سيبنا من لافي وكلام فارغ، عشان الواحد منّا يدخل في النت محتاج لي كاش، وكاشنا أولى بيه رغيف مش نت كلام فارغ).
رد بوعلي بنبرة هادئة قائلاً:
(يا عظمة روِق المنقه شويه، خلي الراجل يفضفض شوية).
هز السناري رأسه متعجبا ثم خاطبهم قائلاً:

(زعلان مالك يا عظمة، إنت عارف إنه أنا شغال أعمال حرة مش تاجر عملة، المهم خلونا في الأهم، حكاية الفيس بوك تقول: مريض حالته صعبة أولاده جابوه للمستشفى، دخلوه وجلسوه على كرسي، وبعد أن أخذ الأطباء منهم المعلومات تبين لهم أن أعراضه تعزز بقوة إصابته بفيروس كورونا، ولذلك قاموا بعزله مؤقتا لحين مجيء الوبائيات، أثناء هذه الفترة منعوا أولاده من الاقتراب منه، ظل الأولاد مدفوعين بعاطفة الأبوة يقاومون ويحاولون بشتى الطرق الوصول إليه؛ لم يستطيعوا فعل شيء له وهم يرونه يحتضر فوق كرسيه؛ لم يتجرأ أحد على الذهاب إليه ليعدله ويكسر له عينيه، جاءت الوبائيات قبل المغرب بقليل لأنهم كانوا مشغولين بضحايا كورونا آخرين، جاءوا وهم جاهزون، يرتدون أقنعة، كمامات، وسترات واقية، أنزلوا الجثة من على كرسيها وحاولوا بسطها لتخشبها وتيبسها على جلستها التي كانت عليها؛ أخذوا الجثة معهم بعد ذلك وأولاده في حيرة من أمرهم، لا جنازة، ولا مأتم، بيتهم أصبح موبوءً بكرونا ولن يقترب من سوره أحد ناهيك من الدخول فيه، وهم أنفسهم أين يذهبون، فهم مخالطون لأبيهم، والمخالطون معلوم أن مكانهم العزل).

رد بوعلي بنبرة حزينة قائلاً:

(يا أخوانا نحن عائشين بالطول والعرض، كورونا دي قصصها كثيرة لا أول لها ولا آخر، لكن عندي لكم قصة جديدة لنج، معلمة موجهة محترمة شعرت بأعراض كورونا، قام ابنها بأخذها إلى المستشفى، وبعد الفحص تأكد للأطباء إصابتها بالفيروس، وطبعا الأطباء كانوا مخالطين لها، نتيجة لذلك اختفى الطاقم الطبي من المستشفى وتركوها في عنبر من عنابر المستشفى مع مريضة أخرى مصابة بالسرطان، على أساس يتم نقلها إلى مركز الحبس بعد يومين، وبعد محاولات، ووساطات، ولف ودوران نقلت إلى المركز، وبعد أن تعافت سألت عن مريضة السرطان التي تركتها خلفها في عنبر المستشفى، أخبروها في أسى بأنها ماتت بسبب فيروس كورونا، ولم تمت بالسرطان).

رد غوغل قائلاً:

(يا أخوانا كورونا كابوس لا فكاك منه، لا تترك أحدا، لا جوه البلد ولا خارجها، واحد من جيرانا عمه سافر لابنه الذي يعمل في أمريكا، تلك البلاد البعيدة، وراء بحار ومحيطات، بلد العم سام، بلد قوة، علم وتكنلوجيا، بلد فرص السانحة، يذهب إليها الناس وهم صفر اليدين، لا يملكون ثمن وجبة طعام، يضطرون للعمل في غسل أطباق، وأحيانا يأكلون من صناديق زبالة، وأحيانا ينومون في طرقات، وإذا ما حالفهم الحظ وشغلوا أمخاخهم يصيرون فيها ملياردريات، سافر ليتلقى العلاج من مرض عضال ألم به بعد أن فشلت في علاجه مستشفياتنا الخاصة التي تذبَح الناس ذبح وتخرب بيوتهم وجيوبهم بحجة ارتفاع الدولار، وتفشل في علاجهم، قضى تسعة أشهر هناك، وماذا بعد؟ جاءتهم الأخبار المحزنة، مات عمهم بسبب كورونا، وابنه بين حياة وموت بسببها أيضا).

رد بوعلي بنبرة ساخرة قائلاً:

(يا أخوانا اليومين دي في إشاعة قوية لافه، مفادها أن السيد ترامب رئيس أمريكا صرح بأن الكلوركوين علاج لفيروس كورونا، وطبعا ما فينا واحد إلا وبهدلته وطلعت عينه الملاريا وقددت لحم جعْبته حقن الكلوركوين، يعني إذا صح هذا كلام فلنهتف بأعلى صوت: (شكرا، شكرا عمو ترامبو، شكرا، شكرا باعوضو، باي باي كورونو، نحن أقوى من كورونو، ومن أبو كروكورو)).

رد عظمة بنبرة حانقة قائلاً:

(يا أخوانا أنا عقلي طار من رأسي، بالله هل نحن عائشين في القرن الواحد وشرين، الكمامات الطبية، ما كان في زول سائل فيها عملت ليها رأس وقعر؟ لا تكلف صناعتها شيئا، ولا تحتاج إلى معرفة تكنولوجية عالية، ارتفع سعرها في السوق الأسود من خمسة إلى مائتين وأحيانا ثلاثمائة جنيه، ويقولوا تستعملها لمرة واحدة فقط، كده بالله يا مخاليق الله فهموني كيف يركب كلام فارغ زي ده في المخ؟).

رد غوغل بنبرة لا تخلو من غرابة واستنكار قائلاً:

(كويس إنت عقلك طار من رأسك، يعني في أمل إنه يرجع، أما نحن رؤوسنا خلاص ما فيها عقول، يقولون العاصمة مقفولة، ممنوع التنقل عبر الكباري، والكباري شغالة زي الحلاوة، مصائب قوم عند قوم فوائد، هايس حمولة أربعة عشر راكبا، كل واحد يدفع خمسين جنيهاً من الصينية جهة أم درمان إلى الإشارة جهة بحري، يعني بس يقطع الكبري، يقطع البحر من قيف لقيف، أحسبوها معاي يا شطار، ماشي جايي قول بالميت عشرين مشوار في اليوم، يعني الحصالة آخر اليوم عشرين في أربعة عشر في خمسين تساوي أربعة عشر ألف جنيه، يعني الفاسدون لا يزالون موجودون، الذين يُنَشَئون ويُرَبون على الفساد يستمرئون أكل المال الحرام ومن الصعب إصلاحهم، كلمة السر للمرور بين سائق الهايس ومن يقفون سداً منيعا حماة للكبري من العبور (من طرف فلان)،وطبعاً فلان هو الواسطة بين الاثنين، والحساب ولد، واللبيب بالإشارة يفهم، وطز في من أمر بقفل الكبرى، وطز في كورونا، وطز في طز ذاتها،).

رد بوعلي قائلاً:

(يا أخوانا البلد دي ما فيها حاجة ممنوعة، أدفع بس وأي ممنوع زي ما قال أخونا (عظمة) يطلع كلام فارغ، قالوا التنقل بين المدن الثلاث ممنوع، تدفع مائتي جنيه وهناك من ينقلك عبر أي جسر لأي مكان تريد).

رد عظمة بنبرة ساخرة قائلاً:
(يا أخوانا الكلام الفارغ بالكوم، تصاريح التنقل في السوق على عينك يا تاجر، تدفع ألف جنيه وكل شيء تمام التمام، تصريحك في جيبك، سيد من أسياد البلد، تركب عربيتك بالنهار وبالليل ماشي جايئي، تلف الشوارع زي أي طبيب أو صيدلي أو نظامي، وأنت في الحقيقة ليس أكثر من حتة تاجر في سوق ليبيا).
عدل إسيتيذ من قعدة نظارته بعد أن تألقت عيناه بأنوار خاطفة، ثم خاطبهم قائلاً:
(يا أخوانا أنتم تريدون الحقيقة ولا أختها، كورونا كشفت عيوب كثيرة كانت مستورة، قطاع صحي منهار، خزينة عامة فاضية، ضعاف النفوس لا يزالون يعيثون في الأرض فساداً، العالم يمر بكوارث اقتصادية لا أول لها ولا آخر، كل بلد مشغول بمشاكله، اعتماد على الغير ما في وإنما على أنفسنا، كورونا بهدلت الدنيا بهدلة لا أول لها ولا آخر، دورنا لسه ما جاء، كشفت كورونا أن قطاع الصحة في دول غنية متقدمة ما كان يحظى بالاهتمام المطلوب، جل اهتمامهم منصب على تسليح، تشييد أبراج وناطحات سحاب، وإشعال حروب؛ عدد المرضى تجاوز إمكانات مستشفيات تعاني أصلاً نقصا في مستلزمات صحية، مع تفشي كورونا، ومع النقص الحاد في إجراء الفحوصات، الجائحة استفحلت، الجثث في أوروبا تدفن في مدافن جماعية، تتكدس الجثث في أمريكا في مراكز حجز لنفاد صناديق دفن الموتى، في منازل بالإكوادور العثور على ثمانمائة جثة نتيجة الإخفاق في مواجهة الجائحة، أما نحن لنا الله، مقبلون على أوخم العواقب، ولم لا؟ نحن في غفلة، والحكومة يدها مغلولة، لا شيء لديها غير أن تخرج من وقت لآخر ببيانات لا تسمن ولا تغني من جوع).

(١١)

كورونا ورمضان

شهر رمضان في بيت إسيتيذ مثلما في كل بيوت المسلمين له نكهة خاصة، شهر ظله خفيف، يطل هلاله في العام مرةً واحدة، مع إطلالة كل يوم جديد من أيامه التسع وعشرين أو الثلاثين يتغير حال البيوت؛ تكتسي بهالة من رهبة، خشوع، وجلال؛ تزامن مع أول يوم من أيامه الإعلان رسمياً عن ارتفاع إصابات كورونا إلى مائتين وثلاث عشر، ووفياتها إلى سبع عشر، حظر جميع التجمعات في الولاية، منع الإفطار الجماعي، وقف صلاة الجماعة، تراويح وجمعة؛ بيانات الحكومة تقول أن الوضع مزعج، البلاد دخلت مرحلة الخطر، سبعة وخمسون إصابة جديدة وثلاث حالات وفاة خلال أربعة وعشرين ساعة، بدأ الوباء في الاستفحال في الولايات، الخرطوم ثلاثمائة وأربعة وأربعون حالة، الجزيرة ثلاثة عشر حالة، القضارف ثلاثة حالات، غرب كردفان حالة واحدة، نهر النيل ثلاثة حالات؛ الدولة عليها توفير المعينات للكادر الصحي، وقف السفر، الحظر الكامل مع توصيل المعيشة للناس في البيوت؛ وزير الصحة غير متفائل، الخرطوم محتاجة لطرق أفضل في إدارة الأزمة والتعامل بالجدية اللازمة، الرصيد من الكمامات والألبسة الواقية في الإمدادات الطبية تكفي أسبوعين فقط، انعدام أصناف كثيرة من الدواء، عنابر العزل محتاجة للصيانة، معظم الناس يتجاهلون التوجيهات، غير متصورين لحقيقة أن العالم في أربعة أشهر منذ بداية الجائحة عانى من ثلاثة مليون مصاب، ونصف مليون وفاة، المطلوب منهم الانضباط، لأن المرض ليس له علاج سوى المحاليل المائية وأقراص البندول، والأكسجين في حالة ضيق التنفس؛ السودان له تاريخ طبي مجيد مع الوبائيات، تغلب على الكوليرا، وحمى الوادي المتصدع في وقت قياسي، ويمكنه تكرار ذلك أكثر من مرة.

منذ أن أصبح إسيتيذ واحدا من سكان الحارة لم يحدث وأن تغيب، ولو لمرة واحدة من مائدة الإفطار الجماعي الرمضاني أمام بيت أحد جيرانه، ولكنه في ظل كورونا اكتفى بإرسال رسالة مقتضبة لهم مفادها: (نحن عجائز، وأنتم شباب، وكورونا لا ترحم العجائز، ولم يأمر الله بالهلاك، ورخص الله ممدودة للناس فليأخذوها، ولنرحم أمهاتنا، وآباءنا، وأزواجنا، وأولادنا في البيوت، بألا نخرج من عندهم سالمين، ونعود إليهم ونحن نحمل لهم فيروساً لعيناً).

شجرة (القولدمور) بدت في حلة من إبهار، ألق، وجمال، ولم لا؟ الناظرون إليها بعضهم يرونها صبية تزينت بمسح شفاه مكتنزة بأغلى ما عندها من أحمر شفاه، آخرون يرونها أجمل شجرة في مكان خطأ، لأن مكانها أجمل حديقة في الوجود، آخرون يهيمون مع سحر جمالها، يريحون أعصابهم التي وتْرَتْها جائحة كورونا، وزيادة عليها كابوس التضخم الذي لا يرحم؛ خاطب إسيتيذ أمه التي كانت بين يقظة ومنام بنبرة رقيقة قائلاً:

(يا أمي شجرة القولدمور أمرها عجيب، كل يوم وهي تتجمل أكثر وأكثر، تتوهج أزهارها مع ضوء الشمس توهجا غريبا، الأرض من تحتها تكتسي ببساط أحمر قاني من جراء تساقط أزهارها على الأرض، يا سلام يا أمي، كأنما الأرض من تحتها مصقولة كمرايا، أو مياه نهر جاري).

ردت ووسن يداعب جفنيها قائلةً:

(كلما تزهر هذه الشجرة تذكرني بموت بنتي، وقتها أزهرت إزهارا لم تزهره من قبل، ولن تزهر مثله من بعد).

أتت أم عياله، نظرة إليها نظرة حانية، ثم خاطبتها بنبرة رخيمة قائلة:

(كيف حالك يا حاجة؟ رمضان كريم).

ردت بوجه طلق باسم:

(الحمد لله، الله أكرم يا بنتي، الصوم وين؟ ونحن وين؟ العمر كبر، والبدن ضعف، يا حليل أيام رمضان، شهر التوبة والغفران).
رد بنبرة هادئة قائلاً:
(يا حاجة باب الرحمة في رمضان مفتوح، الحسنة فيه بعشرة أمثالها، من أفطر صائما في رمضان له مثل أجره، دعوة الصائم حين يفطر مستجابة، دعواتنا لك إن شاء الله بصحة، عافية، وحسن خاتمة، يا حاجة من ولدونا ما جاء زي رمضان السنة دي، رمضان كورونا، ما في إفطار جماعي أمام البيوت، ولا في الشوارع، ولا على الطرق السفرية السريعة، لأنه أصلا ما في مسافرين).
ردت أمه بصوت خافت هادئ قائلةً:
(الناس مع بداية شهر رمضان كانوا يتزاورون، يتبادلون التهاني بقدوم شهر رمضان المعظم، يتزاورون وكلام عسل يسيل من ألسنتهم: (يا أهل البيت، السلام عليكم، رمضان كريم عليكم)، (يا أهل البيت الشهر مبارك عليكم)، (يا أهل البيت تصوموا وتفطروا على خير)، ومع آذان المغرب ينطلق صوت مدفع رمضان (بُمْمب، بُمْمب، بُمْب)، وساعة السحر، يسمعون (المسحراتي) يجوب الشوارع ضاربا على دف، أو طبل، أو قطعة حديد منشدا: (يا صائمين رمضان قوموا اسحروا، يا فاطرين رمضان نوموا اتندلوا)، (يا النائمين في المخدة قومة الليل فيها المودة، يا النائمين في المراتب قومة الليل فيها المكاسب، يا النائمين مع العرائس نومة الليل فيها الدسائس)، رجال وأطفال يتجمعون للإفطار في الشوارع، في أماكن تعارفوا عليها، ستات البيوت يتبادلن ملاحات، شربات، وبطيخ، عبر (نفاجات)، أو من فوق أسوار قصيرة تفصل بين البيوت).
ردت أم عياله قائلة:

(يا حاجة الناس منقسمين إلى قسمين، قسم ما جائب خبر ل كورونا، ما جادين، يلعبون بالنار، يضربون بكل الاحترازات عرض الحائط، يتجمعون في الشوارع حول صواني بليلة قراصة وعصيدة، يؤدون صلاة المغرب جماعة بدون التزام بالمسافات المطلوبة، وعلى العكس منهم تماما، مساجد كانت تقيم خيماً رمضانية تركتها، شوارع كثيرة اشتهرت بموائد إفطار جماعي تخلت عنها، كل ذلك بسبب كورونا).

ردت أمه بنبة لا تخلو من تعجب قائلةً:

(يا ناس، كُرْ، كُر من زمن كورونا، زمان لما نركب البص السياحي في رمضان ماشين على أهلنا، ويجيء وقت الفطور ونحن ما زلنا في الطريق، أولاد الحلال يقفون في شارع الظلط يشدون العمم، يقطعون الطريق أمام السيارات والباصات السفرية، عشان يفطروا الصائمين، همهم الأجر، والآن مع كورونا، خلاص، لا سفر، لا باصات سفرية، ولا أجر).

رد وابتسامة تعلو وجهه قائلاً:

(يا أمي رمضان السنة دي حاجة ثانية خالص، لا طعم، لا ريحة، ولا لون بسبب كورونا، مما جاء ما عتبنا عتبة باب البيت، الفطور، الصلوات الراتبة، والتراويح، كلها جوه البيت).

كررت عباراتها التي حفظها عن ظهر قلب، قالتها بنبرة حزينة:

(يا ولدي، الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق الروح البدن ما تنسوا سمبل حنوط، مسك، قرنفل، وريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة حديد خضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

ردت أم عياله بنبرة لا تخلو من مواساة قائلةً:

(نعم يا حاجة جابا الله ويشيله الله، ولكن هل الناس يرفعوا أكفهم، يمسحوا وجوهم، ويقعدوا يتفرجوا عليها؟ ربنا لم يأمر بالهلاك، نعم إذا مرضت فهو يشفين، ومع الإيمان المطلق بأن الشافي هو الله نأتي بالأسباب، كحال أي مريض يذهب للطبيب، ويتناول الدواء، ويدعو الله طالبا منه الشفاء).

رد بنبرة لا تخلو من شعور بمرارة قائلاً:

(يا أمي لأول مرة من يوم ولدونا بسبب كورونا نسمع ببيت الله الحرام يغلق أمام طائفين وركع سجود، ومسجد سيدنا الرسول يغلق أمام الزوار، والمساجد في عموم البلاد الإسلامية تغلق أمام المصلين).

كررت مقولتها بنبرة حزينة قائلةً:

(يا ولدي ده كله من عمل الناس، غضب من رب العالمين، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق الروح البدن ما تنسوا سمبل حنوط، مسك، قرنفل، وريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة حديد خضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

رد بنبرة حزينة قائلاً:

(نعم يا أمي كورونا غضب من الله، الأرض ملئت ظلما وجورا، الكفار يصنعون السلاح الفتاك والمسلمون يشترونه منهم بباهظ الأثمان ليقتل به بعضهم بعضا، الحروب الصليبية عادت أشد من ذي قبل، الأقليات المسلمة مصيرها التقتيل، والتضييق، والتهجير).

ردت في نبرة لا تخلو من حسرة قائلةً:

(يا ولدي زمان سمعته حديث عن الحبيب (صلعم) يقول إن الإسلام في آخر الزمان يعود غريباً كما بدأ غريباً، والآن فعلا عاد غريبا).

ردت أم عياله قائلةً:

(يا حاجة دين المسلمين اليوم باللسان ما بالقلب، ناس الدنيا توهطوا فيها وناس الآخرة فاتوا خلوها، لكن يا حاجه قولي الحمد لله، ولدك قاعد معاكي، تصلوا أوقاتكم سوى، تفطروا فطور رمضان سوى، تصلوا التراويح سوى، زمان لو قعد معاكي عشرة دقائق في اليوم يكون ما قصر).

رد بنبرة لا تخلو من شعور براحة قائلاً:

(الله يكثر خيرك يا بنتي، ما يقدره الله لنا كله خير، إن كان خيرا شكرنا، وإن كان غير ذلك صبرنا، نعم كورونا جعلتنا أكثر قربا من أولادنا وأهلنا، ولكنا في نفس الوقت لا ننكر أننا في شوق عظيم لمساجدنا، لسماع قرآنا، لسماع دروس شيوخنا، لشم مواضع سجودنا، لإخواننا الذين افتقدناهم وافتقدونا).

ثم استطرد قائلا في نبرة ذات معنى قائلاً:

(يا أمي هل ما زال لخبزك الناشف بقية لطيورك الحبيبة؟).

ردت بنبرة مشوبة ببعض من حزن قائلةً:

(يا ولدي كلما نظرت نحو الشجرة (السمحة) بزهورها الحمراء، وسمعتها تغرد بين أوراقها وأغصانها تذكرني خبزها الناشف، بقي منه القليل، لا يكفيها لأكثر من يومين يا ولدي).

وبعد أن مسحت على وجهها بكفها، وتألقت على صفحته أضواء وأنوار، استطردت قائلةً:

(الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق روحي البدن ما تنسوا سمبل حنوط، مسك، قرنفل، وريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة حديد خضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة، يا ولدي أنا إذا حان أجلي وتمت أيامي، وصيتي ليكم، تدفنوني في تراب بلدي، وسط مقابر أهلي، الذين سبقوني، رحلوا من الدنيا، فاتوا خلوني).

مضت أيام رمضان سراعا، حالها كحال كل أيام حلوة، انقضت كأن لم تكن، خشعت فيها قلوب، استراحت بطون، رقدت لُسُنٌ في أغمادها، هجعت عيون حالمة، جالت عيون عابدة في ملكوت الله، تفكرت عقول نيرة في مخلوقات الله، حياة الصائمين كلها سلام، في سلام، في سلام، حتي كورونا كما تقول أمي المؤمنة إيمانا مطلقا بقدر الله، وبقدرة الله، التي لا تحدها حدود: (يا ولدي، كورونا جابا الله وبشيلا الله)، رمضان عموما شهر تواصل اجتماعي بامتياز، يتزاور الناس فيه مع أهليهم وصحبهم، يتناولون فطورهم في أي مكان تنقطع بهم فيه السبل، أما رمضان الحالي، رمضان كورونا، رمضان تباعد اجتماعي بامتياز؛ لم تفارق وجدان إسيتيذ أبدا أشواقه إلى نادي الأماسي الحالمة، كان يسأل نفسه بين فينة وأخرى، كيف هم؟ ماذا يفعلون مع رمضان؟ ماذا تفعل بهم كورونا؟ تجاذبته رغبتان خفيتان، إما الذهاب إلى صحبه في ناديهم بعد صلاة التراويح للترويح معهم، أو البقاء في المنزل تنفيذا للأوامر المنزلية التي تحرم الاختلاط مع الآخرين، في نهاية المطاف تغلبت رغبته الأولى على الثانية، بلا وعي وجد نفسه يتسلل خفية يجرجر رجليه إلى هناك.

رآهم هذه المرة جالسون حول آنية أشربة حلو مر، ليمون، برتقال، شاي، وقهوة، يتسامرون وكأنما محيطهم خال تماماً من بعبع اسمه كورونا.

ألقى عليهم بالتحية من بعيد، وهو واقف على مسافة متر ونصف من أقربهم إليه، ملتزما بتوجيهات كورونا قائلا في نبرة ودودة:

(السلام عليكم، رمضان كريم، وتصوموا وتفطروا على خير، بدون فيروس كورونا، وبدون أي كلام فارغ يا أفندينا عظمة).

رد عظمة بحرارة قائلاً:

(الله أكرم، ربنا يحضرنا رمضان القادم، وبعد القادم، ولا كورونا ولا يحزنون، ولا أي كلام فارغ).

رد غوغل بنبرة ساخرة قائلاً:
(ما تقعد، ولا أحسن خليك واقف في مكانك، أعمل حسابك، نحن كلنا حاملين الفيروس، هذه الأيام كل شيء يتم عن بعد، اجتماعات عن بعد، دواء في صيدلية عن بعد، قعاد في حافلة عن بعد، نوم في البيت عن بعد، وحديثنا الليلة يتم عن بعد).
رد بنبرة مازحة قائلاً:
(شكرا يا شيخ غوغل، يا فردة، ذكرتني يوم انسحابنا التكتيكي، نصائحك فوق العين والرأس، يا أخوانا زمن طويل ما شفناكم، إن شاء الله أنتم وأهلكم طيبين؟).
رد غوغل بنبرة حماسية قائلاً:
(يا صاحبي ذلك يوم أبدا لن ننسى ذكراه، نحن غايتُه ما علينا سويناه، دفعنا ضريبة الثورة، دفعنا ضريبة الوطن).
رد بوعلي بنبرة حادة قائلاً:
(يا سلام ليلة فض الاعتصام كنتم وين؟ أسكتوا ما تقلبوا علينا المواجع، سيبونا من الكلام ده، خلونا نشوف قصتنا مع كورونا، يا أستاذ كيف نكون طيبين؟ وكورونا مسخت علينا رمضان، ومسخت علينا حياتنا كلها، ما عارفين نسوي معها شنو).
رد عظمة بلهجة لا تخلو من ضيق وبرم قائلاً:
(كلام فارغ، ما قادرين نصِل أهلنا ولا أصحابنا في حارات بعيدة شوية، المشي لها بالأرجل مستحيل، أرجلنا فيها (كركاسة)، تغربل يمين وشمال، خلاص تخشبت وسوست).
رد غوغل قائلاً:
(يا أخي أركب ركشة، ريح بالك، القروش دي مخزنها لي متين؟).
رد قائلاً:
(يا فالح مشوار الركشه بي كم؟ ثلاثمائة جنيه، الجنيه ينطح الجنيه).
رد قائلاً:

(يا شاطر المسكين صاحب الركشه عشان يكب بنزين يلف كم محطة خدمة؟ يقيف في الصف كم ساعة؟ وبعد داك يدفع مائة ستة وعشرين جنيها ثمنا للجالون بالسعر التجاري بدلاً عن ثمانية وعشرين جنيها فقط كان يدفعها بالسعر العادي، يعني بالحساب البسيط يا عرة الشطار الزيادة أربعمائة وخمسين في المائة؟ يعني لو المشوار زمان مائة جنيه حسابه هسي مع المجاملة أربعمائة وخمسين جنيه).

رد بوعلي بنبرة متحسرة قائلاً:

(يا أخوانا فعلا مصائب الدنيا كلها نزلت علينا، البنزين العادي ولبن الطير حاجه واحدة، عشان تكب بنزين تجاري تقِيف في الصف في نهار رمضان من الصباح حتى منتصف الليل، ويمكن تكب ويمكن ما تكب، لأنه الصف ملخبط، ما معروف رأسه من قعره، الواسطة والمحسوبية يلعبان دورهما، أي واحد يعمل نظامي يلبس كاكي ويجيء تووش يدخل، معززا مكرما يكب ويفوت، أفراد عصابات النيقرز يأتون من داخل سوق الخردة والحديد، يخطفون هواتفاً، يكسرون زجاج سيارات، أصحاب السيارات يلجئون إلى ما ليس منه بد، يطلقون أعيرة نارية في الهواء تحذيرا وتخويفا لأنهم يعلمون أنه إذا ما قدر الله وأصيب أحد المجرمين، الكاكي والقضاء يكشران عن أنيابهما، وتنقلب الآية، المجرم هو الضحية، والضحية هو المجرم، يروحون في النهاية في ستين ألف داهية؛ سبحان الله، بلد عجيبة، المحير مع ده كله بقدرة قادر، في ظل حظر، في ظل عدم تنقل ينشأ سوق جديد بالقرب من هذه البنزينة، فيه كل ما تشتهي وما لا تشتهي نفس الصائم، أسعارهم حدث ولا حرج، صحن عصيدة مائة جنيه، جك سعة أربعة أكواب كبيرة مائة جنيه، كل شيء سعره خرافي، فوق التجاري).

رد عظمة في مرارة قائلاً:

(يا أخوانا كلام فارغ كثير، مستشفيات، مراكز صحية، وعيادات خاصة خارج الخدمة، يعني انهيار كامل في القطاع الصحي، مرضى السكري والأمراض المزمنة الله يكون في عونهم، جارتنا (التومة) جاها التواء في المصران أهلها لفوا بها المستشفيات بدون فائدة، في النهاية اضطروا يدفعوا مبلغ أربعين ألف جنيه لمستشفى خاص لإجراء عملية، العك كثير، سيارات إسعاف واقفة في محطات بنزين، كمامات معدومة، ألبسة واقية غير موجودة، دعم يأتي من الخارج بالدولار، السؤال أين يذهب هذا الدعم وأين يصرف؟ للأسف ما في شيء تغير، كلام فارغ في كلام فارغ).

رد بوعلي بنبرة ضاحكة قائلا:

(الحكاية يا سيد عظمة مش كلها كلام فارغ في كلام فارغ، ما تنسى في شوية حاجات حلوة).

رد في نبرة حانقة سائلا:

(حلوة زي شنو يا شاطر يا كسار الثلج؟).

رد قائلاً:

(يعني ما شائف الخبز متوفر، ما في صفوف، ولا عامل فيها أعمى؟).

رد في حدة قائلاً:

(يا عبيط لا تفتكر أن صفوف الخبز اختفت إلى الأبد، اختفت ليس بسبب توفر الدقيق، وانضباط الأفران، وإنما بسبب رمضان، رمضان شهر الخيرات والبركات، الناس فيه تأكل عصيدة، قراصة، ويمكن ما تأكل، ما في زول محتاج لرغيفك المهبب ده).

رد عليه بنبرة ساخرة قائلاً:

(متين يا أفندينا بطونا تشبع، ومتين يا أفندينا لربنا نشكر ونخشع؟).

عدل إسيتيذ قعدة نظارته ورد بنبرة لا تخلو من حزن قائلاً:

(يا جماعة كونه البطون تشبع هذا أمل بعيد المنال، ولكن خلونا في عيد الفطر الواقف على الأبواب، وكيف سيكون في ظل كورونا، وأزمة اقتصادية، والناس على الحديدة، الحال يغني عن السؤال، لا يعلم به إلا الله، الحمد لله على الصبر، الصبر يستحي من صبرهم، في الماضي منحهم الله قدرة على تخطي الصعاب، في الحاضر الماثل لم ينهاروا، واقفين على أرجلهم رغماً عن قساوة الأيام، رمضان الماضي في نهايته شَهِدَ جائحة فض الاعتصام بالقوة، شهد كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى وحش كاسر، حينما يتخلى عن قيمه وإنسانيته نظير المال، أرواح الناس ما كانت لها حرمة، صائمين أو غير صائمين، سُفِكت دماء، مُثل بجثث ورمي بها في النيل، مُورِست كل أفعال قذرة قبيحة لا ترضي الله ولا الرسول، ولا عاقل أو مجنون؛ شَهِد المتاريس الغاضبة الرابضة على مداخل ومخارج الشوارع، شَهِد دموعاً تجري على وجوه مضيئة بنور الإيمان، شَهِد أحزاناً تخيم على البيوت، شَهِد موت العيد في عيون الناس وتبخره في الهواء؛ أما رمضان الحالي فها هو يشهد كورونا، الفيروس يدخل بيوتاً، يفتك بأرواحٍ، يترك الناس سكارى وما هم بسكارى، وكما في رمضان الماضي يموت العيد في عيون الناس ويتبخر في الهواء، حكاية عجيبة الموت هذه الأيام يحصد أرواح الناس ب كورونا وبدون كورونا، العيد يضيع ويتلاشى بين قوسين، (فض الاعتصام وكورونا)، مسكينة أنت يا بلاد السمر، مصيبتك ليست في ظلم أشرارك، وإنما في صمت أخيارك).

تأوه في حسرة، هب واقفا، استطرد قائلاً في نبرة مفعمة بحزن، أسى، يأس:

(السلام عليكم، تصبحون على خير، إن فضل فيها خير).
جرجر رجليه في طريقه إلى داره، وفيض من رؤى وأفكار يتدفق على وجدانه، شرد كما كان يشرد دائماً:

(متى يأتي عصر نهضة في بلد السمر كما جاء في ماليزيا؟ متى يأتي على ظهر صندوق انتخابات مهاتير أسمر مثلما جاء مهاتير أصفر؟ المعضلة هناك كانت نفس المعضلة عندنا هنا، شعبان لا يريدان أداء أي عمل صعب، كسالى لا يستحقون ثقة الآخرين؛ ولكن عند مهاتير التخلف مرتبط بسياسات حكومية خاطئة، مرتبط بعلاقة دين وعلم، الدين عامل إيجابي وليس سلبي، الطبيب يصف الداء لمريضه بدون مجاملة، يجب أن يصارحه بمرضه لكي يرتب المريض أمور حياته بناءً على ذلك، يجب عدم الكذب عليه، وهذا ينطبق على السياسيين، وعندئذ فقط يستطيعون تغيير الأمور؛ مهاتير عمره ثلاثة وتسعين عاما وما يزال يعمل، يعود ذلك إلى أسلوب حياته ونمطها ونمط غذائه، يقول: إن الحياة هبة من الله وعلى الإنسان أن يشعر بقيمتها، ويقوم بتقدير هذه الهبة بأن يعمل ويظل يعمل ما دام في جسده عرق ينبض بهذه الحياة، الإنسان يعيش عمره، وطوال هذا العمر لا بد من أن يعمل شيئا ما لأمته، لشعبه، لنفسه، وللآخرين؛ يقول: دون انضباط لن يكون نجاح، المطلوب دائما حكومة أمينة ونظيفة، تتبادل الخبرات مع غرب وشرق، تقلل التضخم لزيادة قيمة العملة الوطنية، في ظل التضخم سوف تزداد الأمور سوءً؛ تولى حقيبة وزارة التعليم في بلاده، بحكم أنه صاحب رؤية، رؤيته أن العلوم والآداب هي الطريق الأسهل للحصول على الشهادة الجامعية، ومجالات الطب والهندسة تحتاج إلى وقت أطول، الأمة تحتاج إلى

التركيز على الدراسة العلمية التطبيقية خصوصا وأن مجالات تكنولوجيا المعلومات والإلكترونيات بدأت في الظهور، التصنيع يحتاج إلى مهندسين أكثر من خريجي جغرافيا، هذه الوزارة تلعب دورا كبيرا في نهضة الأمة، تجعل الناس قادرين على اتخاذ قرارات أفضل؛ أول ما قام به بعد توليه رئاسة الوزراء درب كل وزير على القيادة والإدارة وألزمهم بتدريب الآخرين، ألزم كل وزير على إتقان اللغة الإنجليزية لغة العلم والتكنولوجيا، بعد ثلاث سنوات بدأت السوق تتغير، بعد خمس سنوات ارتفع دخل الموظف ولم يعد يحتاج لرشوة).

(١٢)

كورونا والعالم

العالم زهق واختنق من حاجة اسمها كورونا، لا لقاح ولا دواء حتى الآن، عدد الإصابات ارتفع، وكذلك عدد الأموات، حتى بداية الثلث الثالث من شهر رمضان وصل عدد الإصابات والوفيات أعدادا مهولة، أكثر من أربعة ونصف مليون إصابات وثلاثمائة وأربعة ألف وفيات؛ في بعض الدول، الولايات المتحدة الإصابات بالملايين والوفيات بالألوف، بريطانيا، الصين، ماليزيا، ودول أخرى، إصابات ووفيات بالألوف، والسودان ألفين إصابات وتسعين وفيات؛ العالم يرصد أموالاً طائلة، خبراء وعلماء يصلون الليل بالنهار وهم يعكفون وينكبون على أجهزتهم، داخل مختبراتهم، يتنافسون فيما بينهم ويسابقون الزمن لإنقاذ البشرية مما أصابها، يقولون: (لا أمل في لقاح ولا دواء إلا في بدايات العام الجديد)، يعني بالعربي، بالإنجليزي، بالصيني، يحتاجون إلى أشهر طويلة؛ الدواوين الحكومية مغلقة الأبواب، المصانع آلاتها معطلة لا تدور، إنتاج البترول يغرق الأسواق، أسعاره تهبط إلى الحضيض، إلى مستويات تنذر بشرر مستطير؛ الناس محبوسون في بيوتهم، توقفت عجلة الحياة تماما، المدن تحولت إلى مدن أشباح، بعض الشركات أعلنت إفلاسها، بعض الدول خفضت من مصروفاتها. كساد! انهيار! دمار! الفيروس يغير شكله، يتطور كأي مخلوق آخر، فيروس كورونا الصين يختلف عن فيروس أوروبا، وعن فيروس أمريكا الجنوبية... وهكذا؛ الأرقام تقول إن موتى كورونا ستة وثمانين في المائة منهم من أوروبا وأمريكا، وستة عشر في المائة فقط من العالم الفقير. ثم انقلب الوضع، شهد الجزء الشمالي من العالم انحسارا في الإصابات بينما شهد الجزء

الجنوبي انفجارا في الإصابات، المسألة غير مفهومة؛ هل الفيروس يلعب مع البشر لعبة القط والفأر؟ الخبراء والمختصون يقولون أن إنتاج لقاح أو دواء قد يستغرق على الأقل تسعة أشهر، وليس لديهم ما يقدمونه للمرضى الآن، وحتى ذلك الوقت المطلوب فقط تطبيق إجراءات وقاية وتباعد اجتماعي؛ هناك أمور سرية غير مفهومة تجري في الخفاء، ثلاثة أطباء يسقطون من النوافذ في روسيا بسبب انتقادهم لسياسات بلادهم بخصوص كورونا، باحث صيني تخصص كورونا وجد مقتولا في شقته بإحدى المدن الأمريكية؛ البشر الذين يعبرون بسلام من القرن العشرين إلى القرن الواحد وعشرين سيكونون محظوظين ومتمتعين بقوى خارقة في ظل تهديدات وتحديات ماثلة، ومن ينجو من فيروس كورونا يقف له بالمرصاد فيروس الجائحة الاقتصادية؛ المسلمون من ميانمار مرورا بفلسطين وحتى آخر بقعة في الأرض يعيشون فيها، سوف يعانون أكثر من غيرهم من عقدة إرهاب وصموا بها ومن إرهاب ضدهم، بيع السلاح للمسلمين من قبل صانعيه بالكاش، وبالدين، ومجانا سيستمر بشكل أكبر وبوتيرة أسرع ليفني بعضهم بعضا في حروب بالوكالة، العالم فقد كل شيء له صلة بقيم سماوية وأخلاقية، بعدل، بسلام، وبحرية، زعماء العالم، في غفلة وضلال، يستهويهم سماع طبول الحرب بدلا من طبول السلام.

الحارة لم تعد هي حارته التي يعرفها أهلها، شوارعها خلت من المارة، أطفالها يقبعون داخل بيوتهم لا يستمتعون بمطاردة كرة، ولا مشاغبة طيور، ولا كلاب، ولا قطط، مساجدها ترفع آذانها، ولكن أبوابها لا تفتح لمصلين، أحبابها وروادها في أشد الشوق إليها، ميادينها قيعان من سراب لا فيها لاعبون ولا متفرجون، مخابزها التي كانت تضيق بالمتزاحمين تنادي: (يا أهل الله أما من مشترين؟).

تحدث أحيانا أشياء يظن أهل الحارة أن وقوعها ضعيف الاحتمال، قريب من المستحيل، طبعا يبنون ظنونهم وتكهناتهم على معطيات لا يستطيعون التحكم فيها، ومن تلكم أن يجتمع إسيتيذ، الفيلسوف، غوغل، خلودي، بوعلي، عظمة، وسناري في مكان واحد، ولكنه حدث بالفعل، حدث بصدفة بحتة، حدث بدون تخطيط أو ترتيب مسبق، نعم جمع نادي الأماسي الحالمة هؤلاء البشر في ليلة ما، في ساعة ما، في لحظة ما من أواخر شهر رمضان، وكورونا تخف حدتها في بلد ما، وتزيد في بلد ما، وما من بلد ما بمنجاة منها.

ازداد عدد مرتادي نادي الأماسي في تلك الليلة بانضمام بعض وجوه جديدة، نسق جلستهم تغير قليلا، بعضهم يفترشون بساطا من البلاستيك وهم يتحلقون حول آنية أطعمة وأشربة رمضانية، بعضهم يجلسون كالعادة على حجارة بلوك وصناديق، وبعضهم يقفون على أرجلهم التي بالكاد تتحمل ثقل أجسادهم التي هدها تعب، رهق، وبؤس حياة، يتكئون بظهورهم على حائط المبكى؛ الجالسون والواقفون وجوههم تفيض ببشر رمضاني، غذاء الأرواح عندهم أعظم من غذاء البطون، إنهم يركلون بالشلووت متاع دنيا رخيصة رخص البني آدم في هذه الأيام، ويلعنون جد وأب وأم كورونا، ويؤمنون إيمانا مطلقا منقطع النظير بقدر الله.

خلودي ببسمته الهادئة وبرزانته التي تبدو كالمصطنعة أحيانا خاطب إسيتيذ بنبرة هادئة ودودة قائلاً:

(كنت في طريقي إليك يا عزيزي للاطمئنان على أحوالك وصحتك، مضى وقت طويل ولم نتقابل، الناس محبوسون في البيوت، والبيوت زهقت منهم، ورمضان وكورونا لا يتفقان، رمضان شهر لمة وتواصل اجتماعي، وكورونا فرقة وتباعد اجتماعي، والمكتبة كما تعلم يا عزيزي هجرها زبائنها، بنت فيها عنكبوت (أم شبتو)، وسكنتها فئران وعقارب).

رد إسيتيذ وسحابة من بهجة ترف على محياه قائلاً:
(بارك الله فيك يا أخي، هكذا يا عزيزي تكون الصداقة الحقة).
تنحنح الفيلسوف نحنحته المعهودة عندما ينوي بداية الحديث ورد بنبرة لا تخلو من إحساس بانشراح قائلاً:
(اليوم نحن في أمسية رمضانية جميلة، أصابني ملل من طول القعاد في البيت، ناس البيت ملوني وملوا كلامي الكثير، قلت أطلع أخفف ثقل دمي عليهم شوية، وكمان أشم شوية هواء، وقادتني خطاي غصبا عني إلى هنا).
رد غوغل بحسن نية، متناسياً أن الفيلسوف من هواياته تفكيك وتركيب الكلام على مزاجه، وإخراج معاني لا تخطر لإنسان على بال قائلاً:
(يا ناس هوي زمن الأخوة في الله ولى إلى غير رجعة، إلا قليل من قليل من قليل، الزمن زمن مصلحة، ما دام في مصالح متبادلة الناس أحبة، وإذا زالت هذه المصالح الناس يمدون بوزاً، يَصُرون وجهاً، ويتنكرون لبعضهم البعض).
رد الفيلسوف بلهجة حاسمة وصارمة وهو يهز رأسه في استنكار قائلاً:
(يا ولد هوي أوزن كلامك، الدنيا لسه بخير، نحن كبار السن ما زلنا على عهدنا السابق، خوتنا وصداقتنا كلها متينة زي الفولاذ، مش زيكم هشة زي البسكويت).
ابتسم له اتقاءً لشره ثم رد عليه بكياسة قائلاً:
(الله يحفظكم يا حاج، ويحفظ مشاعركم الطيبة، وأيامكم الحلوة).
رد بوعلي بنبرة ضاحكة قائلاً:
(قال أيام حلوة، حلوة قال، وين ثاني أيام حلوة مع كورونا، وين ثاني تلقوه زي ده؟).
رد إسيتيذ في حسرة قائلاً:

(يا أخوانا كبروا أمخاخكم شوية، خففوا دمكم شوية، الناس بي مصالح بدون مصالح متعايشين مع بعض، الناس قالوا خلاص كورونا صارت حقيقة واقعة لا منجى منها، إلا بعد اكتشاف دوائها ولقاحها، البشر حتى ذلك الوقت مجبورون على التعايش معها، كما يتعايشون مع بعضهم البعض، مع سرطان، إيدز، سكري، ضغط، وفشل كلوي، يعني الحياة تمشي براحتها وكورونا كمان تشتغل براحتها، ويعيش من يعيش ويموت من يموت، يعني بصريح العبارة العالم الآن غريب بجدارة، كورونا غصبا عن عين الناس، شاءوا أم أبوا تعيش وسطيهم، تأكل وتشرب معهم، وتشرب من دمهم).

رد خلودي قائلاً:

(يا أخوانا، معقول! فيروس كورونا هذا المخلوق التافه الذي لا يرى بالعين المجردة يلخبط الدنيا بالشكل ده، الموت وعرفناه، كمان بسببه دخل العالم في صراع ما معروف نهايته تصل إلى أين، أمريكا وحلفاؤها من جهة، الصين وحلفاؤها من جهة ثانية، الأمريكان يقولون إن في الموضوع إنّ، كيف بعد ثلاثة أسابيع من ظهور الوباء يخرج الألوف من يوهان إلى أمريكا وأروبا، ويمنعوهم في نفس الوقت من الذهاب إلى بكين، الصينيون يضللون العالم بادعائهم أن الفيروس لا ينتقل عن طريق البشر، الصينيون هم السبب، ولذلك يتحملون المسئولية، ولا بد من محاسبتهم ومعاقبتهم على تصديرهم الموت إلى العالم).

رد إسيتيذ قائلاً:

(يا أخوانا الروايات كثيرة لدرجة أنك لا تستطيع أن تحدد الظالم من المظلوم، تحدثت بائعة مأكولات بحرية في سوق مدينة يؤوهان بالصين حيث ظهر الفيروس لأول مرة، هذه المرأة التي تبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً، من أوائل المرضى السبعة وعشرين الذين أصيبوا بالفيروس، اعتقدت أنها أصيبت بالعدوى من مرحاض عام في

السوق، لامت سلطات بلادها على عدم التصرف بسرعة عندما بدأت الحالات الأولى للمرض في ذلك السوق، بعد أن بدأت أعراض المرض تظهر عليها لأول مرة ونقلت للمستشفى وصف الأطباء وضعها بالخطير جدا، وأخبروها بأن هذا المرض لا يرحم، وبعد فترة من دخولها المستشفى انضم آخرون من نفس السوق إليها، تعافت بعد ذلك وخرجت من المستشفى، وقالت أن السلطات الصينية أجبرت الأطباء على الصمت، وعدم الحديث عن المرض).

رد عظمة قائلاً:

(يا ناس ده كله كلام فارغ في فارغ، الفاشل دائما يحاول أن يبحث له عن شماعة يعلق عليها فشله، الفشل داخل أمريكا ذاتها وليس بسبب الصين، تأخروا في معالجة الوباء نتيجة للعك بين رئيسهم وحكام ولاياتهم، وبعدين كلنا نعرف منذ ظهور الصين كقوة عسكرية واقتصادية يعمل لها ألف حساب وأمريكا لها بالمرصاد، يعني كورونا فرصة ذهبية لهم لتصفية حساباتهم القديمة والجديدة، يعني أمريكا عاملة نفسها قط والصين فأر، الكلام ده كان زمان، تلاحقت الكتوف، وقل المعروف؟).

رد غوغل بنبرة ساخرة قائلاً:

(يا أفندينا عظمة، يا أبو مخ تخين يعني القط المكار أمريكا، والفأر المسكين الصين، وكورونا العجاج والغبار، أمريكا تقول للصين في عرض البحر: (كتحتينا يا أم عوينات صغار، كتاحة تخمك وتجيب أجلك)، يا أخوانا لا يوجد اثنان عاقلان يختلفان في أن أمريكا هي أقوى قوة عسكرية في العالم، ولكن الصين بالانضباط والتكنولوجيا هي التي انتصرت على الفيروس، عدد وفيات الصين حتى الآن في حدود أربعة آلاف، وعدد سكانها في حدود مليار وشوية، بينما وفيات أمريكا في حدود ستة وثمانين ألف وعدد سكانها في حدود ثلاثمائة مليون فقط).

رد خلودي قائلاً:
(يا أخوانا، القصة هائصة غير مفهومة، نعم أمريكا تمتلك تكنولوجيات لا تمتلكها الصين، ولكن من يمتلك تكنلوجيا جي فايف الصين وليست الولايات المتحدة، والصين الآن تأتي طائراتها بالمساعدات إلى الولايات المتحدة، وإلى الدول الأوربية).
قاطعه إسيتيذ بنبرة مستنكرة قائلا:
(هذا الكلام مشكوك في صحته، الصين لا تحتكر هذه التكنلوجيا لوحدها، شركات بل جيت وآخرون يعملون بخطى حثيثة لتطويع هذه التكنولوجيا واستخدامها في مآرب لا تخطر لكم على بال، يحاولون بكل السبل زراعة شرائح في جسم الإنسان لتتبع حركاته، يعني ثاني ما في حاجة اسمها خصوصية، القاتل مرصود، العايز يتغوط مرصود، العايز يتبول مرصود، يعني العالم سيصبح عالم نظيف، خالي من حاجة اسمها جريمة ومجرمين).
رد عظمة بلهجته الساخرة قائلاً:
(كلامكم ده كله كلام فارغ في فارغ، في زول لا يعلم إنه عنده ملكين رقيب وعتيد يراقبونه، يسجلون ويحصون عليه أعماله وأفعاله التي سوف يحاسب عليها يوم القيامة؟ ومع ذلك المجرم ماشي في الماشي فيه، المجرم مجرم، لا رقيب ولا عتيد ولا جي فايف يجيبوا في رأسه خبر).
رد غوغل بلهجة أكثر سخرية قائلاً:
(يا أبو مخ تخين، في ناس حكاية رقيب وعتيد دي ما داخلة في رؤوسهم لأنهم لا يؤمنون بها، لا يؤمنون بحاجة اسمها غيبيات، الحكاية عندهم موت وخلاص، ما في قيامة، يخافون من حساب وعقاب الدنيا فقط، وديل هم الذين يخافون من جي فايف وشرائحها، لأنهم خلاص مكشوفين ومراقبين، يعني قبال ما يعملوا العملية يكونوا في التخشيبة).

رد غوغل قائلاً:
(يا أخوانا أزيدكم معلومة، وشر البلية ما يضحك، يسخر الصينيون من الأمريكيين ويقولون: (لو وقفنا تصدير الأحذية لهم لمدة ستة أشهر بس، نمشيهم حفيانين)).
رد خلودي بنبرة ضاحكة قائلاً:
(يا أخوانا الصينيون ذهبوا لأكثر من ذلك في المسخرة برعاة البقر (الكاوبويات)، قالوا: (حتى علمهم الأمريكي الذي يرفرف فوق بيتهم الأبيض مصنوع في الصين)).
رد غوغل ساخرا قائلاً:
(يا ناس هوي أمريكا دي ماشه لي وين؟ المترو في نيويورك تعطل وظل معطلا لمدة ستة أشهر، الناس يتهامسون: (ماذا أصاب أمريكا، ستة أشهر تكفي لبناء ناطحة سحاب في الصين)).
رد عظمة قائلاً:
(أمريكا كلام فارغ في كلام فارغ، من العشرة بنوك الأولى في العالم خمسة بنوك صينية، يعني أمريكا ما عندها حاجة تعملها غير البلطجة على الدول المغلوبة على أمرها، لكن الصين يا جماعة حاجة ثانية، ألمي حار، ما لعب قعونج).
رد السناري بنبرة مستنكرة قائلاً:
(يا راجل استحي، كَبِرْ مخك شوية، أمريكا هي التي تصنع الصين بالسماح للشركات الأمريكية بالاستثمار هناك، وهي قادرة على إجبار شركاتها على سَحْب استثماراتها من هناك وضخها في أماكن أخرى مثل الهند، البرازيل، بنغلاديش، والمكسيك، شركة هاواي الصينية العملاقة ما تزال تعتمد في صناعة الهواتف الجوالة على التكنولوجيا الأمريكية، الصين حاليا تطلب من شركة بوينج الأمريكية صناعة ألف ومائتين طائرة جديدة لتحديث أسطول طيرانها المدني).
رد عظمة قائلاً:

(قال استحي قال، إنت الأوْلَى أن تستحي على كلامك الفارغ ده، لعلمك بعد تحكم الصين في كورونا زادت إنتاجها من كمامات ومستلزمات طبية زيادة كبيرة، توسعت في استخدام الذكاء الصناعي واقتصاديات المعرفة، استخدمت الروبوت الصناعي بكثافة في مواجهة فيروس كورونا، أنتجت سيارات وقطارات بدون سائقين، صنعت قطار بسرعة ألف ومائتين كم في الساعة، استثمرت في طريق الحرير، وفي الذكاء الاصطناعي، وفي اقتصاد المعرفة، ثمانية تريليون دولار أمريكي).

رد غوغل بنبرة لا تخلو من شعور بنزوة انتصار قائلاً:

(ينصر دينك يا أفندينا عظمة، كلامك الكُبَار كُبَار ده ورينا جِبْتُه من وين، نزيدكم علماً، العم ترامب هاجم الصين، قال إنه كان بإمكانها أن تقلل حصيلة الكارثة لو تصرفت بسرعة ولم تجبر الأطباء على الصمت، هاجم منظمة الصحة العالمية باتهامه لها بأنها في البداية قالت أن الفيروس لا ينتقل من إنسان لآخر، ثم فيما بعد أعلنت أنه وباءً عالمياً، طبعا أنتم عارفين عمنا ده لا تهمه صحة عالمية، ولا يونسكو، ولا يحزنون، كل هذه الأمور ثانوية، هو يريد كبش فداء، هو في حالة هستيريا، كثور هائج في سوق العدة بسوق أم درمان، هاجم الجميع جوه أمريكا وخارجها عشان يغطي على فشله).

رد الفيلسوف بنبرة هادئة رزينة قائلاً:

(يا أخوانا الحكاية ليست بهذه البساطة، الحكاية معقدة أكثر مما تظنون، المعركة بين أمريكا والصين لها جذور عميقة، كل واحدة منهما تريد أن تتزعم العالم، وطبعا أمريكا لن تسمح لأي دولة بمنافستها ناهيك من إزاحتها، أمريكا تدعي بدون أدلة أن الفيروس صنع في المختبرات الصينية، ولكن المرجح عند العالمين ببواطن الأمور أنه نشأ بشكل طبيعي، مع العلم أن العلماء الصينيون استطاعوا عزل وتحديد جينات الفيروس، وأتاحوه بسرعة، بحيث يتمكن

الآخرون من تطوير الاختبارات بشكل مستقل، للكشف عن المرض، أمريكا تهاجم منظمة الصحة العالمية وتتهمها بالانحياز إلى الصين، أمريكا سيدة العالم تتوعد الجميع بحساب وعقاب، وبغض النظر عن كل الأخطاء والعيوب فإن توعدها فيه كثير من الغرور، العالم في الظرف الحالي في أشد الحاجة لتضافر الجهود بدلاً من تضييع الوقت في حديث أجوف، للأسف لا يقدم ولا يؤخر).

رد غوغل قائلاً:

(يا أخوانا أمريكا التي تباهي العالم بتمسكها بقيم الديمقراطية أصبح حالها حال، طبيب انتقد الرئيس طردوه من البيت الأبيض، الرئيس يعادي بضراوة الصحافة الحرة لأنها تنتقده، مواطن أمريكي قال ما بنيته في أربعين سنة فقدته في ظل كورونا في أربعين يوم، مسئول أمريكي يقول نخطط مع كورونا للأسوأ، نخطط على أنها ستستمر لسبعة، أو ثمانية أشهر، أو أكثر من سنة).

رد أحد الضيوف قائلاً:

(يا أخوانا حياة الأمريكان بدت تضيق عليهم، الناس ديل عندهم نمط حياة معين، لا يستطيعون العيش بدونه، قيمة العمل عندهم عالية، من لا يعمل تسحقه الأقدام ويموت من الجوع، لذلك شهدت بعض الولايات تظاهرات عنيفة احتجاجا على وقف الأنشطة الاقتصادية بسبب كورونا).

تشجع ضيف آخر وخاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا حكاية المظاهرات دي، عدوى انتقلت من أمريكا إلى أوروبا، الأوربيون يطالبون برفع إجراءات الحجر الصحي والتباعد، اقتصاداتهم أضعف من أمريكا ولذلك مساعدات الحكومة لا تصل لكل الناس، والناس يعتبرون الإجراءات الاحترازية، إجراءات بوليسية وألاعيب، لأنه أصلا لا توجد كورونا).

رد خلودي قائلاً:

(يا أخوانا الخواجات ديل الدرب راح ليهم في الميه، المسألة ليست بهذه البساطة، الخبراء يقولون: (مع الانفتاح الذي يريدونه لازم يتخذوا ثلاثة إجراءات: عزل كامل، مناعة قطيع، يشتغل الشباب بنظام الورديات، والكبار وأصحاب الأمراض المزمنة يعزلون أنفسهم في البيوت)، مع التحذير من أن الشتاء القادم ربما يحمل موجة برد أكثر خطورة، يعني الدنيا حقتهم ماشه تبوظ أكثر).

رد عظمة قائلاً:

(يا ناس خليكم عاقلين شوية، سيبونا من الكلام الفارغ ده، سيبونا من أمريكا والصين والخواجات، حريقة فيهم، حريقة تحرقهم الثلاثة، ما جاءنا منهم إلا الهم والغم، خلونا في المشكلة التي تواجه العالم حالياً، وهي المفاضلة بين حاجتين: إما أن يستمر الحظر في البيوت حتى لا يحدث الاختلاط بين الناس ويؤدي إلى سرعة تفشي الوباء بينهم، مع شلل كامل للنشاط الاقتصادي وأجهزة الدولة، وإما أن يعود النشاط الاقتصادي ولو تدريجيا مرة أخرى، مع أخذ كل الاحتياطات والاحترازات في الحسبان، وطبعا ده معه خسائر في الأرواح).

رد إسيتيذ قائلاً:

(طيب يا سادة، يا أهل المفهومية، نأخذ مثال واحد شركات الطيران ح تعمل كيف في ظل كورونا؟ عليها أن تقوم بإجراءات احترازية قاسية، منها فحص على الركاب بوسائل حديثة قبل وبعد السفر، تعقيم الطائرة قبل وبعد الرحلة، عمل كشف صحي على الركاب، التأمين عليهم، توفير كمامات وقفازات، الالتزام بالمسافات الآمنة بين الركاب مما يعني نصف الكراسي تكون خالية من الركاب، كل الأمتعة بما فيها أمتعة اليد تخضع لفحص بأجهزة حديثة، من يتحمل تكلفة كل هذه الإجراءات؟ قطعا لن تتحملها شركات الطيران لأنها تعمل لأجل الربح وليس الخسارة، من يتحملها في النهاية هم الركاب، وقطعا لن يكون هناك ولا راكب واحد، ولا رحلات، لأن ثمن التذكرة سيكون خرافي مسخرة).

رد بوعلي قائلاً:
(يا أخوانا مالكم مصرين تلخبطوا رسينا وتجننونا، الكلام الفارغ ده مش ح يكون قاصرا على شركات الطيران بس، يعني معنى الكلام ده الباصات السياحية ح تكون مجبورة تعمل احترازات، وبعدين تذكرتها تحصل كم؟ المواصلات الداخلية تعمل احترازات، وبعدين تعريفتها تحصل كم مع بنزين تجاري؟ الركشه تحمل راكب واحد بس، سعر المشوار يحصل كم؟ خلاص يعني كورونا ح تجيب عاليها واطيها، الله يكفينا شرها وتصوموا وتفطروا على خير).
رد خلودي قائلاً:
(يا ناس والله كورونا أمرها عجب عجاب، لا تفرق بين صغير وكبير، ولا غني وفقير، ولا مسلم وكافر، السعودية الغنية التي كانت تنتج اثنتا عشر مليون برميل نفط يوميا حالها يغني عن سؤالها، مرتبات عاملين القطاع الخاص خفضوها بنسبة أربعين في المائة، يعني العمالة الوافدة تشيل شيلتها، إما يقعدوا شغل بالبطون، أو يعودوا إلى أوطانهم ينضموا إلى جيوش جرارة من عاطلين، في ظل كساد اقتصادي ضرب كل أرجاء الدنيا).
التفت غوغل نحو إسيتيذ وسأله قائلا:
(ولدك في السعودية مع الأخبار العجيبة دي عامل كيف؟).
رد قائلاً:
(والله أخباره غير مطَمْئِنة، ولكن خلونا من أمريكا والصين والسعودية وتعالوا نشوف الحاصل في بلدنا ال ما عارفين ليها رأس ولا قعر دي، اقتصادنا قبل مجيء كورونا كان منهارا، رصيدنا من العملات الأجنبية عداده قرب يصفر، ميزان مدفوعات صادرات وواردات معجِز، ليه ما يعجِز وشركات الكاكي شبه محتكرة لصادرات البلاد من اللحوم، عددها أكثر من أربعمائة شركة، وطبعا تختلف من باقي الشركات، لها ميزاتها، وضعيتها، ومكانتها، ومع ذلك

في ناس يزمروا لهذا الحال المائل، يأتوا بنظريات اقتصادية لا موجودة في اقتصاد قديم ولا حديث، لسبب واحد اسمه ازدواجية، لا يعطون الحرية للناس، ولكنهم يعطونها للسوق، شركات الكاكي تنافس في سوق حرة، بإمكاناتها الهائلة تدخل في استثمارات يحجُم الآخرون عن دخولها، هذا ما يقولونه، ولكن!! الحقيقة واضحة وضوح الشمس، لا الصين ولا ماليزيا وصلت إلى ما وصلت إليه بشركات كاكي، الدول التي نحت هذا المنحى شعوبها سفت التراب؛ وبعد كورونا طبعا توقفت عجلة الإنتاج، والأسواق شُمِعت بشمع أحمر لتنشأ حالة من الكساد، والمواطنون في حوسه، رزق اليوم باليوم، حاجاتهم الأساسية بعيدة المنال، دول كثيرة وعدت بلد السمر بالمساعدة، ولكن كيف يتأتى لها ذلك وهي مشغولة بنفسها، كل دولة في ظل كورونا تشتكي لطوب الأرض، لا توجد دولة كبيرة ولا صغيرة، ولا دولة شبعانة ذهب ودولار، ودولة متسولة، كلهم في الهواء سواء، والشكوى لغير الله مذلة، و يا الله يا نوبة كورونا دقي، و يا الله يا دراويش هيلا هوب، لفوا الحلقة، (حي قيوم، حي قيوم، يا حي يا قيوم)).

همهم وغمغم الفيلسوف ثم رد بنبرة لا تخلو من نفحة إيمانية قائلاً:

(يا ناس إلى متى الجهل والغفلة؟ تعتمدون وتعولون فقط على الأسباب وتتركون قدرة الله العزيز الجبار خالقنا وخالق هذه الأسباب، أمريكا والصين وكورونا ونحن كلنا تحت قدرة ورحمة الله، صحيح نحن نأخذ بالأسباب نعمل بكل الاحترازات والاحتياطات المطلوبة، ولكن علينا في نفس الوقت أن نكثر من الدعاء نسأل الله يزيل عنا الوباء ويوفقنا ويلهمنا طريق الصواب، كورونا درس عميق من السماء لأهل الأرض، درس جامع مانع، ليست العقلانية في فهم الدرس ولكن العقلانية في فهمه والعمل بمقتضاه).

رمق إسيتيذ الفيلسوف بنظرة لا تخلو من تقدير واحترام ثم رد عليه قائلاً:

(كلامك ده ياهو الكلام الصحيح، كورونا آية من آيات الله لعباده، العباد نسوا الموت، نسوا يوم القيامة، نسوا الجنة والنار، هناك عالَمَان، واحد ما قبل، والثاني ما بعد كورونا، ما قبل كورونا معروف لديكم، دول قوية اقتصاديا، ودول متخلفة اقتصاديا، ودول كده وكده، والقوي يأكل الضعيف، أما ما بعد كورونا، ربما تنجح الصين ويفشل الغرب، وربما يظهر نظام دولي جديد يكون للصين فيه نفوذ كبير ودور جديد، وربما بعد إدانة الصين ب كورونا يحصل العكس يتخلى العالم عن الصين كمصنع للعالم، وطبعا سوف يعني ذلك انهيار العولمة ويتبعه انهيار الدولار، وبذلك تنهار أمريكا، يعني نهاية العالم خلاص أوشكت، أمريكا دنا عذابها).

(١٣)

كورونا والتاسُوعة

يوم التاسُوعة، اليوم السابق ليوم العيد رآه إسيتيذ هذه المرة يوما باهتا، أسواق المدينة الكبرى مغلقة، أسواق ودكاكين الأحياء معروضها من السلع قليل وأصحابها يزودون أسعارها كما يريدون، مصائب كورونا عندهم فوائد، الناس يشكون من خواء جيوبهم، نفوسهم منقبضة لشعورها بإحباط عميق عشش فيها منذ أمد طويل، حالات الإصابة ب كورونا تصاعدت تجاوزت ألف حالة، الخوف تمدد في القلوب، الأطفال الصغار بحساسيتهم وحب استطلاعهم المفرط يشعرون بأن رمضان ليس هو رمضان الذي ألفوه، وأن التاسُوعة ليست هي التي ألفوها، وأن وجوه أمهاتهم وآبائهم وأهلهم وهم يستقبلون العيد لا تطفح بالبشر والسرور الذي ألفوه، وأن ملابس العيد الجديدة لا أحد يتحدث عنها وإن تحدثوا عنها يقولون: (الأسعار ضرب من الجنون، هدمة الرضيع الصغير الذي تحمله أمه في شقها، سعرها ما بين الاثنين إلى الثلاثة ألف جنيه)، ومتوسط مرتب الموظف ما بين الاثنين إلى الثلاثة ألف جنيه قبل زيادة المرتبات، الموظفون لن يهنئوا بهذه الزيادات لأن فكوك السوق المفترسة مفتوحة على مصراعيها لابتلاعها، مرتبات ودخول العاملين في المهن الحرة حدث ولا حرج، هائفة لا تسمن ولا تغني من جوع، وعيالهم كثيرون، ما بين ثلاثة إلى خمسة، بحساب بلدي بسيط بدون كسور وبواقي المسألة لا تركب مع بعضيها، ميزانياتهم معجِزة عجزا كارثياً، مرتباتهم حسابها بالعملة المحلية، بالجنيه، ومصروفاتهم حسابها بالعملة الصعبة، بالدولار، حلاوة العيد غالية والبلح قادر عل أداء المهمة في هذي ظروف استثنائية، المخابز مغلقة، سبب كافي لصرف النظر عن كعك وخبيز، دقيق الخبيز أولى به اليوم الأسود بدلا من (فنكهة) في

الفاضي، ومن يجازف بنفسه بالمعايدة في ظل كورونا؟ من المؤكد قلة ممن لا يؤمنون أصلاً بوجود فيروس قاتل اسمه كورونا.

رأى شجرة (القولدمور) مكتملة الزينة والزُخْرُف، براعمها تتفتح أزهارا برتقالية براقةً جميلة، أوراقها الريشية بلونها الأخضر الغامق تتهامس هفيفا ملائكيا يدغدغ الوجدان، أطيارها تتناجى حفيفا عبقريا يهب القلوب أجنحة تحلق بها بين السحاب، ثم كقمر إذ ما اكتمل بدرا يعود هلالا، تحمر وتذبل وتساقط على الأرض أزهارُها، من يراها يظن أن الأرض من تحتها بركة دم؛ جلس وأمه وأم عياله وبنيته حول مائدة إفطار رمضان، التي ربما تكون مائدته الأخيرة، جلسوا تحت مظلة زنك أمريكي تربط بين صالة ومطبخ، ونبتة ريحان متشابكة فوق أصائصها بأوراق فاتحة الاخضرار، مرشوشة بماء ، تعبق المكان بعطر أسطوري.

خاطب أمه بنبرة حنونة قائلاً:

(يا أمي، رضا الرب من رضا الوالدين، وسخط الرب من سخط الوالدين، أرضي عنا يا أمي، أكلي يا أمي، مالك أكلك تعبان؟ زعلانة من حاجة؟).

ردت باقتضاب بعد أن مسحت على عينيها اللتان تعانيان من جفاف بسبب مياه سوداء:

(أنا ما زعلانة وما صائمة يا ولدي، لكن النفس مسدودة).

رد بنبرة رقيقة قائلاً:

(يا أمي، الله يحفظك، نفسك مسدودة ولا رمضان السنة دي مش تمام؟ والتاسُوعة كمان مش تمام؟ ولكن يا أمي لا تنسي في حاجة حلوة حصلت في رمضان ده، أنا وأنت وأهل البيت كلنا نصلي سوى، نفطر ونسحر سوى، نقضي ساعات الليل والنهار في أحاديث وحكايات زمان، يعني يا أمي عمرنا ده كله كان ضائع في الهواء، يا ما أنت كريم يا رب).

ردت بحنية قائلةً:

(يا ولدي الحمد لله، طال بينا العمر، وعشنا زمن طويل، عشنا وشفنا، لكن زي رمضان السنة دي ما شفنا، أبواب البيوت مسدودة، لا يفتحوها لي مسكين ولا شحات، كل زول محبوس داخل بيته، لا جار يدخل ولا يمرق، ولا صحن ولا صينية تمرق للناس في الشارع).

رد بنبرة لا تخلو من حنين لماض جميل قائلاً:

(الحكاية يا ليتها وقفت على كده، يا أمي زمان (الترزية) الخياطين في الأسبوع الأخير من رمضان لا يقبلون من الزبائن قماشة جديدة لأنهم يعرفون أن طاقاتهم وطاقات ماكينات خياطتهم محدودة، يخافون اللوم بعدم إيفائهم بخياطة هدوم العيد، لا ينومون إلا ساعات قليلة، وفي يوم التاسُوعة لا ينومون حتى الصباح، الترزي أبو قبورة، ود نفاش البلد، مذكراه ولا نسيتيه، من حكاياته التي لا تنسى قال: (كنت فاتح دكان في بيتنا، والدكان عنده باب كبير خارجي يفتح على الشارع، وباب صغير داخلي يفتح على البيت، يوم التاسُوعة قعدت أشتغل على المكنة وأشتغل زي الحمار حتى الصباح، وبعد ما سلمت كل امرأة، وكل رجل، وكل شافع، وكل شافعة هُدُومه قلت في نفسي آخذ لي غفوة صغيرونة قبال صلاة العيد، وديك يا الغفوة، نمت نومة ليها ضُل، أهلي ما لمُوا فوقي إلا ثاني يوم في العيد، فتشوا علي فوق تحت، ما خلوا زول وإلا سألوه، ما خلوا بئر وإلا دَنقروا فيها، وفي الآخر لقوني متكوم جنازة جوة الدكان، صحوني، قمت مخلوع زي المجنون، سألتهم: (يا أخوانا أنا وين؟)، ردوا علي: (قوم خلينا من أنا وين، جننتنا، الله يجننك، مسخته علينا العيد، القروش تطير، سمعته في يوم من الأيام في ترزي غِنى يا أبو راس تخين)).

ردت وعلى وجهها سحابة باسمة قائلةً:

(تذكرته، الله يطراه بالخير، لسه حي يرزق لكن خلاص كعكع، يا ولدي الترزية هسي حالهم يغني عن سؤالهم، ما عندهم شغلة ولا مشغولية، لا آخر أسبوع في رمضان، ولا يوم التاسُوعة، الناس ما قاطعين في نمرتهم، الناس يشترون الجاهز وخلاص يا دار ما دخلك شر).

رد بنبرة لا تخلو من حب وتقدير قائلاً:

(والحلاقون يا أمي زمان كانوا ملوك، الشفع يتراصوا أمام دكاكينهم لي الصباح، واحدين أهلهم يصحوهم من النوم يجلسوهم فوق كرسي الحلاقة ورؤوسهم تتمايل من فرط النعاس، واحدين صغار يعيطون، واحدين صغار جدا يتغوطون ويبولون، واحدين كبار يلعبون، وواحدين كبار جدا يتعاركون، والحلاق المسكين لا يعرف يحلِق، ولا يسكِت، ولا ينظِف، ولا يحجِز، وبعد ده كله يعطوه عطية مزين، لأنه الأولاد العفاريت يحتفظون ببعض مما أعطاهم آباؤهم ثمنا للحلاقة ويرمون له بالباقي ويهربون، يضرب كفا بكف، ينظر إليهم في حسرة ويقول: (عيال حرام ، أنا كان عارفكم كده، كنت بالسوط جلدتكم وخليتكم تنظفوا الدكان من شعركم الوسخان الزفر ده، الأعفن من شعر تيس أبو جاضومه)).

ردت بنبرة حلوة بذاكرة منتعشة قائلةً:

(ذكرتني يا ولدي حلاقين زمان، يا حليلهم، (شعيبو)، (حاج آدم)، (سائح)، (تيجاني)، و(مكي جرو)، رحمة الله عليهم، كلهم ماتوا وبقيت دكاكينهم ذكرى، كلنا فايتنها وما يبقى إلا وجه ربنا ذو الجلال والإكرام).

ردت أم عياله بلهجة لا تخلو من خوف قائلةً:

(يا حاجة ناس زمان ديل ما كان عندهم وباء، اليوم الناس خائفين من الوباء، خائفين من الترزية ومن الحلاقين ومن غيرهم، خائفين يلقطوه من بره ويدخلوه جوه بيوتهم، والدكاترة ما عندهم حاجة يعملوها ليهم، لا مصل ولا دواء، مريض كورونا ينتظر يومه وبس).

رد بنبرة لا تخلو من أسى قائلاً:

(الحكاية فلتت، الأطباء ما عندهم حاجة يعملوها للناس، كورونا قاعدة تكسح وتمسح بالناس الأرض، تقتل ولا تترك حي، لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، متى يفهم الناس، متى يعودوا لرشدهم، متى يدركوا أن الله هو الحق وما دونه باطل).

ردت بنيته بنبرة مؤدبة مهذبة قائلة:

(يا أبوي الأطباء ما قادرين يعالجوا أنفسهم من كورونا كيف يعالجوا الناس؟).

رد بنبرة ساخرة قائلاً:

(يا بنتي الزعيم الكبير، (كورونا خان)، جنه وجن الأطباء، قاصدهم عديل، قال كيف الناس يسموهم (جيشنا الأبيض)، (وخط دفاعنا الأول)، المسألة عنده استفزاز وحقارة، تعدي لكل الخطوط الحمر، الأمر يتوجب الرد بقوة رادعة على هذه المسخرة، أصدر أوامره لكل جنده من الفيروسات: (نحن نخوض حربا مقدسة، عليكم بالأطباء، اقتلوهم، دمروهم، خونة، إرهابيين، طابور خامس، جرذان، براغيث، إلى الأمام، إلى الأمام، حتى النصر)).

ردت أم عياله بنبرة لا تخلو من مرارة قائلةً:

(الأطباء الله يكون في عونهم، يلقوها من فيروس، ولا من نقص معينات، ولا من أهل المصابين بالفيروس، ديل الفيروس هبل بي عقولهم، وجعلهم يتخبطون كالمجانين، بلا عيون تبصر، ولا عقول تعقل، الجهل مصيبة، وسوء الطوية مصيبة أكبر، يصبون جام غضبهم على الأطباء الذين يقومون بعملهم حسب خطوات مدروسة

في ظروف صعبة، يطنون أنهم يتهربون من أداء واجبهم، وبدلاً من أن يتصرفوا بحكمة يعتدون على الأطباء، يعتدون على من يضحي بروحه في سبيلهم، فعلا اتقي شر من أحسنت إليه، فعلا جزاء المعروف عشرة كفوف).

رد بلهجة حانقة قائلاً:

(الأغبياء منهم، الذين لعبت برؤوسهم كورونا، يظنون أن الأطباء عندهم العلاج ولكنهم يضنون به عليهم، وأنهم يستهترون بأرواح الناس بعدم بذل العناية القصوى، وينسون أن كورونا حتى الآن لا علاج لها ولا لقاح).

ردت بنيته بنبرة مؤدبة قائلةً:

(الاعتداء على الأطباء ليس قاصرا فقط على بلدنا، بلدان أخرى كثيرة فيها نفس التصرفات المشينة، في مصر القريبة دي الأطباء يشكون لطوب الأرض من مضايقات، تعديات، ظلم، واستهتار، يجدونها من دهماء جهلاء).

رد بنبرة لا تخلو من عرفان بالجميل قائلاً:

(يا بنبتي التخلف والجهل مصيبة، أينما وجد تخلف وجدت بلاوي وكوارث، الأطباء بقلوبهم الرحيمة يجهشون بالبكاء لعجزهم عن معالجة المصابين بالوباء، لا ينامون ما فيه الكفاية، لا يتناولون وجباتهم المعتادة، يفترشون البلاط، الأطباء في كل بلاد الدنيا، في الغرب والشرق يُكرمون، في أبوظبي (مؤسسة الدار للتعليم) تكرمهم وتنظم لهم يوما خاصا بعنوان (شكرا لكم يا أبطال)، المبدع الصيني دوي هان يصمم لوحة جدارية، يستلهمها من النمط التاريخي لتصميم لوحات الكنائس الجدارية، يسلط فيها الضوء على أطباء يتعاملون مع الفيروس بشكل مباشر وهم يضعون أقنعة، قفازات، ويرتدون بدلات واقية، في مصر الناس يطالبون السلطات بعمل مقبرة جماعية لضحايا فيروس كورونا من الأطباء ومعاملتهم معاملة الشهداء، في يوغندا

رئيسها يثمن دور الأطباء ويعدهم من الأبطال الوطنيين، في أوروبا وأمريكا يبالغون في تكريمهم، يعدونهم من القديسين، العالم كله يرد لهم الجميل برسالة شكر كأقل تقدير لتضحياتهم أمام فيروس كورونا، إلا متخلفين من ناكري الجميل، عيونهم من الرمد لا تبصر ضوء الشمس).

ردت أم عياله بنبرة حانقة قائلةً:

(الأطباء الطيبون ماذا يفعلون مع أناس فاقدين لإحساس وشعور، سميهم مخالب قط للآخرين، سميهم ناكرين للجميل، سميهم ناقصين عقل ودين، سميهم ما شئت، في إمكان الأطباء ترك المستشفيات والقعاد في بيوتهم في أمن وأمان، لا كورونا ولا وجع رأس، ولكن قلوبهم الرحيمة لا ترضى ذلك، أرفع من ذلك بكثير).

رد بنبرة ساخرة قائلةً:

(كورونا كشفت حالاً مائلاً في العالم كله، العالم ينفق تريليونات الدولارات على التسليح، يسلب به حياة الناس، ولا ينفق إلا النذر اليسير على صحتهم، أموال الدول العربية الغنية مهدرة في أسلحة لا تؤمن لها أمنا ولا سلاما، وإنما تستخدمها لتكسير عظام بعضها البعض، ولإذلال مواطنيها، وبلدنا لا حول له ولا قوة، ما عنده ما يصرفه لا على تسليح، ولا على صحة).

ردت بنبرة حزينة قائلةً:

(البلد دي مقبلة على كارثة كبيرة، أمس واحد من أهلنا في الخرطوم، أولاده في الخارج، يسكن لوحده في عمارته ثلاثة طوابق، لا داخل زول عليه ولا مارق، قتلته كورونا، عرفوه مات بالصدفة، في ثمانية جنائز، حتة واحدة، دفنوهم أمس ب كورونا في واحدة من الحارات القريبة منا، آخر الأرقام، ثلاثة آلاف وستمائة إصابات ومائة وأربعة وستين وفيات).

همهمت أمه قائلةً:

(كورونا جابه الله ويشيله الله).

وضعت أم عياله وبنيته مجامر البخور في غرف وصالات البيت مثلما كانتا تفعلان دائما، لأن البخور يطرد رائحة الطعام التي تأتي من مطبخهن ومن مطابخ الجيران، ويطرد العين الحارة، السحر، الشيطان، ويلطف الجو؛ وأمه حملت مبخرتها التي يتصاعد منها الدخان، يضوع منها بخور المسك، والصندل، وصمغ اللبان، ودارت بها وهي تتعكز بعكازتها الحديدية على صالات وغرف البيت مغمغمه بكلام غير مسموع.

خاطبها بنبرة حنونة قائلاً:

(يا أمي مالِك ومال التعب، الدنيا قبايل عيد).

ردت بنبرة أكثر حنية قائلةً:

(لا تعب ولا حاجة يا ولدي، الليلة ليلة فك مردة الشياطين من الأصفاد، ارتحنا منهم ومن وجوهم القبيحة، طبعا هم فرحانين برحيل شهر رمضان، وبخور (أم التيمان) يمنعهم ويطردهم من دخول البيوت).

سألها بنبرة لا تخلو من دعابة قائلاً:

(يا أمي الشياطين ديل، كورونا ما تجيب أجلهم، تريحنا منهم؟).

ردت وعلى وجهها ابتسامة وضيئة قائلةً:

(الشياطين ديل ما في زول عارِفْهُم، يعرفهم رب العالمين، أما الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق روحي البدن ما تنسوا سمبل الحنوط، المسك، القرنفل، والريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة الحديد الخضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

(١٤)

كورونا والعيد

يوم العيد رآه إسيتيذ يوما عاديا، لا يشبه على الإطلاق أيام أعياد فائتات، أصوات مكبرين ومهللين خافتة محدودة، ساحات، باحات، وميادين صلاة العيد المعهودة في الحارة خلت من غالبية مصليها الذين كانوا يرتادونها من قبل، أهل الحارة أغلبهم التزموا التزاما كاملا بحجر صحي وتباعد اجتماعي، لأنهم على يقين أن كورونا حقيقة واقعة لا مِراء فيها، وأن من ينكرونها مهبولين، وناقصي عقل ودين، وأصحاب غرض؛ شوارع الحارة خلت من مُعَيِدين، أبواب البيوت مغلقة، أو نصف مغلقة، الناس حبسوا أنفسهم داخل بيوتهم لأنهم يخشون العواقب، عواقب أن تدخل كورونا خلسة إلى بيوتهم، أو إلى أحد البيوت التي يُعيِدون على أهلها فتشير أصابع الاتهام فيما بعد إليهم بأنهم هم من جلبوها، هذا العيد بدون طعم، لأن العيد الذي يعرفونه تصحبه طقوس دينية: زكاة، صلاة، خطبة، صدقات، تهاني، وتبريكات، وطقوس اجتماعية: زيارات، وأكل وشرب في جماعات، معظم هذه الطقوس ذهبت أدراج الرياح، يعني بالعربي الفصيح عيد (أفُكوهة)، وبالدارج عيد (ظم بليط) عيد (فشنك)، والسبب جائحة كورونا، يعني فيروس كورونا الشماسي اللئيم طلع لسانه بره للناس وقال: (إما تأخذونا أنا والعيد) وإما (تتركونا أنا والعيد)، تحبوا تعيِدُوا، وتهيصُوا، وتخشوا، وتمرُقوا، شدوا حيلكم، هيلا هوب .. أنا معكم في وسطيكم، تحبوا تقعدوا في بيوتكم معززين مكرمين، هيلا هوب.. الله بيني وبينكم.

تهيأ إسيتيذ، وأمه، وأم عياله، وبنيته للعيد، اغتسلوا غسل العيد، لبسوا أجمل ما عندهم من ثياب وتطيبوا بأفخر ما عندهم من عطور، ومن ثم عيدوا على بعضهم البعض، ذهب إلى أمه أولا، قبل رأسها ويديها:

(السلام عليكم ورحمة الله يا أمي، عيد مبارك عليك، وكل سنة وأنت طيبة، والعفو لله وللرسول، وربنا يحفظك، ويحفظ أولادك، وأحفادك، وأهلك، وربنا يزيل الوباء والغلاء، ويرحم أمواتنا وأموات المسلمين).

ردت وفي عينيها دمعتان تحدرتا، حاولت أن تكفكفهما خلسة، عيدها هذه المرة ينقصه الكثير، غياب أهل وولد، غياب جارات وصويحبات، لا تنسى في مثل هذه اللحظات ذكرى أحبتها الذين رحلوا عن دنياها:

(وعليكم السلام يا ولدي، علينا وعليك مبارك، عافية منك، عافية منكم كلكم، وربنا يرحمنا ويرحم أمواتنا وأموات المسلمين أجمعين).

ذهب إلى أم عياله، بدت في أبهى حللها، وفي عينيها ألم دفين:

(السلام عليكم يا زوجي العزيزة، العيد مبارك عليك، وكل سنة وأنت طيبة، العفو لله وللرسول، وربنا يحفظك، ويحفظ أولادنا الغائبين والحاضرين، وأهلنا والمسلمين أجمعين).

ردت وفي صوتها مسحة حزن، تحاول أن تخفيها بقدر الإمكان، لأن لها أحبة غائبون:

(وعليكم السلام، العيد علينا وعليك مبارك، عافية منك ظاهرا وباطنا، وربنا يحفظ الجميع).

ذهب إلى بنيته، بدت في غاية جمال الصبا:

(السلام عليكم يا بنيتي، العيد مبارك عليك، وكل سنة وأنت طيبة، وربنا يحقق لك كل أحلامك وأمانيك ويسعدك، ويسعدنا بسعادتك).

ردت وصوتها يحمل كل ما تتمناه له من أمنيات طيبة:

(وعليكم السلام يا أبي، العيد علينا وعليك مبارك، وربنا يحفظك لينا، ويحفظ أمنا، ويحفظ حبوبتنا، ويحفظ أخوانا، وأخواتنا، وأهلنا، ويعطيك ويعطيهم الصحة والعافية وطول العمر).
جمعتهم الأربعة صينية فطور أول أيام العيد، خاطبهم بنبرة لا تخلو من حزن، وهو يمسح بإصبعه على أرنبة أنفه التي تحررت من ضغط نظارته الطبية:
(يحضرني هذه اللحظة بيت الشعر الشهير للمتنبي: (عيد بأية حال عدت يا عيد.. بما مضى أم بأمر فيك تجديد)، رحمه الله رحمةً واسعة، لوكان حيا بيننا، يعيش ما نعيشه، ويكابد ما نكابده، لأتْحَفَنا بأبيات شعر عجب عجاب).
ردت أم عياله بأسى:
(منذ الصباح ولم يطرق بابنا طارق، ولم يدخل بيتنا أحد، الناس يعيدون مجبورين داخل بيوتهم).
ردت أمه بنبرة متبرمة:
(يا بنات أمي، ده عيد شنو؟ عيد مسيخ ما عنده طعم، قَبُلْكم، قبلكم، نوعه ما شفناه قبال ده، ولا سمعنا بيه قبال ده، لا داخل ولا مارق، عرفنا الزول البعيد في بلد ثاني الناس تعيد عليه بالتلفون، كمان القريب والجار الناس يعيدوا عليهم بالتلفون، كُر، كُر من زمن كورونا، دابْكُم وقَبُلْكُم).
رد قائلاً:
(ده عيد كورونا يا أمي، هذا الفيروس الصغير الذي لا نراه بالعين المجردة، جنن العالم، يلزق في يد، في بدن، في شبابيك، في أبواب، في أي سطح خشن أو غير خشن، يدخل جسم الإنسان من خلال عينه، أنفه، وأذنه، ده شيطان، شيطان صغيروني، في بدايته يسبب رشح، ثم كحة، ثم حمى، ثم ارتفاع في درجة الحرارة، وفي مرحلته الخطيرة يمشي على الرئتين، ينتشر ويتلف عروق الدم، ويسبب ضيق في التنفس، ويؤدي في النهاية للوفاة).

ردت أم عياله بنبرة لا تخلو من ذعر وخوف قائلةً:
(يا حاجة كورونا والموت حاجة واحدة، في زول ما يخاف من الموت، في زول ما يكره الموت، الحياة حلوة، الروح حلوة، أهل الصلاح والتقوى يعرفون الموت حق المعرفة، وأنه لا مفر منه، وأنه حتما ملاقيهم، وأنهم يوم القيامة محاسبون على كل صغيرة وكبيرة عملوها في الدنيا).
ردت أمه بنبرة مقتضبة مفعمة بالإيمان قائلةً:
(يا أهل الله، خربانة أم بنايةً قش، كلها غِش في غِش).
خاطبت بنيته أمها بنبرة ودودة:
(يا ماما الإنسان مخلوق ضعيف، الخواجات بعد ما شافوا الموت بعيونهم، شافوه يحصد أرواح الناس يوميا بالآلاف، وشافوا كيف ممكن الإنسان ما يسوى أي حاجة، وكيف أقرب الناس إليه يتنكرون له ويهربون منه حيا وميتا، رجعوا غصبا عنهم لربهم، رجعت أصوات الآذان تنطلق مرةً أخرى من المساجد، بعد أن منعوها لفترة طويلة).
أتاهم في هذه اللحظة صوت جارتهم، من فوق السور الفاصل بين بيتيهما:
(أهل البيت هوي، العيد مبارك عليكم، وكل سنة وأنتم طيبين، يا بنات أمي، عيد السواد والرماد، لا داخل ولا خارج).
ردت أم عياله بنبرة حزينة قائلةً:
(علينا وعليكم مبارك يا حاجة، كمان كورونا معها كلام، والله تتحكم فينا زي ما عائزة، لا صلاة، ولا عيد، ولا أيتها حاجة، صامين خشومنا وقاعدين في بيوتنا).
ردت أمه بعبارتها المعهودة:
(أهلا يا حاجة، العيد مبارك عليكم، كورونا جابه الله ويشيله الله).
رد قائلاً:

(نرجع ثاني للعيد، العيد جسد وروح، جسد من ناحية حركة الناس، صلاة، زكاة، زيارات، أكل، وشرب؛ وروح من ناحية ثانية تعمير القلوب بحب الله، وحب الناس، وإدخال الفرح بشتى السبل على قلوب المحتاجين، نعم رمضان هذا العام فاقد لجسده، ولكن بحمد الله روحه موجودة، موجودة داخل كل بيت، وداخل كل نفس).

ردت أمه بنبرة مطمئنة قائلةً:

(الفرح يسكن القلوب، ويظهر في الوجوه، الحمد لله الناس راضية بقضاء الله وقدره، صابرين على بلاء ووباء، رافعين أكفهم لله أن يهديهم، ويرفع عنهم مقته، وغضبه، وعذابه).

ردت أم عياله بنبرة وجلة قائلةً:

(أنا ما قلت ليكم كورونا ما عندها ضمان، البلد مقبلة على كارثة كبيرة، كورونا وصلت حارتنا، والد ثلاثة من تلميذاتي مات بسببها، رجل طيب عليه رحمة الله، كان كلما تنجح له بنية من بنياته المتفوقات نجاحا باهرا، يأتينا في المدرسة مهنئا ومحملا بهدايا وحلويات، الفيروس يتخير الأخيار الزاهدين في الدنيا، ويغض الطرف عن الراغبين فيها، كورونا ما خلت محل، آخر الأرقام ثلاثة آلاف وتسعمائة ستة وسبعين إصابة، ومائة وسبعين وفيات).

انتصبت واقفة من قعدتها، غطت وجهها سحابة حزن وألم، تراقصت أمام عينيها أشباح لفيروسات شيطانية، تصارعت في داخلها مشاعر جنائزية، لم تشعر قط بمثلها من قبل، ثم استطردت قائلة بلهجة متوترة:

(أنا ذاهبة إلى غرفتي، أشعر بحالة غريبة من التعب).

سهت أمه، تكلمت مع نفسها بكلام خافت، وبدون مقدمات أتى صوتها كأنه آت من أغوار بعيدة:

(الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق الروح البدن ما تنسوا سمبل الحنوط، المسك، والقرنفل، والريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة الحديد الخضراء، ربنا يلبسنا أخضر أهل الجنة).

لم تمض سوى دقائق معدودة، فجأة سمعوا صوتها وهي تندب، تعيط، تصرخ، وتولول:

(واي، واي، الحاجة ماتت، الحاجة ماتت، واي، واي، واي، واي.....).

هرع إليها على عجل، استفسر عما جرى، وفي رأسه كابوس مزعج من كوابيس كورونا التي لا ترحم، تبعته بنيته، ومن خلفها أمه تتعكز بعكازتها، تجرجر رجليها بصعوبة، سألوها:

(مات منو؟).

ردت بحرقة، حرقت جوفها، وبحسرة عميقة سكنتها، وبحزن طاغ ملأ قلبها، وبدموع منهمرة بللت صفحة وجهها:

(ماتت زميلتي الوفية، كلكم تعرفونها، كثيرا ما كانت تأتيني هنا، بالأمس كنت معها، بالأمس ذهبت إليها وسلمتها مرتبها، صحيح كانت تعبانة، جاءتني تتسند على الحيطة، اتصلت عليَ بنتها الآن، قالت أمها العزيزة ماتت ب كورونا).

خاطبت بنيتها بنبرة مفعمة بحزن عميق قائلة:

(ألبسي هدومك يا بنت، بيت أختها قريب من هنا، فلنذهب لنستجلي الأمر).

وهما تغادران البيت، خاطبتهن أمه بنبرة حزينة قائلةً:

(الله يرحمها رحمة واسعة، آخر زيارة لها لنا، جاءتني في غرفتي، سلمت علي، جلست على واحد من عناقريبي، قالت لي: أنا معجبة بعناقريبك ديل، قبضتي لمرتب الشهر ده، أنا ماشه السوق عديل، أجيب ثلاثة عناقريب أحطهم في غرفتي).

عادت الأم وبنيتها، لم يطل بهن المقام هناك، خاطبتهما بنبرة مكلومة قائلةً:
(أخت المرحومة قالت لم يسلموهم الجنازة، دفنوها ناس الوبائيات بمعرفتهم، والعزاء بالتلفون، لأنه لي ناس كورونا ينتهي العزاء بانتهاء مراسم الدفن).
رد بنبرة معزية قائلاً:
(البركة فيكم، في صاحبتك، نحسبها من الشهداء حسب حديث حبيبنا رسولنا الكريم، لكن ما تنسي أنك مخالطة لها، لازم تعزلي نفسك في غرفتك لمدة ثلاثة أسابيع).
ردت بنبرة مستسلمة قائلةً:
(أنا منذ اليوم اعتبروني في حالة عزل في غرفتي).
سكنته روح الموت، سكنته أرواح كل ضحايا كورونا، الفيروس القاتل ينط أمام عينيه بزوائده، وحراشيفه، وفخاخه، وألاعيبه؛ شرد مع خواطره، أوهامه، هواجسه، ووساوسه:
(كورونا والموت صنوان، الموت فعلاً مخيف، مقلق، فظيع، وقاسي، إنه النهاية الحتمية لكل شيء، هادم ملذات ومفرق جماعات، أهل الميت يحزنون، ورثَتُه ينتظرون الميراث، مشيعوه ينتظرون انتهاء مراسم دفنه بأسرع ما يمكن ليعودوا إلى أعمالهم، الفلاسفة يقولون: (الروح هي سر الحياة، وأن كل جسم حي حين يموت تذهب منه الروح)، العلماء يقولون: (روح الإنسان هي الطاقة التي ينبض بها قلبه، ويشتغل بها دماغه، وعندما تنفذ هذه الطاقة، يهمد القلب، وينطفئ الدماغ، فيكون الموت)، ديننا الحنيف يقول: (الروح تغادر إلى بارئها، تمكث في (البرزخ) ردحا من الزمن بانتظار يوم الحساب)، قرآننا الكريم يقول: «قُلْ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وما أوتِيتُم من العِلم إلا قلِيلا»، أدباء، كتاب، ومفكرون يقولون: (الله يمنح الناس في كل يوم حياة جديدة، شمس تشرق، طاقة تتجدد، نهار يطل، أمل، حلم، حب،

ذكريات جميلة، أطياف نورانية لمن رحلوا عن الدنيا؛ الموت وجه من أوجه الحياة، إنه تتويج لحالة مستمرة، ينساب من حول الناس بكل خفة، يتسلل من النوافذ ومن تحت الأبواب، يستجيبون له ببطء دون أن يحسوا به لأن دبيبه هو نفس دبيب الحياة، الأحياء أثناء حياتهم يموتون بأكثر من شكل، الجسدُ يمارس الموتَ يوميا، كل ما فيه يذوي ويتساقط، الأجساد تتبدل في دورة العمر مرات عديدة، لا يبقَ من ملامحها التي لازمت الناس وهم أطفالا شيء يُذكر، حلت محلها ملامح أخرى؛ الحياة نتاج لصراع وجود وفناء، تبقى مستمرة طالما أن الموت مستمر، فالموت حدثٌ دائم لا يتوقف، وهو ضرورة للطبيعة، ومأساة للإنسان؛ الموت نراه بأعيننا، نتأثر لبرهة، ثم سرعان ما ننساه لنعود إلى حياتنا، ولكن تبقى مشاعرنا تتذكره، وعقلنا الباطن يتحداه أو يستسلم له، وتظل في أعماقنا رجفة منه وجزع وقلق مبهم)؛ الدكتور مصطفى محمود يحاول فك طلاسم هذا اللغز من خلال فهمه لظاهرة النوم، واصفاً إياه بنصف الطريق إلى الموت، يقول فيما يقول: (في دماغ الإنسان ثمة مفتاح كهربائي، بمجرد أن يطفئه يسود الظلام ويدخل في غيبوبة، فيمر بحالة غرق، ويعبر إلى عوالم أخرى، ويسقط الجسد في هوّة التعب والعجز ويتحول الإنسان إلى شجرة، إلى شيء تستمر فيه الحياة على شكل وظائف فسيولوجية، كل شيء يتم بطريقة آلية تلقائية، بينما الجسم ممدد بلا حراك، والعقل بلا وعي، في إجازة، يستلم بدلا منه العقل الباطن، ليعود به ملايين السنين إلى الوراء، ليعيش بطريقة بدائية، حياة مريحة ورخيصة لا تكلف شيئا ولا يصرف فيها طاقة، أثناء النوم يموت النصف الراقي من الإنسان: شخصيته، إدراكه، وعيه، تختفي لتعود إلى ينبوعها الأصلي، وتلتقي هناك بخاماتها الطبيعية المجردة من الوعي، الإنسان بالنوم يعبر نصف الطريق إلى الموت؛ منذ قديم الأزمان والخلود هاجس الإنسان وقلقِه، ظل الإنسان رافضاً لفكرة الموت والفناء، مدفوعا بغريزة

البقاء، أو بنرجسيته التي طالما صوّرته مختلفا من بقية المخلوقات ومتعاليا عليها، اخترع لنفسه أسطورة الخلود والحياة ما بعد الموت، وابتكر فنون التحنيط، ودفْن الميت بأبهى صورة مع مقتنياته الشخصية التي سيحتاجها في الدار الآخرة، كما لجأ للتكاثر والإنجاب وتمديد حياته عبر أبنائه الذين سيحملون اسمه، ولتخليد ذكراه عبر عمل فني، أو بناءٍ ضخم، أو مشروع مبهر، ومع ذلك، أخفق تماما في الخلود؛ الإنسان بكل جبروته وذكائه وكبريائه قد يموت في أي لحظة، ولأتفه الأسباب، وأحيانا بلا ثمن وبدون مقدمات، فجأة يتحول كل هذا الكيان الممتلئ بالحيوية والطاقة إلى جثة هامدة، باردة، وفي بضع سنين، يتحول هذا الجسد إلى سماد للأرض، تأخذ شجرة مدت جذورها بالقرب منه جزيئاته المتحللة إلى أوراقها وثمارها ليتغذى عليها مخلوق آخر، أو تتحول إلى حطب يحرقه شخص ما ليتدفأ عليه، مظهر من مظاهر دورة الطبيعة، الحياة تولد من رحم الموت، صراع البقاء مرير، البشر يسكنون كل مكان، في القطب الشمالي، الغابات المطيرة، الصحارى الحارة، الجزر المعزولة في قلب المحيطات، أكواخ الصفيح، بيوت الطين، المقابر، تحت الجسور، يتشبثون بالحياة مهما كان نوعها، ومقابل تشبثهم بالحياة، أحيانا يرغب بعضهم بإنهاء حياتهم بأنفسهم لأسباب عديدة، ربما تكون شجاعة في مواجهة الموت أو جُبنٌ في مواجهة الحياة، الموت يقسّم الكائنات إلى أحياء وأموات، والحياة تقسّم نفسها إلى مراحل متداخلة تفصلها خيوط وهمية ماضي، وحاضر، ومستقبل، الموت كامن في الناس، شجاعتهم تحدي للموت، إصرارهم وقوف في وجهه، آمالهم مقاومة له، حياتهم تحايل عليه، الدين يبث الطمأنينة في النفوس الخائفة منه ويعوضها عنه بالحياة الآخرة، الفن محاولة للخلود ورفض لفكرته، إن التحدي الأكبر الذي يواجه الإنسانية أن يكونوا أقوى من أحزان الموت، ويتعايشون معه ليعمروا الأرض).

(١٥)

نهاية صغرى

إسيتيذ على قناعة أنه لولا شاشة التلفاز، لما كانت له قدرة على تحمل ساعات طوال لأيام حجر اختياري، محبوساً داخل جحر من جحور بيته، كفأر خائف من قط متربص به اسمه كورونا، لولاها لكان مجنونا يخلع ملابسه ويجري عريانا كما ولدته أمه في شوارع الحارة، أو عوادا يجلس القرفصاء فوق مزبلة من مزابل الحارة يعزف على أوتار ربابة من صفيح؛ قناتان فضائيتان وثائقيتان، الجزيرة وعمان لولاهما لمات هما وكمدا قبل أن يقتله الخوف من فيروس كورونا، الجزيرة بحلقاتها العجيبة شدته وخلبت لبه، حكاية طبق.. حكت قصة أطباق عربية، كشفت أساطيراً وحكاياتٍ وراء نشأتها؛ مقاهي عتيقة.. حكت قصصا عن أشهر المقاهي في عالم العرب، عمرها، أهم شخصيات ارتادتها، تأثير المكان في مسيرات فنية وأدبية، وأهم أعمال خرجت منها؛ كاميرا ومدينة.. كشفت حياة الناس في عدد من مدن عربية برفقة مقدم برنامج يمثل دور رحال مع مضيف من أهل المدينة؛ العمانية بحلقات مميزة جذبته، أصبح من مدمني مشاهدتها، بلدات عمانية.. يعيش فيها مع مقدم البرنامج في وديان، صحاري، شواطئ، وفلج يتدفق فيها الماء من مصادره في أعالي الجبال، إلى بساتين نخيل، موز، وحمضيات، شاهد تاريخاً حيا، حيطان مباني قرى طينية أثرية مهجورة؛ من السواحل.. نقله إلى جزيرتي زنجبار وبمبا، وإلى بوروندي، استمتع بجمال وسحر طبيعة حباها الله لهذه الأمكنة، جبال، غابات، أنهار، وشلالات؛ شعر عربي فصيح.. عاش مع قراءات، خطوط لأبيات من شعر الفطاحل، مع تعليقات لمتخصصين بينوا أسرار سحر، جمال، عمق، وإبداع عبقريات في هذا الضرب من ضروب الأدب؛ بالأمس فقط تركت أم

عياله سجنها وجاست في البيت كما يحلو لها، بعينين مفتوحتين يرصد رادارها كل حركة، وبأذنين ممغنطتين تسمع دبيب النمل؛ حمل رواية "إبولا ٦٧" في يده، تسلل خفية مجرجرا رجليه نحو باب الشارع، ومع صرير الباب أتاه صوتها بلهجة صارمة قائلةً:

(أها ماشي وين يا حاج، فيروس كورونا حائم للناس في كل مكان، قاعد ليهم بالمرصاد، أقعد في بيتك، احترم نفسك عشان كورونا تحترمك، تحوم، تمرق وتدخل، يحصل ليك ما حصل لود عمتك، مشى كالأسد لناس المعاشات ليصرف معاشه، رجع منهم كهر مريض مصاب بكورونا، يرقد الآن في المستشفى، يشفط في الأكسجين أنبوبة وراء أنبوبة، ومن يمارضونه ويخالطونه كلهم مهددون بفيروس قاتل).

مات من الضحك، تذكر أرسين لوبين، وشرلوك هولمز، وتوم وجيري، رد بنبرة مستهترة، وهو يخطو خطواته الأولى خارج البيت، غير عابئ بردة فعلها:

(زهقت يا أستاذة من طول الحبس، أطلع أشم شوية هواء، وأعود فوراً، على بساط الريح).

مشى بخطوات متمهلة نحو سوق (شنقيط)، انعطف جهة اليمين، تطلع ببصره في أغصان أشجار وارفة تظلل بظلال ساحرة ساحات مدرسة البنات أساس، ثم مد بصره نحو ثلاث نخلات تنتصب واقفةً كمآذن حجرية، تميز المسجد عن غيره من أبنية الحارة، المدرسة خالية من تلميذات ومدرسات، المسجد خال من مصلين، الشارع الذي كان في السابق يعج بحركة دائبة تحول إلى ممر من ممرات كئيبة تشق مقابر البكري، اختفى باعة جائلون كانوا يوقفون عربات خشبية محملة بفول مدمس، تسالي، ترمس، حمص، نبق، ودوم أمام بوابة المدرسة وبوابة السجد ؛ قطع شارع الأسفلت الضيق، شق طريقه بين سيارات نقل ركاب مهلهلة قديمة، مر أمام مخبز مهجور، أيام عزه

كان رجال، نساء، وأطفال، يتراصون أمام شباكه، وهم يتدافعون كالمعيز؛ انتابه شعور بفرح غامر وهو يدنو أكثر وأكثر من مركز صديقه معلمو، نظر في رواية "إيبولا٧٦" النظرة الأخيرة، نظرة الوداع وهو يحملها في يده، مد بصره نحو باب المركز، أصيب بخيبة أمل، الباب مغلق، سأل حداداً جار بالجنب ل معلمو قائلاً:

(السلام عليكم، أسأل عن الأستاذ عبد الساتر).

رد على عجل:

(الأستاذ سافر البلد منذ فترة طويلة).

صمت لفترة، تلخبطت الأمور في رأسه، نظر مرةً أخرى في الرواية التي يحملها في يده، عاد أدراجه مقتفياً أثار نفس خطواته السابقة، شرد مع خواطره وهو يتفرس في وجوه الناس:

(فيروس إبولا القاتل يتخفى في صور عديدة وهو يتنقل بين الناس في الكنغو، وأوغندة، وجنوب السودان، وكذلك يفعل فيروس كورونا عندنا هنا، لويس نوا بطل الرواية وسيط يحمل فيروس إبولا القاتل وينشره بين الناس، وهنا ملايين لويس نوا يمشون بين الناس وهم يحملون فيروس كورونا القاتل، ابتعد عن مسار أحد القادمين نحوه من الذين لا يأبهون بوضع كمامة ويعطسون كما يشاؤون، تفرس في وجهه، وسوس في نفسه: (تقاطيع هذا الوجه المستهتر تغري الفيروس الملعون بأن يتخفى عند صاحبه، لأنه من النوع الذي يصلح لأن يكون وسيطا جيدا ولا تظهر عليه أعراض المرض)، تفرس في وجهي رجلين يتصافحان بالأحضان، وقهقهتهما تعكر صفو الشارع، وسوس في نفسه: (يقهقهان ولا يدري المسكينان أن الفيروس الملعون يضحك عليهما لأنه في هذه اللحظة قد انتقل من أحدهما للآخر)، تفرس في وجهي امرأتين تتبادلان من مكان قريب في منتهى غباء وعدم حرص بعض أشياء، وسوس في نفسه: (تتبادلان ولا تدري الغافلتان أن الفيروس القاتل الملتصق بهذه الأشياء قد انتقل إلى كلتيهما)،

الفيروسات التافهة التي لا ترى بالعين المجردة تفتك بأناس يتباهون بعلومهم، وتكنولوجياتهم، وذكائهم الاصطناعي، فما بالك بالذين لا يعرفون من هذه الأشياء إلا أسمائها، وبالذين لم يسمعوا بها، إنها تنتشر وسطهم معولةً على ضعفهم، جهلهم، غبائهم، واستهتارهم؛ كل هذا إنذار ورسالة من السماء لأهل الأرض أن أفيقوا قبل أن تأتيكم طامة كبرى).

دخل داره، جلس على أحد كراسي موضوعة بإهمال ما بين فخاريات مبثوثة أطراف باحة داره الخارجية، في كثير منها تنمو نباتات الصبار، أخرج جهاز هاتفه الجوال من جيبه، اتصل على صديقه معلمو، سمع رنين الجرس، سمع نداء كورونا:

(علشانك وعلشان أحبابك غسل أيدينك بالمويه والصابون لمدة أربعين ثانية، واتبع التعليمات الصحية، للبلاغات وزارة الصحة ولاية الخرطوم، اتصل على ٢٢١).

أتاه صوته عبر الأثير:

(ألو، أهلا يا أستاذ، طولنا ما سمعنا صوتك، أخبارك شنو؟ وأخبار البلد معك؟ وأخبار كورونا عندكم؟).

رد بنبرة فرحة قائلاً:

(كلنا بخير، إن شاء الله أنتم كلكم كذلك، ذهبت المركز وعرفت من جيرانك أنك غادرت للبلد منذ فترة طويلة، يبدو إنك يا شاطر غادرت قبل ظهور كورونا).

رد قائلاً:

(الشغل تعبان، قلنا موسم الخريف على الأبواب، نجرب حظنا نزرع لينا كم فدان والباقي على الله، وبعد أيام من وصولي البلد سمعت بجائحة كورونا).

رد قائلاً:

(ربنا يوفقكم ويوفق كل الفلاحين الذين يفلحون الأرض ليوفروا لنا الطعام، ويحميكم ويحميهم من شرور كورونا، لا تتحرج من الكلام، أنا عندي خدمة، تحدث كما يحلو لك).

رد بنبرة مازحة قائلاً:

(يا أستاذ شكرا، الناس هنا سمعانه سمع بحاجة اسمها كورونا، كورونا دي عندكم هناك شدو حيلكم، وأبقوا عشرة ما تجيبوها لينا، أمسكوها عندكم).

رد قائلاً:

(سبحان الله، آخر مرة ذهبت فيها للمركز كنت أحمل معي رواية "إبولا ٧٦" التي كدت أن أحفظها لكثرة ما كررت قراءتها، انتابتني مشاعر غريبة حينما قمت بإسقاط أحداث الرواية على حكايات كورونا التي نشاهدها ونسمع بها هذه الأيام، ولكن لا أخفي عنك سرا، أن هذه الرواية دفعتني لمطالعة أدب الأوبئة بشكل عام، قرأت رواية "الطاعون" لألبير كامو، تدور أحداثها حول مرض الطاعون الذي انتشر في فترة الأربعينيات بمدينة وهران الجزائرية أثناء استعمار الفرنسين لها، تحكي عن "الطاعون" الذي جعل المدينة تعيش بمعزل عن باقي المدن، وبعدما ضرب الطاعون المدينة بأكملها، اكتشف الطبيب برنارد ريو بطل الرواية، أن حارس العمارة خاصته مصاب بالمرض، ثم تفاجأ بزيارة شخص له يدعى جوزيف غران ليخبره أن الجرذان نفقت في الشوارع بأعداد كبيرة، فرضت السلطات عزلا للمدينة لمنع تفشي الوباء، وبالرغم من ذلك ساد المرض أرجاء المدينة قالبا حالها رأسا على عقب، وبعدما خلف حالة من الهلع والخراب وأحدث خسائر كبيرة، توصلوا إلى لقاح للشفاء؛ قرأت رواية "الحرافيش" لنجيب محفوظ، تدور أحداثها حول الوباء الذي حل بأهل قرية القرافة، لم يترك خفيرا أو عمدة إلا وجندله، حتى باتت البلدة خاوية بعدما استفحل المرض وقضى على كل ما فيها، جاء هذا الوباء

ليقضي على حياة القرية، سارت فيها النعوش نعش وراء نعش في طوابير لا تنتهي، ولم يكن ليخلو بيت من نواح حتى يعلن عن حالة وفاة جديدة، نجا عاشور الناجي بطل الرواية من المرض، حيث فر بأسرته إلى الخلاء، ليعود بعد زمن ويجد البيوت جميعها خالية فيختار ما يشاء منها، ويصير بلا منازع سيدا للقرية، التي لم يكن فيها أحد يعرف تاريخه بعد مجيء أناس جدد؛ قرأت رواية "الحب في زمن الكوليرا" لجابرييل ماركيز، تجسد قصة الحب التي نشأت بين فلورينتيو وفرمينا، التي بدأت منذ سن المراهقة واستمرت حتى بلوغهما عمر السبعين، قرر فلورينيتيو أن يقضي حياته مع عشيقته فرمينا بعدما شاء القدر أن يجمع بينهما ثانية بعد وفاة زوجها، وباء الكوليرا في الرواية لم يكن حقيقةً، وإنما اختلقه بطل الرواية أثناء رحلته مع حبيبته فرمينا على متن السفينة، أعلن انتشار وباء الكوليرا بها، ليفر الجميع خوفا من الوباء، ويظل هو وحبيبته وحدهما، يرفعان إشارة صفراء لتدل على وجود واستمرارية الوباء، ثم يخبرها بأنها خدعة لكي يكملا حياتهما معا في رحلة نهرية لا تنقطع؛ قرأت رواية "العمى" لجوزيه ساراماغو، التي جسد فيها ذلك الوباء الفتاك "العمى" الذي لم يترك أحدا إلا وأصابه، تدور أحداث الرواية حول شخص أصابه العمى، ذهب إلى الطبيب الذي ما يلبث أن انتقلت إليه العدوى هو الآخر، وتسلل الوباء من شخص لآخر حتى أصاب القرية بأكملها، وبمجرد أن فرضت السلطات حجراً صحياً، عمت فوضى وجرائم، من قتل، ونهب، وانهيار للمنظومة الأخلاقية، سعى ذلك الطبيب جاهدا للتشبث بمبادئه وسط الوباء والخراب الذي حل بأهل قريته؛ قرأت رواية "الموت في البندقية" لتوماس مان، يحضر وباء الكوليرا أيضا في هذه الرواية، بطل الرواية الذي يدعى غوستاف فون، وهو كاتب ألماني، أخذته قدماه إلى رحلة لمدينة البندقية، والتي على الرغم من عدم ارتياحه لها، إلا أنه قد شغفها حبا بعدما وجد بها فتى شديد

الجمال، وظل الكاتب يتتبع ذاك الفتى ويطارده في كل أنحاء المدينة، حتى بعدما حل وباء الكوليرا بها، أصيب فون بحرارة عالية وأصيب بحالة من الاكتئاب جراء المرض الذي لحق به، تنتهي الرواية بمشهد موته على الشاطئ محدقا بعينين ذابلتين إلى ذلك الفتى الذي فتن به؛ قرأت رواية "الموقف" لستيفن كينج، التي تتحدث عن تفشي نوع خطير من الأوبئة يشبه الإنفلونزا، التي تقضي على البشر جميعا، تحكي الرواية عن كيفية انتهاء العالم، بعدما قضى ذلك الوباء الفتاك على العالم بأسره، فيما عدا عدد من أولئك الذين يستطيعون البقاء بفضل امتلاكهم لقدرات خاصة لمقاومة الطبيعة، ليعمروا الأرض فيما بعد مجسدين الصراع بين الخير والشر؛ قرأت رواية "عام العجائب" لجير الدين بركس، التي تحكي عن خرقة قماشية أتت من لندن إلى قرية نائية معزولة، حملت معها وباء الطاعون الذي يفتك بأهل القرية، البطلة الصبورة "آنا" بذلت كل ما تستطيع من جهد لتواجه مرض الطاعون مع أهل قريتها، ولكن سرعان ما ظهرت أنواع أخرى من الأوبئة في ذات العام الذي أسمته "عام العجائب"، ولكن آنا واصلت صمودها أملا منها في الحياة).

رد بنبرة مفعمة بروح أخوية صادقة قائلاً:

(ما شاء الله، عيني عليك باردة، ما نسحرك، ده مجهود جبار جدا، الظاهر إبولا وكورونا دفعوك للنبش في أدب الأوبئة، أما أنا الحمد لله عندي الوقت وعندي مكتبة إلكترونية، جهاز حاسوبي الشخصي يتبعني كظلي حيثما ذهبت، نعم ظهرت أوبئة فتّاكة في عدد من الروايات العالمية التي صدرت في القرن الماضي، فيروس كورونا المستجد واحد من تلك الأوبئة التي تهدد البشرية وليس آخرها، قرأت روايتين من روايات الخيال العلمي، رواية "الرجل الأخير" لماري شيللي، تتحدث عن وباء يجتاح العالم في هذه الأيام، إنه خيال روائي استشرافي يقف أمامه الإنسان الذي يعيش لحظة

كورونا باندهاش؛ ورواية "عيون الظلام" لدين كونتز، اللافت للنظر أنه توقع تفشي فيروس يشبه فيروس كورونا الحالي تماما ويقع في مدينة يوهان الصينية أيضا، حيث أسماه "يوهان ٤٠٠"، يطلق الكاتب على ذلك المرض (السلاح المثالي)، الفيروس لا يبقى خارج الجسم لأكثر من دقيقتين إلا أنه يمكنه أن يفتك بعدد هائل ممن حوله، بل ويمكنه أن يتسلل من دولة إلى أخرى، ولذلك تدور أحداث الرواية حول مغامرة لاكتشاف أسرار ذلك الفيروس؛ يمكنك تنزيل هاتين الروايتين الرائعتين من شبكة الإنترنت - يصمت للحظة قصيرة ثم يستطرد بنبرة ساخرة - إن شاء الله عثرت على لقاح أو علاج ل كورونا في تلك الروايات؟).

بعد أن أطلق ضحكة قصيرة رد قائلاً:

(يا أستاذ أعلم أنك تمزح، ولكن مطالعتي لتلك الأعمال الأدبية لم تكن بحثاً عن علاج أو لقاح أقدمه إلى البشرية ينجيهم من فيروس قاتل، لأني أعلم أن معظمها مجرد خيال ولا تحتوي على أجوبة لمثل هذه الأسئلة، ولكني راغب في الاستئناس بشخوص هذه الروايات والتعرّف على أقدارهم، وعلى كم الخوف والانفعال الذي سكنهم، لأبني لي من كل ذلك قنطرةً شعوريةً أحاول أن أعبر عليها بسلام - إن كتِبَ لي أن أنجوَ من الفيروس القاتل- أحاول أن أتفهم بقدر الإمكان النذر اليسير من كم هائل من خوف، سكون، وموت، شلت حركة الحياة في العالم في هذه الأيام).

في هذه اللحظة أتاه صوت أم عياله التي أكملت عِدة كورونا، وخرجت بسلام، وهي تنادي بصوت يرتعد خوفاً من كورونا قائلةً:

(يا أستاذ الناس في انتظارك للغداء وأنت ترْغِي وتزبد في التلفون).

رد قائلاً:

(حاضر، دقائق وأكون معكم).

استطرد بنبرة لطيفة في مكالمته مع معلمو التي قطعها لثواني قائلاً:

(أها يا أستاذ أستودعك الله، ويكون لنا اتصال قريب بإذن الله، ولا نامت أعين الجبناء، جبناء كورونا، أنا خائف أكون حاملاً لفيروسها وأنقله لك عبر الأثير).
جاءته ضحكات متقطعة قبل أن ينقطع الاتصال بينهما.
جلس مع أفراد أسرته حول صينية الغداء، خاطبته أم عياله بلهجة لا تخلو من غمز ولمز قائلةً:
(المكالمة الطويلة دي الظاهر عليها مكالمة مهمة خالص).
رد قائلاً:
(الخير راقد، ليه الانتظار، أبدأوا في الأكل، كنت أتكلم مع صديق لي، محظوظ، كفاه الله شر كورونا، عائش مع أهله في الريف).
ردت قائلةً:
(والله ناس الريف مرتاحين، هنا الحظر جددوه للمرة الثالثة لمدة أسبوعين، والزموا الناس بوضع كمامات، لبس قفازات، تباعد اجتماعي، وحظروا التجول في مواعيد محددة من الساعة الثالثة عصرا إلى الساعة السادسة صباحا، قفلوا المعابر والكباري داخل الولاية وبينها وبين الولايات، قفلوا الأسواق الكبرى).
رد قائلاً:
(حكاية عجيبة، تجديد الحظر سيستمر إلى متى؟ الناس خلاص تعبت، مدخراتهم جفت ونضبت، لازم يوفروا لهم حلول وإلا العواقب سوف تكون وخيمة، وبعدين الجامعات والمدارس سوف تظل مقفولة إلى متى؟ يعني العام الدراسي يروح في حق الله).
ردت بنيته قائلةً:
(يا أبوي في مصر القريبة دي قالوا ما في تأجيل للامتحانات، عملوا كل احتياطات لازمة وما يحصل بعد داك يحصل، وفي فرنسا فتحوا المدارس، وعملوا كذلك الاحتياطات، استجاب أولياء الأمور، وبعد فترة قصيرة خافوا على أولادهم من كورونا واستبقوهم في البيوت).

رد قائلاً:

(كورونا الملعونة تعدت خطوطاً حمراء وسوداء كمان، حتى الكورة الأكلت عقول الناس حكايتها حكاية، كورة بدون جمهور، معايير سلامة من كورونا لحماية الحكام واللاعبين، خضوع اللاعبين لبروتوكول طبي، للجماهير تباعد اجتماعي ووضع كمامات، بعض الدول ذهبت إلى أبعد من ذلك، ملعب يتسع لمائة ألف يسمح بدخول عشرة ألف فقط، دول منعت دخول الملاعب واكتفت بإذاعة أصوات لجماهير افتراضية، مع وضع صور لجمهور افتراضي).

ردت أمه قائلةً:

(يا بنات أمي، الغباء شنو؟ ما تأكلوا أكلكم، كورونا جابه اللهويشيله الله).

ردت أم عياله قائلةً:

(فعلا هم عالم متحضر ونحن عالم كرور، الإنسان عندهم فوق كل شيء، الصحة أولا، ثم تأتي بعد ذلك كرة قدم، وترفيه، وخلافه).

رد قائلاً:

(العالم وصل إلى قناعة تامة أن كورونا شر لا بد منه، ولا بد من التعايش معها حتى إيجاد لقاح أو علاج، يعني الحكاية في النهاية اختزلت في كيف تعود عجلة الحياة للدوران مرة أخرى، ولو بدرجة أقل، مع تقليل عدد ضحاياها لأدنى حد).

تردد في البيت صدى عبارة أمه التي ما فتئت ترددها من حين آخر:

(الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق الروح البدن ما تنسوا سمبل الحنوط، المسك، القرنفل، والريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة الحديد الخضراء، ربنا يلبسنا الأخضر لباس أهل الجنة، يا ولدي أنا إذا حان أجلي وتمت أيامي، وصيتي ليكم، تدفنوني في تراب بلدي، وسط مقابر أهلي، الذين سبقوني، رحلوا من الدنيا، فاتوا خلوني).

(١٦)

ما بين نهايتين

بدأت الأمور في الالتباس في ذهن إسيتيذ، أحس بأنه في حالة نفسية غير طبيعية، لا يدري إن كان ذلك بسبب أخبار كورونا التي تخلف هماً، غماً، وحزناً، أم بسبب محبسه الاختياري الذي طال أمده؛ درجة حرارة رأسه ارتفعت وانخفضت بوتيرة متسارعة بسبب أسئلة كثيرة تداعت ودارت فيه ولم يجد لها أجوبة، فيروس كورونا هل هو تطور طبيعي أم ملعوب فيه بتدخل البشر؟ هل هو مقدمة لحروب اقتصادية، معلوماتية، وبيولوجية فيروسية مقبلة، سوف يشهدها العالم؟ لماذا يتحدث بل غيتس في سنة ألفين وخمسة عن استخدام فيروسات لمحاربة التطرف؟ لماذا إسرائيل، والصين، وبريطانيا يسبقون الدول في الأسلحة البيولوجية، هذه الأسلحة التي تعد الأكثر غباءً لأنها لا تفرق بين صانع، صديق، وعدو، وإنما تفتك بهم جميعا؟ قانون (كير) الأمريكي الذي يهدف إلى مساعدة المتضررين من كوفيد تسعة عشر، كيف يُفْهَم ظهور دراسته نهاية ألفين وتسعة عشر يعني قبل اثنتي عشر شهرا، وتاريخ إصداره كقانون قبل شهرين فقط؟ من المبكي المضحك أن الأرقام تقول: (عدد قتلى كورونا في كل أرجاء العالم في حدود النصف مليون قبل منتصف العام ألفين وعشرين، والعالم الحر ينفق تريليونات الدولارات لكنس آثار كورونا وإيجاد دواء ولقاح لها، بينما ضحايا الحروب التي تجري الآن في العالم العربي يفوق المليونين ونصف قتيل، العراق مليون ونصف، سوريا خمسمائة وخمسين ألفا، ليبيا مائة وأربعين ألفا، اليمن مائة ألف، ومع كل هذا لا يزال العالم العربي ينفق تريليونات الدولارات لشراء أسلحة دمار وقتل، والعالم الحر يمهد لهم ويساعدهم في ذلك)، هل هناك فعلا

مؤامرة طرفاها عالمين عربي وحر، والضحية في النهاية هو مواطن عربي؟ هل فعلا أن هذا الفيروس الذي يهدد العالم حاليا لن ينتهي إلا بعد أن يصيب ستين إلى سبعين في المائة من سكان العالم، بعد أن تحدث مناعة القطيع؟ هل فعلا مقتل جورج فلويد المواطن الأمريكي الأسود الذي قتله أربعة من أفراد الشرطة الأمريكية في مدينة (مينا بوليس) سيكون له ما بعده؟ الصور التي التقطتها بالصدفة فتاة أمريكية عمرها لا يتجاوز سبعة عشر عاما فضحت بيان الشرطة بأن الرجل قاومهم، بينما الصور توضح بجلاء استغاثة الضحية وركبة رجل الأمن تدوس بقوة على رقبته وهو يستغيث: (أنا اختنق، لا أستطيع أن أتنفس)، واثنان من رجال الشرطة يضغطان بثقليهما على عظام ظهره، هل فعلا وصف جورج برنارد شو للحالة المرضية المزمنة في أمريكا وهو يسخر من تمثال الحرية فيها بعبارته المشهورة (أمريكا فيها أكبر تمثال للحرية، ومعروف أن التماثيل تنصب للموتى)؟ هل فعلا أن البشرية مثلما تحتاج لمحاربة فيروس كورونا تحتاج أكثر لمحاربة فيروس اسمه تمييز عنصري؟؛ سمع السودانيون بخبر الطبيبين السودانيين اللذان يدعوان وزارة الصحة لتبني بروتوكول علاجي يساعد على الوقاية والعلاج من وباء كورونا، عبارة عن غاز أوزون ومكونات أخرى أثبتت تجربتهما إمكانية القضاء على الفيروس، سجلا براءة اختراعهما وينتظران السماح بتجربته على مرضى المستشفيات، والسودانيون يقولون: (إذا كانت فعلا عندنا مثل هذه العقول التي نفاخر بها، لماذا نحن فاشلون في إقامة مشروع زراعي عملاق واحد فقط، نسميه سور السودان العظيم، يحمينا من هجمات أعدائنا، جوع، مرض، وفقر، نباهي به الأمم كما تباهي الصين بسورها الذي كان يحميها في الماضي من هجمات أعدائها الطامعين؟).

الخريف على الأبواب، الجو تشبع بغبار، السماء تلبدت بغيوم، خدمة الكهرباء انقطعت من البيوت، كورونا خيمت بظلالها على النفوس، الناس بين أمرين أحلاهما مر، إما حبس داخل علب سردين، وإما استنشاق هواء مشبع بغبار خارج هذه العلب، إسيتيذ في الحالتين في خانة الخاسرين، ولكنه على الأقل بذهابه إلى (نادي الأماسي الحالمة) ربما يجد نذرا يسيرا من الأجوبة لسيل الأسئلة التي أوجعت دماغه؛ وجد المكان غاصا بمرتاديه، الوجوه القديمة بدت عليها سحائب من الكآبة، خبر دواخلهم من طول صحبة، رفقة، وعشرة، لذلك لا تخفى عليه منهم خافية، ووجوه جديدة بدت أكثر اكتئابا، غماً، وحزناً، مصائب الدنيا كلها تكالبت عليهم جميعا، وسوس في نفسه: (إنهم مساكين، لم يسمعوا بنصيحة جدهم ابن سينا: الوهم نصف الداء، الطمأنينة نصف الدواء، والصبر أول خطوة في الشفاء)، لفت انتباهه الفيلسوف معفر بالغبار واقف على بضع أمتار منهم، ماسكاً بيده ماعون لبنه، خاطبهم بنبرة مازحة قائلاً:

(السلام عليكم يا أهل الصفة).

رد غوغل بنبرته الساخرة قائلاً:

(وعليكم السلام يا أيها الغفاري، خليك واقف عندك، اسمع وتكلم من بعيد، أمسك كورونا حقتك عليك، ونحن نمسك كورونا حقتنا علينا).

رد قائلاً:

(كورونا سرها في بطنها، عندها تار بائت مع العجائز ناقصين المناعة).

رد عظمة بنبرة متأففة قائلاً:

(سيبونا من كلامكم الفارغ ده، مناعة قال، الحكاية كلها قدر الله، ربنا كاتبها عليك، تضربك زي الحلاوة، ربنا منجيك منها تأكل وتشرب فائق وسط ناس كورونا، وبعدين كورونا ذاتها أنواع، حقتنا دي كورونا درجة رابعة، ملينا من حكاية كورونا، ناس البيت كورونا، التلفزيون كورونا، هنا كمان كورونا، شوفوا لينا موضوع ثاني غير كورونا).

رد غوغل بنبرة لا تخلو من مناكفة قائلا:
(قال موضوع ثاني، يا أبو مخ تخين بلدنا دي اليومين دي موقفاها على كراع واحدة ثلاثة مواضيع، كورونا، فض الاعتصام، وجون فلويد).
رد عظمة بلهجته المعهودة بعد أن بصق سفة سعوطه من فمه قائلاً:
(إنت والله تمام بتاع كلام فارغ يا غوغل حيرتنا ما عرفناك شغال شنو، عليك ملاحيظ كثيرة، نعمل حسابنا من شرك، الليلة تريد أن تدخلنا فلم جديد بطله اسمه جون فلويد).
تنحنح إسيتيذ، عدل نظارته، ثم رد قائلاً:
(الله ينصر دينك يا غوغل، جاءت ذكرى فض الاعتصام وكورونا وجون فلويد في وقتها، عدد قتلى كورونا في بلدنا حتى الآن حوالي المائتين، بينما قتلى الاعتصام يفوق هذا الرقم بكثير، منهم من التهمتهم أسماك وتماسيح، ومنهم مفقودين لا أحياء يُنتظرون ولا أموات يُنسون، مذبحة الخرطوم وصمة في جبين الكاكي، كل أنواع الكاكي، تنصلوا فيما بعد منها، الشينة منكورة، ضاعت الأدلة انمحت الآثار بالتقادم، فيروس كورونا لا يعرف تمييزاً عنصرياً، لا يفرق بين كاكي وجلابية، يستهدف الجميع، يتسلل خلسةً إلى الرئتين، ضحيته تفقد القدرة على التنفس، يقتل بهدوء، المعتصمين العزل من قتلوهم كانوا أفتك وأشرس من كورونا، أربأ بنفسي أن أخوض أو أصف ما حدث، لأن ما حدث يشمئز منه برابرة، مغول، وتتار؛ قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن لقتل رجل أسود واحد وليس مائتين، لصرخة رجل واحد وليست صرخات مئات المستغيثين، شعب أمريكي حر، أبيض، أسود، ملون، نسوا كورونا في ذروة فتكها بهم ونزلوا إلى الشوارع، يقولون: (مقتل فلويد لم يكن هو الأول ونخشى ألا يكون الأخير)، الشرطة تعتذر، القانون يأخذ مجراه، الدولة دولة قانون، لا أحد فوق

القانون ولو كان الرئيس نفسه، ليلة فض الاعتصام المشؤمة، المتآمرون قطعوا خدمة الإنترنت، أغلقوا المعابر والكباري، أغلقوا الشوارع المؤدية للمكان؛ قناة الجزيرة نقلت الحدث، بعض الناس شاهدوه حيا، بعضهم كانوا يتسوقون للعيد، بعضهم كانوا يشخرون على أسرتهم، وبعضهم كانوا فزع يتحركون صوب الاعتصام من أحياء الخرطوم القريبة، ولكنهم لم يتحلوا بقدر كافي من الشجاعة يمكنهم من اكتساح القوات التي حالت بينهم وبين إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو لأنهم لم يتصوروا حدوث مثقال ذرة مما كان يحدث في ذلك الوقت؛ الرئيس الأبيض المسيحي اليميني المتطرف اختفى في قبو تحت الأرض بسبب حشود المتظاهرين أمام البيت الأبيض، ثم ظهر وهو يمسك بالإنجيل في يده أمام مدخل كنيسة سانت جونز قبالة البيت الأبيض، أثار السخرية، فالرجل معروف عنه أنه أبعد الناس عن الدين، يعبد المال ويؤمن بالغاية تبرر الوسيلة، الرد على ترهاته السمجة جاء من منافسه في الانتخابات الرئاسية جو بايدن: (على ترامب أن يفتح الإنجيل ليقرأ (أحبوا بعضكم بعضا)، لأن العبرة ليست في رفع الكتاب وإنما العمل بالتعاليم التي جاءت فيه، ظهرت منظمة إرهابية معروفة بعد الحرب الأهلية الأمريكية تضطهد السود ثم الملونين، ثم البيض الذين يأتون إلى أمريكا مؤخرا وحظوظهم الاقتصادية ليست مثل من سبقوهم، يسمونهم زبالة البيض، والجيل الثالث لهذه المنظمة من قادته والد هذا الرئيس المتعجرف، شعارها هو شعار الحروب الصليبية، الحاضنة لهذه المنظمة هم البيض في الغرب الأوسط الأمريكي والجنوب أصحاب المزارع الكبيرة، بعض الأمريكيين يتهمون المنظمة بالوقوف خلف أعمال سطو، حرق، ونهب، يعني لا يختلفون عن (نيقرز) كان النظام البائد يستخدمهم لأداء نفس الدور).

تألقت عينا الفيلسوف بوهج خاطف ورد بلهجة قوية قائلاً:

(ولكن مع كل ذلك علينا أن نفهم أن أمريكا تختلف عن باقي بلاد العالم، لها دستور ولها رجال يحمون هذا الدستور، والدستور فوق الرئيس وفوق الحزب الحاكم، أمن المجتمع الأمريكي له أربعة أضلاع؛ قضاء: في القانون الأمريكي حق التظاهر مكفول للمواطن، ما عليه إلا أن يقوم بالإبلاغ عن زمان ومكان المظاهرة بدون أن ينتظر منهم الرد، ولذلك كل المتظاهرين الذين قبضت عليهم الشرطة أطلقت سراحهم لأنه ليس لديها ما يثبت أنهم قاموا بفعل إجرامي، شرطة: أحد قادة الشرطة يقول للرئيس: (لو ما عندك ما تقوله أقفل فمك)، مخابرات: تقول للرئيس: (مهمتنا حماية الأبنية الخاصة بالدولة وليس المظاهرات)، جيش: وزير الدفاع يرفض نشر الجيش الأمريكي، وأحد قادته يقول: (على الكونجرس أن يتدخل لأننا أمام رئيس أرعن تحت إدارته أربعة آلاف رأس نووي)، أفراد الجيش الأمريكي يجثون على الأرض تحية للمتظاهرين ولا يقفلون الأبواب في وجوههم ليتركوهم يواجهون الموت المحتوم، المدعي العام لولاية مينيسوتا بناء على ما تم جمعه من قرائن وشهادات يوجه للمتهم الأول جريمة قتل من الدرجة الثانية بدلا من الثالثة، ويوجه للثلاثة الآخرين جريمة قتل من الدرجة الثانية المساعدة والتحريض على ارتكاب جريمة قتل).

رد أحد الضيوف بنبرة من هو ملم ببواطن الأمور قائلاً:

(كثير من المحللين يقولون إن مكانة أمريكا الاعتبارية العالمية تآكلت منذ قدوم رئيسها الحالي، لأنه لا يقدم حلولاً ولا يضع بدائلاً وإنما يكتفي بإلقاء اللوم على الآخرين، بعد كورونا كل نجاحاته الاقتصادية بامتياز ذهبت أدراج الرياح، يواجه الآن فشل اقتصادي وإفلاس شركات، وبإقحامه للجيش في الشأن الداخلي فهو بذلك يدخله فيما لا يعنيه، لأن ذلك يحكمه الدستور الأمريكي).

رد الفيلسوف بنبرته المصادمة قائلاً:
(يا زول هوي أرعى بي قيدك، دي أمريكا، دي مكانتها لا تتآكل، ديل أهل العلم والتكنولوجيا، شركة أمريكية بالتعاون مع وكالة الفضاء الأمريكية ناسا أطلقت أول رحلة تجارية ناجحة إلى القمر تستغرق تسعة عشر ساعة فقط، الرحلات السياحية إلى هناك يبدأ تسييرها بعد سنتين أو ثلاثة، يعني في ذلك الوقت يمكنك حجز مقعدك مع الملياردير الياباني، أول من حجز مقعده للسفر إلى هناك).
رد غوغل بنبرة لا تخلو من فرح غامر قائلاً:
(يا أخوانا المظاهرات يزداد اشتعالها في أمريكا في كل لحظة، والحكاية لم تقف لحدي هنا، العواصم الأوروبية، لندن، باريس، بروكسل، وغيرها مولعة نار، كل شعوب العالم الحر في الشوارع، تمثال واحد خواجة منصوب في مدينة بريطانية، تاجر رقيق مشهور في القرن السابع عشر كان يأتي بالرقيق من أفريقيا ويبيعه في أمريكا، فشلت كل الجهود التي بذلت من قبل لإزالته، ولكن بعد مقتل فلويد ينجح المحتجون في تدميره بالكامل).
رد بوعلي قائلاً:
(بلجيكا التي لا نسمع عنها إلا القليل طلعت في الكفر، ذهب المتظاهرون بعد مقتل فلويد إلى مبنى متحف أفريقيا في بروكسل الذي بناه ملك بلجيكا ليبولد الثاني تخليدا لذكراه، طالبوا بإزالته وإزالة كل التماثيل التي لها صلة بذلك الملك المجرم الذي قتل الملايين في الكونغو، خمسة عشر مليون إنسان ماتوا في مزارع المطاط التي امتلكها في مستعمرته هناك، هذه المستعمرة التي لم يفكر مرة واحدة في حياته، في زيارتها ليتفقد أحوال أهلها).
رد عظمة قائلاً:

(يعني لازم تعكروا مزاجنا، وتخربوا قعدتنا بكلامكم الفارغ ده، طظ في أمريكا، وطظ في أوروبا، وطظ في كورونا، خلونا في فلويد وفي فض الاعتصام).
بعد أن كحه كحتين، وتنخم مرتين، رد السناري قائلاً:
(خلي الهلوسة حقتك دي، خلينا نستفيد من الكلام المفيد).
رد قائلاً:
(يعني الكلام في فض الاعتصام ما مفيد ولا شنو؟ ما عاجبك ولا شنو؟ والله أنا الحكاية دي عاملة لي أم كرَنك كَرنك في رأسي ده).
رد عليه قائلاً:
(فض الاعتصام ده عقدة نفسية شعبية، الزجاجة إذا كسروها تتصلح ثاني؟ قشة الكبريت إذا ولعوها بتولع ثاني؟ خلاص الله يجازي من كان السبب).
أمسك الفيلسوف بطرف أصابع يده اليمنى بطاقيته التي بات يخشى عليها من هبوب الرياح، ثم حك فروة رأسه بيده اليسرى، ورد في نبرة مزيج من حزن وفرح:
(الاعتصام، يا حِليلُهُ، ومضة، شعاع، نور، ضوء في حياة شعبنا، أعداء الأمة طفوها على عجل، لأنهم خفافيش لا يفترسون إلا في الظلام، شعبنا عاش ثلاثين سنة خوف، قمع، ورعب، قُتلت فيه روح الإبداع، تحول إلى مسخ دواب، يأكلون، يشربون، ويتناسلون، عقولهم، قلوبهم، وأرواحهم معطلة؛ الاعتصام فتح كوة في وضع متأزم، تفجرت طاقات، تدفق إبداع في كل مجالات الفن كسيل ماء جارف يجرف جداراً رملياً هشا، يا أخوانا يا سلام، يا سلام، جرى كما يجري النيل الخالد، روى أرض الاعتصام.. أرض حرية، سقى أرض السمر.. أرض ثوار أحرار، بإبداع ما بعده إبداع، رسم لوحات، رسم جداريات، خطوط عربية وإنجليزية، شعر، غناء، مسرح، رقص شعبي، نقاشات، حوارات، إعداد أكلات جماعية شعبية لرائح وغادي،

محبة غامرة بين معتصمين جمعت بينهم أواصر حرية، لا فوارق، لا طبقات، ولا امتيازات؛ كانوا في حالة انبساط غير عادي، حالة يستعصي وصفها بأي لغة من اللغات، يتهيؤون لاستقبال أيام أول عيد لهم بدون سياط، عصي، خراطيش، وبنادق، كانوا يأملون بلا حدود، ويحلمون بلا نهايات، يحلقون بأجنحة بيضاء فوق سماوات بلادهم، يتحدثون عن أن صلاة العيد ستشهد أعظم صلاة عيد في تاريخهم، صفوف المصلين ستمتد بين طرفي شاطئي النيلين الأبيض والأزرق، الرجال يرتدون زياً موحداً، النساء يتردين زياً موحداً، كما في حالة إحرام، يا سبحان الله، يا ما أنت كريم يا رب، سقطت زخات مطر، ملأت شوارعاً، مطباتٍ، وحفر، تحول ميدان الاعتصام إلى بحيرة ماء، لحكمة يعلمها الله، بعض المعتصمين كانوا يشاهدون فلما وثائقيا تسجيليا يعرض انتهاكات، فظائع، وجرائم دارفور، سبحان الله، التاريخ يعيد نفسه، نفس ما شاهدوه في الفلم تكرر بحذافيره في الاعتصام، نسخة طبق الأصل، المتآمرون، الآمرون، والمنفذون، هموا هم في الأمس واليوم).

رد إسيتيذ وعيناه قد تألقتا بنور غريب قائلاً:

(شعبنا شعب عظيم، ولكنه غير محظوظ، قامة حكامه ليست كمثل قامته، ما في حاجة اسمها أبيض جينيا أذكى من أسود، ولا جينياً أسود أقوى من أبيض، ولا عسكري أفضل من مدني، الإنسان الأسمراني متى ما توفرت له حرية، مدنية، وظروف مواتية لا حدود لإبداعاته، وابتكاراته، وإنجازاته؛ (زهراء)، فتاة سودانية تخرجت في كلية الهندسة جامعة الخرطوم، وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا وتحصلت هناك على مؤهل إضافي في الطب، مارست مهنة الطب بنجاح منقطع النظير في مدينتها التي تقيم فيها مع أسرتها، مكنها كل ذلك من بناء علاقات اجتماعية متينة مع سكان المدينة من كافة الأعراق، دفعتها كل هذه النجاحات للترشح لمنصب رئيس مجلس

المدينة، وتحقق لها ذلك بجدارة، لم تتوقف طموحاتها المشروعة عند هذا الحد وإنما تتطلع إلى لعب أدوار أكبر في المجالين الاجتماعي والسياسي في المجتمع الأمريكي، الإنسان السوداني لا ينقصه عقل، حكمة، وإرادة، إنما ينقصه نظام سياسي واعي يستطيع استثمار كل طاقات مجتمعية ويحولها إلى سلم أهلي، استقرار، ومهارات سياسية وإدارية تفضي إلى حفاظ على أمن البلاد وتسريع تطورها).

اشتد هبوب الرياح قليلا، تصارعت أغصان الأشجار، وَمَضَت وخبت أضواء لمبات كهرباء، ثار غبار وتراب في الجو، تطايرت أشياء خفيفة الوزن في الفضاء، صفق شجر، أوراق، وأكياس بلاستيك، واحد من هذه الأكياس ضل طريقه ولزق على وجه غوغل، ماتوا من الضحك، أمسك بالكيس، أطلقه ثانية في الهواء، نفض الغبار من وجهه ثم خاطبهم بنبرة لا تخلو من دعابة قائلاً:

(أضحكوا، أشبعوا ضحك يا بجم، لكن لازم تفهموا حاجة، أولاً الأكياس ثلاثة أنواع، أكياس نظيفة، ودي تطير زي الطيارات، وأكياس نصف نظيفة، ودي تطلع وتنزل زي الدجاج، وأكياس حاملة وسخ ودي طبعا لا تطير؛ عارفكم تضحكون ازدراء بالأكياس، لأنكم غُشم ما عارفين قدرها، شوفوا، الأكياس دي عندها دائرة خبيثة زي دوائرنا الخبيثة الكثيرة الما قادرين ننفك منها، تدخل جوه البيوت، تلزق في الأسوار، تنرفز أهل البيوت، يدفعون للنسوان عاملات النظافة الخصوصي فلوس عشان ينضفن البيوت، يلمن الأوساخ والأكياس الصغيرة داخل أكياس كبيرة ويضعنها أمام البيوت، يأتي صبيان كرتة الوساخة يعزلون الحاجات الفيها فائدة يمشوا يبيعوها والما فيها فائدة يبشتنوها ويشتتوها، ثاني يجوا واحدين ثانين بالفلوس يلموها، ويجوا بعدهم واحدين آخرين بالفلوس بالكارو يشيلوها، ما معروف يودوها وين، بعد يوم يومين ثاني الأكياس تجي داخلة جوه البيوت، والحكاية تدور من أول وجديد، شفتم الحكاية ماشه كيف، مع

عدم الشغل وحظر التجوال، كم أسرة تجد فيها مصدرا للرزق؟ كم طفل ينوم وهو شبعان؟ وكم أم تهجع وهي فرحانة؟ كل ذلك بسبب الأكياس التي أصبحت واحدا من سبل كسب العيش).

فلتت عبارة من بوعلي لم تجد حظا من الاهتمام:

(الله يخليك ويحفظك لينا يا (جيمس)).

رد عظمة بنبرة ساخرة قائلاً:

(والله فعلا الفاضي يغني، ويعمل من الحبة قبة، أكياس شنو وكلام فارغ شنو، يعني هسي لولا إنه الكيس ده جاك في محلك، وأداك كف لمن عينك حمرت، كنت جائب ليه خبر؟).

رد غوغل بلهجة قاسية قائلاً:

(يا أخوانا زمان ونحن في المرحلة الثانوية كان عندنا مدرس رياضيات شرس، ومعنا في الصف تلميذ شيطان رجيم - نظر بطرف عينه ناحية عظمة - دائما في نهاية الحصة يرفع يده ويفرقع بأصابعه ويقول: (يا أستاذ أنا ما فاهم)، يرد عليه الأستاذ بصوته الجهوري بفظاظة وحدة: (أنا لفيت عشرين مدرسة، محل ما أمشي وشك القبيح ده يقابلني، إنت المسلطك علينا منو؟ انتهى الدرس يا غبي، فهمتَ، فهمتَ ما فهمتَ إن شاء الله ما تفهم)).

خاطبهم إسيتيذ مودعا بنبرة ودودة من مكانه الذي يقف فيه على مبعدة منهم، وهو ينفض غباراً علق بثيابه وجسمه، في طريقه إلى بيته شرد كالعادة مع خواطره التي لا تنتهي: (أي حاجة في الدنيا درجات، ما مطلوقة ساكت، متروكات ومخلفات الإنسان درجات حسب شدة عفنها، وفسادها ولزوجتها، الوساخة، ثم القمامة، وأخيرا الزبالة، والعمال الشغالين فيها درجات، عمال النظافة، وديل يقومون بأعمال النظافة بأسس علمية، يلبسون كمامات, وقفازات، وجزم بلاستيك، عمال الوساخة، وديل درجة ثانية، لا حماية ولا وقاية لهم، وهم ينظفون وعن قصد أو غير قصد يوسخون، عمال الزبالة، وديل قصتهم طويلة شوية، في بلد ما يضعونهم في خانة الصراصير،

ويتأففون منهم، ويحرمون على أولادهم العمل في سلك القضاة؛ خلينا من وجع الرأس، المهم إنه الوساخة أو القمامة أو الزبالة في البلاد المتقدمة أصبحت صناعة يسموها صناعة تدوير مخلفات، يعني تحويل نفايات إلى مواد جديدة واستخدامها مرة ثانية وثالثة كمان؛ وطبعا المنتجات دي أقل جودة من المنتجات الأصلية بكثير، المواد القابلة لإعادة التدوير عديدة منها زجاج، ورق، كرتون، معادن، بلاستيك، إطارات مطاطية، منسوجات، بطاريات، وإلكترونيات؛ لكن زبالتنا نوع ثاني خالص، الله أعلم تكون قابلة للتدوير؛ جمع النفايات مهمة في العادة تقوم بها بلديات أو محليات مقابل فرض رسوم على السكان، ونحن محلياتنا نائمة في العسل، تلقف بس؛ المواد المنتجة عن طريق تحويل النفايات درجتها متدنية لأنها من مواد أولية رديئة؛ التدوير يساعد على التخلص من بعض نفايات، وتقليل انبعاثات غازات، ومنع هدر مواد مفيدة محتملة، وتقليل استهلاك مواد خام جديدة، وتقليل استهلاك طاقة، وتلوث هواء، وتلوث مياه؛ في حاجة فائتة على جامعي القمامة عندنا، النفايات الإلكترونية، الطلب يزداد عليها خصوصا في آسيا وأفريقيا، زادت وتمددت ساحات الخردة بعد اكتشاف الناس لإمكانية استخراج مواد ثمينة مثل نحاس، فضة، حديد، سيليكون، نيكل، وذهب كمان، أثناء عملية إعادة التدوير؛ تدوير النفايات يحول دون تحلل كثير من المواد، له فوائد عظيمة، يمنع تسرب السموم إلى مياه جوفية وسطحية، يمنع تلوث التربة بصورة تؤثر على النبات مما يمثل خطراً على حياة الناس، يمنع انبعاث غازات ملوثة للجو لخطورتها على حياة المخلوقات الحية، يمنع انبعاث روائح كريهة تؤثر على التنفس، ويمنع تكدس أكوام نفايات تؤذي النظر وتحجب جمال مناظر الطبيعة؛ والله كان عندي رأس مال أكان أعمل مصنع تدوير نفايات، يتكلم عنه العرب والعجم، أكفي الناس شرها، أشغل عمالة، واسترزق أنا كمان).

(١٧)

نهاية كبرى

قال إسيتيذ في نفسه:

(أحداث حياتنا قدر مقدور وليست صدفاً كما يدعي أغبياء ومجانين البشر، ها هو ابني يعود من المملكة إلى البلاد في أول طائرة بعد فتح الحظر على حركة الطيران بسبب كورونا الملعونة، نجا من كورونا ولم ينجو منها، نجا منها لأنه شاب عنده مناعة كافية للتصدي للفيروس، عاد من هناك سليما معافى، ولم ينجو منها لأنها ضربت كل اقتصادات العالم، ضربت الاقتصاد هناك، وضربت اقتصاده هو، شحت موارده المالية بتخفيض مرتبه الضعيف أصلا بنسبة أربعين في المائة، زادت مصروفاته بسبب الزيادات في أسعار كل شيء، مع اختلال ميزانيته وعجزها صبر وتحامل على نفسه لعله يستطيع أن يتعايش مع أوضاعه الجديدة، لعل الظروف هناك قد تتحسن، الاقتصاد هناك يعاني من كورنا ولكنه يمتلك القدرة للتعافي والعودة مجددا كما كان، أما الاقتصاد هنا مدمر منهار يحتاج إلى حواة يجدون له خلطة سحرية توقفه بقدرة قادر على رجليه المشوهتين؛ ولدي يقول: في يوم أغبر، وبعد أن جلس داخل مكتبه أتاه رئيسه المباشر ومعه شاب من أهل تلك البلاد ليقوم بتدريبه على كيفية القيام بتنفيذ مهام العمل الذي يقوم بتأديته، وكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، عزة النفس في زمن تعيش فيه النفوس بدون عزة دقت له ناقوس الخطر، أضاءت له النور الأحمر، قالت له: (بدلاً من أن يكرشوك بذلة ومهانة، بإطلاق رصاصة الرحمة عليك، كحصان عجوز جر عربة كارو ردحا من الزمن، ثم ضعفت عضلاته، وقلت همته، تقدم باستقالتك بشرف وبرأس مرفوع)؛ نعم رَكِبَ رأسه زي أي شفت من الشفاتة

وعاد، عاد في زمن كورونا، وما أدراك ما كورونا، الحمد لله، بما ادخر من شوية دولارات، وريالات، وبما اكتسب من خبرة تجارية، ربنا ستر، وأموره مشت لا غنيان ولا فقران).

حسب إسيتيذ نفسه من زمرة محظوظين ناجين حتى اللحظة من كورونا، لأن كورونا لم تزل موجودة، وليس لها لقاح ولا دواء حتى الآن، ترتفع حدتها وتنخفض ثم تعود لترتفع مرةً أخرى هنا وهناك، ولسوء الحظ ظهر نوع جديد من فيروس كورونا على سمك السالمون في واحد من أكبر مطاعم بيع الأطعمة الجاهزة في بكين، أكثر شراسة من السابق، لا أحد يعلم الجديد الذي سوف تأتي به كورونا في أيام قادمات، لأن المستقبل غيب علمه عند الله؛ إنه يؤمن بأن الصراحة أفضل من المواربة والدوران حول المعاني، لأنها تجعل الخطاب يذهب مباشرة من القلب إلى القلب، بالرغم من أنها تجلب كثيراً من مشاكل، متاعب، خصومات، وعداوات؛ يتمنى أن يكون بصراحته التي تنأى عن قلة الأدب قد كسب صداقات؛ يدرك أن الإنسان يسلم بمعرفته لقدره ويأمن بلزومه لحده، ولذلك يأمل أن يكون قد عرف قدره ولم يتطاول في كلام، مال، بنيان، جاه، وسلطان، ولم يتعد حدوده، لزم كياسةً، تهذيباً، وتأدباً مع الغير؛ يعلم أن المزاج التأملي الرائق يساعد على الوصول إلى رؤى ربما تضيء الطريق وتهدي إلى سواء السبيل؛ لذلك في هذه اللحظة شرد، سرح، وهوم مع خواطر كورونا، شرد كما لم يشرد من قبل، شرد بكلياته، بعقله، بقلبه، بروحه، وبوجدانه:

(كورونا علمتني أن ألد أعداء الإنسانية ثلاثة، استعمار، تمييز عنصري، وضعف إيمان بالله؛ الاستعمار طور صوره وأشكاله من وقت لآخر ليظل حيا باقيا، سعى بشتى الأساليب والحيل ألا تمتلك الشعوب المقهورة إرادتها وتظل تابعة منقادة له، ولكن في أثواب مطرزة جديدة تتناغم مع كل عصر، وما وأد ثورات الربيع العربي

وتقتيل المسلمين بعضهم بعضا بسلاح أمريكي، روسي، وأوروبي إلا أكبر شاهد ودليل على ذلك؛ كورونا علمتني أنها أرحم ببني الإنسان من مستعمر قديم وحديث، لأن تباطؤ انتشارها يعود إلى أن فيروسها نوعان، فيروس إل وفيروس إس، فيروس إل أكبر خطورة، وأقل تكاثرا، وفيروس إس أقل خطورة، وأكثر تكاثرا، أما المستعمرون فهم أكثر خطورة على البشرية من فيروس إل، بجبروتهم، حبهم لذواتهم، وظلمهم، سمموا الأجواء، والبحار، والمحيطات، ونهبوا ثروات الأمم؛ علمتني كورونا أن فيروسها يصيب الأوعية الدموية في الرئتين، ويسبب التخثر في الأوعية الدموية، وأنه يمكن للباحثين في مكافحة الأمراض المعدية والفيروسات اكتشاف لقاح فعال للقضاء على الطبقة الدهنية الخارجية لهذا الفيروس، مما يسمح للجهاز المناعي للإنسان بمهاجمة الفيروس والقضاء عليه نهائيا خلال ثمانية وأربعين ساعة، وعلى نفس النحو يمكن لشعوب الأرض المقهورة اكتشاف طرق فعالة للقضاء على آثار الاستعمار، القديم والحديث، مما يسمح لهم بالخروج من ذل شرنقة العبودية واستنشاق هواء الحرية الطلق؛ علمتني كورونا أن الشعوب المقهورة في سعيها للنمو والتطور ليس لها إلا طريق أوحد وهو الاعتماد على ذاتها، لأن عالم ما بعد كورونا يختلف عما بعدها، غير متوقع أن يأتيها دعم من مجتمع دولي، غير متوقع دخول مستثمرين جدد، غير متوقع أن يستعيد الاقتصاد العالمي عافيته إلا بعد مرور وقت طويل، دعم صندوق النقد الدولي يخضع لحسابات سياسية معقدة، وإن جاء أي دعم فسيكون على قاعدة لا يسمن ولا يغني من جوع؛ علمتني كورونا أن الفقر يبلغ بالناس شأوا بعيدا في بعض البلاد المقهورة، يستخرجون شهادات مزورة بأنهم كانوا مصابين ب كورونا ليقوموا ببيع بلازما دمهم بمبالغ تافهة، الفقر كافر، منهم من باع عفش بيته من قبل، منهم من باع بنيته قرة عينه في زيجة غير متكافئة من قبل، ومنهم من باع عضوا من أعضائه قطعة

غيار آدمية من قبل، وفي النهاية لم يجدوا ما يبيعونه غير بلازما دمهم، وما درى المشتري المخدوع أنه لن يستفيد شيئا من هذا الدم؛ علمتني كورونا أن المقدمات تفضي إلى نتائج، في حالة التهاون بعدم العمل بالإرشادات وعدم اتخاذ الاحتياطات والإجراءات اللازمة فإن ذلك يفضي إلى الإصابة بالفيروس، ووفقا لذلك في حالة عدم التصدي للاستعمار الحديث بكل الوسائل المتاحة فإن ذلك يفضي إلى هيمنة الأغنياء على الفقراء؛ علمتني كورونا أن المسحوقين من أفراد الشعوب الفقيرة هم الذين يزرعون ويحصد الطفيليون المستعمرون الجدد وأذنابهم، والفيروس يقضي على هؤلاء المسحوقين لأن دولهم لا توفر لهم حتى الكمامات، وليست لهم القدرة على شرائها لندرتها ودخولها السوق الأسود، والمستشفيات الحكومية بائسة، والقطاعات الصحية منهارة مثل باقي القطاعات، والمستعمرون الجدد لا يأبهون بحياتهم وإنما يأبهون بهم كأيدي عاملة رخيصة وكمنتجين لمواد خام؛ علمتني كورونا أن الشعوب المقهورة ما هم إلا كلاب صيد يصطادون لغيرهم، وكلاب الصيد الحقيقية تجد العناية والغذاء الجيد من أصحابها مقابل ما تقدمه من خدمات جليلة، أما المسحوقون فلا يجدون إلا إهمالاً فقراً وجوعاً؛ علمتني كورونا أن الإيمان الحق لا علاقة له بقشور وبمظاهر مادية خارجية وإنما علاقته بجوهر قلوب صافية وأرواح زكية، الكنائس في بلاد المستعْمِرين الأغنياء بكل ما فيها من زخرف، زينة، تماثيل، وأبهة تباع في السوق لقلة مرتادين ونقص تبرعات، والمساجد في بلاد المستعْمَرين الفقراء تغلق وقلوب المصلين تهفو إليها رغما عن بساطتها وخلوها من زخرف وتزيين؛ علمتني كورونا أن سياسة (السفنجة لا توقف ولا تغرق)، سياسة فاشلة، أن تعود الحياة إلى طبيعتها بدون احترازات والفيروس في ذروة انتشاره انتحار، أن تكون حاملا للفيروس من حيث تدري ولا تدري لأنه لم تظهر عليك الأعراض، وتمشي بين الناس وتتعامل معهم بشكل مباشر

بدون احترازات حرام؛ علمتني كورونا أن أي صوت يجب أن يكون مسموعاً، لأنه عندما أسكت صوت الطبيب الصيني أول مكتشف لأول حالة من الجائحة، ماذا كانت النتيجة؟ أكثر من ثمانية مليون إصابات، نصف مليون أموات، كساد اقتصادي، تفشي بطالة، وإنفاق مليارات الدولارات للتصدي لها، علمتني كورونا أن أي مجال يجب أن يكون مرئيا، كورونا لها مجالات كثيرة، مرض، علاج، لقاح، وانتشار، كلها محتاجة لأن تكون مرئية وليست مبهمة ضبابية، علمتني كورونا أن أي رحلة يجب ألا تكون سرمدية بلا نهاية، رحلة جائحة كورونا لا بد لها من نهاية، وهذه النهاية تبدأ بالوصول إلى لقاح أو علاج، وذلك لا يتأتى إلا بتوفير ميزانيات ضخمة وتحفيز مؤسسات بحثية وباحثين؛ علمتني كورونا أن أي شيء يتدخل فيه البشر بشكل مباشر أو غير مباشر يكون فيه خيار وفقوس، أما كورونا لا تميز بين مواطن دولة غنية أو فقيرة، أبيض وأسود، طويل وقصير، الكل عندها سواء، أما البشر فيكيلون بمكاييل كثيرة، وينسون أنهم كلهم لآدم، وآدم من تراب؛ علمتني كورونا عدم رمي الكلام على عواهنه، محلل سياسي عربي متجنس بريطاني يقول على قناة تلفزيونية أن على السودان ونيجريا تغيير إسميهما لأنهما مرتبطان باللون الأسود، ويرد مقدم البرنامج وماذا في ذلك؟، الرد عليهما، المشكلة ليست في اللون، أسودا أو أبيضا أو أصفرا، المشكلة في العقلية، هل هي متحيزة للبشرة الاستعمارية البيضاء أم منفتحة على جميع الألوان، والأدهى والأمر نساء سوداوات يستخدمن كريمات لتبييض وجوه، ورجال سود يجرون عمليات جراحية لتقويم أنوف، ويلبسون باروكات شعر ناعم مرسل تشبها بالبيض؛ علمتني كورونا أن (حياة السود مهمة)، كما هي حياة البيض مهمة، لما بلغت ذروة كورونا أشدها في الدول الأوروبية، خصوصا، إيطاليا، فرنسا، بريطانيا، وإسبانيا، إمبراطوريات الاستعمار القديم، وتجاوزت أعداد الإصابات الحرجة عدد أجهزة

التنفس الاصطناعي، أعطيت الأولوية لصغار السن وترك الأكبر سناً يواجهون الموت، يموتون كما مات أسلاف السود على متن السفن التي كانت تقلهم من أفريقيا إلى أمريكا في ظروف أقل ما يمكن أن توصف به أنها مميتة؛ علمتني كورونا أن الدنيا فعلا تافهة لا تسوى عند الله جناح بعوضة، عارضة أزياء كانت تتثنى كغصن بان، طبيب كان يكشف على المرضى ويصف الدواء، مهندس كان يتفقد طابق علوي في عمارة تحت التنفيذ، وغيرهم، وغيرهم، في لمحة خاطفة يدخلون في متلازمة عوز تنفسي، قرقرة، وبلوغ الروح الحلقوم، كانوا يمشون على الأرض بطول وعرض، كانوا يحملون آمالا وأحلاما وردية، كانوا يعطون ويأخذون، وفجأة فارقوا الدنيا بدون وداع لأحباب وبدون ترتيب لأوراق؛ علمتني كورونا أن موسوعة غينز ما هي إلا وهم من أوهام البشر التي يظنون بها أنهم باستطاعتهم الوصول إلى مرحلة ما من مراحل الكمال، وأنهم يمتلكون قدرات لإنجاز أعظم إنجازات، وأن قدراتهم لا تحدها حدود، للأسف مع كل هذه الترهات وقفوا كحمار الشيخ في العقبة عاجزين أمام كورونا، حولت موسوعتهم إلى نكتة سخيفة؛ علمتني كورونا ما معنى كلمة تافه أو هلفوت، البشر يستخدمون هاتين الكلمتين للاستهزاء والتقليل من شأن بعضهم البعض، الأقوى يصف بها الأضعف، الغني يصف بها الأفقر، الطويل يصف بها الأقصر، وهكذا...، ولكن كورونا التافهة، الهلفوت، الصغيرة الحجم، التي لا يرونها بعيون مجردة دوختهم وأجبرت جبابرتهم على الركوع تحت أقدامها؛ علمتني كورونا وأضاءت لي بصيرتي لأستوعب ما في قصة أهل كهف من عبر ودروس، هربوا من قومهم الذين لا يقيمون للإيمان بالله وزنا ولجأوا إلى كهف، أنامهم ربهم ثلاثمائة وتسع من السنين وهم يتقلبون يمنة ويسرى، ولما استيقظوا أذهبهم الله إلى قرية قومهم، آية من آيات الله، الناس اليوم يدخلون كهف كورونا وهم في سبات نائمين عساهم بعد

استيقاظهم وعودتهم إلى أعمالهم يستوعبون هذه العبر والدروس ويقيمون للإيمان وزنا في حيواتهم الجديدة؛ علمتني كورونا أنها ليست آخر جائحة، يؤيدها في ذلك العالم الأمريكي مايكل غريغر في كتابه (كيف تنجو من الجائحة) يقول أن الأمراض التي تنشرها الدواجن مثل أنفلونزا الطيور تشكل خطرا أكبر على العالم من فيروس كورونا، تربية الدواجن بالكيفية الحالية تترك البشر عرضة لفيروس قاتل يمكن أن يقضي على نصف سكان العالم، يعني أن أفعال الإنسان الهوجاء المرتبطة بتعظيم الأرباح تجعل منه أحد أسباب ظهور الجوائح؛ علمتني كورونا أن البشر لا يتعمقون في فهم الظواهر الطبيعية ولا يتعلمون منها أبدا، ولا يتعاملون معها بذكاء؛ التسونامي، مجموعة الأمواج العاتية التي تنشأ من تحرك مساحات كبيرة من المياه مثل المحيطات، بسبب الزلازل، والتحركات العظيمة سواء على سطح المياه أو تحتها، وارتطام المذنبات، والانفجارات النووية في البحار، تكون آثاره مدمرة على البشر وممتلكاتهم، ومع ذلك يعودون لنفس المكان ويعمرونه من جديد وهم وجلون وقلقون من موجاته القادمة، وبنفس السطحية والسذاجة يتعاملون مع الفيروسات؛ علمتني كورونا ألا أترك الحمار وأجي على البردعة كما يفعل بعض زعماء العالم أمام شعوبهم المغلوبة على أمرها، الناس يموتون بالآلاف في غياب اللقاح والعلاج، وبدلا من أن يسعوا بكل السبل للقضاء على هذا الفيروس الحمار وينقذون البشرية مما هي فيه، يضيعون الوقت في المشاحنة بالهجوم على بردعته بصفتها المتسببة في كل العناء.

علمتني كورونا أن أمي بعمرها الذي ناهز التسعين عاما بالتمام والكمال بحر من الحكمة لا ساحل له ولا قرار...

(الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق روحي البدن ما تنسوا سمبل الحنوط، المسك، القرنفل، والريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة الحديد الخضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

* * *

مضت أيامه ولياليه بطيئة، استعصى عليه النوم، الأرق أخذ منه كل مأخذ، ما به مرض، وما به مس جنون، ولكن! شيء ما يدور في رأسه، شيء كمسمار جحا مغروز في عظام جمجمته، شيء خطير يريد أن يقلب حياته رأساً على عقب؛ غَالَبَ هذا الشيء لفترة طويلة، أخفاه لفترة طويلة، تناساه لفترة طويلة، ولكنه استسلم له في النهاية، أذعن لإرادته.

جمعته قعدة شاي المساء مع أمه، وأم عياله، وابنه، وبنته؛ رشف رشفة طويلة من كوبه لها دوي ربما يكون مزعجا نوعا ما، استجمع كل ما أوتي من صرامة، شجاعة، قوة عزيمة، وقوة شكيمة، وخاطبهم بلهجة حازمة قائلا:

(بعد حوار طويل مع نفسي، وبعد الاستخارة قررت العودة أنا وأمي إلى بيتنا في البلد، سنقضي ما بقي من أيام عمرنا مع أهلنا هناك).

ردت أم عيالة في لهجة لا تخلو من استنكار قائلةً:

(عمرك كله قضيته وأنت هارب من المسئولية، يا حاج قضي آخر عمرك بين أولادك).

رد في لهجة حاسمة قائلاً:

(قراري قرار نهائي ما فيه رجعة).

رد ابنه بنبرة مهذبة قائلاً:

(يا أبوي أنا جيتكم متين، أجلوا المواضيع دي شوية، يمكن تحصل أشياء تدعوك للتراجع عن هذا القرار).

رد بنبرة أبوية حانية قائلاً:

(يا ابني الحمد لله إنت بقيت راجل كبير، ومسؤول وواعي، والبلد مسافة أربعة خمسة ساعات من هنا، يعني كأننا قاعدين معكم ما فارقناكم شبر).

ردت بنيته بنبرة حاسمة قائلةً:

(يا أبوي قرارك ده، تحت أي ظرف، نحن ما موافقين عليه).

رد بنبرة هادئة قائلاً:

(يا بنيتي العزيزة، هل يوجد أب في الدنيا لا يحب فلذات أكباده، ولكن أحيانا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، أنا وجدتكم سنذهب بأجسامنا ولكن قلوبنا معكم).

سألت أم عياله بلهجة لا تخلو من عدم رضا قائلةً:

(يعني مصر على قرارك؟).

رد بلهجة حاسمة:

(كل أموركم المالية والحياتية مرتبة، والزيارات من وقت لآخر بيننا لن تنقطع، والتلفون يربط بيننا).

بعد صمت طويل ردت أمه بصوت خافت قائلةً:

(يا ولدي أنا عارفة وفاهمة كلامك، إن عليَ أنا أقعد مع أولادك، وبعدين أمر الله كله سَمِح).

رد بنبرة رقيقة قائلاً:

(يا أمي خلاص انتهى الأمر، الأمور هناك كلها عال العال، وبعد أسبوع بإذن الله يكون السفر، ودعي صويحباتك وجاراتك).

هز ولده وبنيته رأسيهما أسفا دلالة على عدم الرضا، وردت أمهما بلهجة قاسية قائلةً:

(الأمور هناك عال العال لكن هنا الله أعلم تكون عال العال، والله فعلا الخَرَف مصيبة، الخرف وكورونا ما عندهم علاج).

تصرف كرجل صالح شعر بدنو أجله، سوى كل أموره المالية مع الغير، ذهب لوداع القريب والبعيد، ذهب ليقول كلاماً طيباً لكل من تبادل معه في يوم من الأيام شحناء، بغضاء، وخصام، ذهب إلى المستشفيات ليودع المرضى الذين يعرفهم، ذهب إلى المقابر ليودع الموتى الذين كانوا أحبابا له؛ أتت السيارة في الموعد المضروب، بعيون دامعة باكية ودع هو وأمه أهل بيته وجيرانهم.

مرت السيارة بالقرب من مكان ناديه العزيز (نادي الأماسي الحالمة) تمتم في سره:

(الوداع، الوداع يا نادينا، يا أجمل مكان في الحارة، الوداع، الوداع يا أيتها الحجارة، يا ايتها البلوك، ويا أيتها الصناديق).

تخطت السيارة آخر بيوت الحارة، خاطب أمه بنبرة مفعمة بالحب قائلاً:

(خلاص يا أمي تعدينا آخر بيوت الحارة، ودعيها الوداع الأخير).

التفتت ناحيتها، تمتمت بنبرة حنونة:

(ودعتكم الله، الله يحفظكم ويحفظنا، ويسلمكم ويسلمنا من كورونا، ومن مصائب الدنيا كلها).

وصلا موقف الحافلات السياحية المسافرة إلى البلد، قطع تذكرتين، صعدا الحافلة، جلسا على مقعدين متجاورين، همهم وغمغم بكلام غير مفهوم ثم خاطب أمه بنبرة ودودة قائلاً:

(إن شاء الله مقعدك مريح يا أمي؟ خلاص يا أمي، مسافرين من بلد مسكونة ب كورونا لي بلد مسكونة بأهل الله).

اصطرعت في داخلها مشاعر متضاربة، أحفادها الذين تركتهم خلفها عزيزون عليها وكذلك بلدها هو الآخر عزيز عليها، همهمت وغمغمت هي كذلك وردت بنبرة باكية قائلةً:

(مريح يا ولدي، ثاني ما في راحة، ويا ولدي الناس ب كورونا يموتون وبدون كورونا يموتون، كورونا جابه الله ويشيله الله، يوم تفارق روحي البدن ما تنسوا سمبل الحنوط، المسك، القرنفل، والريحة، كلها ملفوفة في خرقة خضراء، محفوظة داخل شنطة الحديد الخضراء، ربنا يلبسنا الأخضر، لباس أهل الجنة).

صمتت لفترة ثم استدركت قائلة:

(إن شاء الله ما نسيت الشنطة الخضراء؟).

رد مبتسما:

(معقول ده يا أمي! أنسى روحي ولا أنسى شنطتك الخضراء).

تحركت بهما الحافلة، تثنت بين شوارع المدينة، تخطت آخر بيوتها، التفت نحو أمه، خاطبها بنبرة رقيقة قائلاً:

(خلاص يا أمي ودعي مدينتك التي عشت فيها سنوات طويلة).

التفتت من خلال زجاج نافذة الحافلة نحو مزارع خضراء، تمتمت بنفس كلماتها المشحونة بحب بريء:

(ودعتكم الله، الله يحفظكم ويحفظنا، ويسلمكم ويسلمنا من كورونا، ومن مصائب الدنيا كلها).

شعر بخفة لا تضاهيها خفة، طار كعصفور من عصافير الجنة، تمتم في نبرة سماوية قائلاً:

(أخذي راحتك يا أمي، نحن في رحلة إلى جنة الخلد).

حملت تيارات هواء باردة تنبعث من فتحات مكيف الحافلة هاتين الكلمتين، بثتهما في كل الأنحاء، الأرجاء، والفضاءات...

جنة الخلد... جنة الخلد... جنة الخلد...

جنة الخلد... جنة الخلد...

جنة الخلد...

على وقع أحرف (ج. ن. ة. ا. ل. خ. ل. د)، وعلى لمسات هبات نسمات لطيفة حانية لهواء بارد، عطره ساحر غامض وانسيابه خفيف رقيق، حلقا بأجنحة بيضاء فوق سماء بيتهما، سماء الحارة، سماء المدينة، وسماء المزارع، غردا بألحان طيور خبزهما الناشف، ابتسما بوجهين توهجا بتوهج أزهار شجرة (القولدمور)، ومن ثم راحا في غفوة ملائكية.

تمت